2

تاريخ الدولة العباسية

الدكتورة
إيناس حسني البهجي



بالعلم نرتقي
مركز الكتاب الأكاديمي

تاريخ

الدولة العباسية ج2

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2016/4/1939)

956.05

البهجي، ايناس حسني

تاريخ الدولة العباسية/ ايناس حسني البهجي عمان:مركز الكتاب الاكاديمي، 2016

ج1+ج2 ()ص.

ر.إ.: 2016/4/1939

الواصفات: /العباسيون//التاريخ الإسلامي

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

الطبعة الأولى 2017

ISBN978-9957-35-219-6 (ردمك)

مركز الكتاب الأكاديمي

عمّان-وسط البلد-مجمع الفحيص التجاري

ص . ب : 11732 عمّان (1061) الأردن

تلفاكس: 96264619511+ موبايل: 962799048009+

الموقع الإلكتروني: www.abcpub.net

A.B.Center@hotmail.com / info@abcpub.net

تاريخ

الدولة العباسية ج2

الدكتورة

إيناس حسني البهجي



الإهداء

إلى أصحاب العلم

مقدمة تذكره

لخلافة العباسية وأساسها السياسي

قامت الدولة العباسية على أنقاض الخلافة الأموية، وقد كانت جهود الدعاة العباسيين أحد العوامل الرئيسية في إسقاطها، وإقامة صرح الدولة العباسية على أيدي الموالي في خراسان خاصة.

يعَدُّ قيام الدولة العباسية بالطريقة التي قامت بها انقلابًا في مسيرة التاريخ الإسلامي؛ إذ إن الخلافة الراشدة قد قامت على أساس الشورى، ثم قامت الدولة الأموية - في نشأتها - على نفس الأساس بعد تنازل الحسن بن علي لمعاوية رضي الله عنهم جميعًا، ولكن الدولة العباسية قامت بالخروج المسلح على الحاكم القائم دون شورى من المسلمين، كما كانت دماء المسلمين الأمويين هي وقود نار الثورة العباسية، وذلك أمر غير مسبوق في الإسلام.

وقد حاول المؤرِّخون كشف مكنونات هذا التحول وتفسيره منطلقين من مفاهيم مختلفة، فقد رأى فيه بعضهم:

1. ثورة الفرس على الحكم العربي.
2. في حين علَّله بعضُهم بأنه مجرد ثورة على حكم بني أمية لإزاحتهم عن الحكم وإحلال العباسيين مكانهم.
3. وقال فريق آخر بحتمية هذا التحول نتيجة التطورات التي شهدها العالم الإسلامي خلال القرن الأول الهجري.
4. ويرى فريق آخر بأنه اجتهاد فقهي خاطئ، فالشيعة يقولون بأولوية آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم بالخلافة، وأحق آل البيت هو عليٌّ كرم الله وجهه، وأن عليًّا رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها، ويُؤَوِّلونها على مقتضى مذهبهم الفاسد، لا يعرفها جهابذةُ أهل السنة، ولا نَقَلَةُ الشريعة. ومن هنا نشأت فكرة الوصية، ولُقِّبَ عليٌّ رضي الله عنه بالوصي، يريدون أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى لعلي بالخلافة من بعده، وهكذا

كلُّ إمام وصيٌّ من قبله. وعندما قامت الدولة العباسية لم يَرُقْ للعلويين أن يظفر العباسيون بالخلافة دونهم، واعتبروا أن العباسيين خدعوهم؛ إذ لولا اتحادهم معهم ضد الأمويين لما مهد الطريق أمامهم إلى الخلافة.

5. ويرى البعض بأنها حركة شيعية في ثوب سني.

والصواب أنها هذه الأسباب جميعًا.

قامت الفتوحات الإسلامية الأولى على سواعد العرب, وقد استقر أعداد من الفاتحين في المناطق التي دخلوها، بل إن قبائل وبطونًا كاملة قد استقرت في جهة معينة نتيجة وجود كثيرٍ من الفاتحين من أبنائها، وأما وجودهم في مراكز القيادة فهذا أمر طبيعي بصفتهم الفاتحين، وحيث الخلفاء من العرب، ويعتمدون على من يعرفون، وكما حدث هذا عند الأمويين حدث عند العباسيين.

وقد كانت العصبية بين القيسية واليمنية العربيتين أشد بكثير من العصبية بين العرب والفرس، وإن الخلاف بين الشاميين والحجازيين في الأندلس كان أشد مما هو بين العرب والبربر.

انطلاق الدعوة العباسية من الكوفة وقيامها

اتخذت الدعوة العباسية من الكوفة مركزًا لها بصفة أن أنصار آل البيت فيها كثيرون, ومنها يمكن التوجه نحو خراسان والاتصال فيها بسهولة ويسر، ثم إن الدعاة والإمام قد رأوا ضرورة التركيز على الدعوة في خراسان، لا لأنها مركز ثقل بالنسبة إلى الفرس أو إلى الترك، وإنما لقيام الصراع على أشده بين القيسية واليمنية من العرب؛ إذ يمكن الإفادة من هذا الصراع وكسب العناصر المحايدة التي ضاقت ذرعًا به, أو كسب اليمنية التي تشكل أكثرية المجموع العربية هناك، والتي تعادي والي خراسان نصر بن سيار الذي يعتمد على القيسية ويتعصب لها. وقد وجد الدعاة العباسيون - فعلاً - آذانًا مصغية في خراسان، وتمكنوا من النشاط حتى تمَّ لهم الأمر، ولم تكن خراسان لتختلف عن غيرها من الأمصار الإسلامية.

وهناك نقطة يمكن أن نلاحظها وهي أن سكان خُراسان ليسوا من الفُرس، وإنما هم من الأتراك، ومعروف أن حاضرتها كانت مدينة مرو، وهي ضمن بلاد التركمان التي تخضع اليوم للروس، وأن خراسان التي كانت تشمل ما يقع الآن في شمال بلاد الأفغان، وتشمل شرقي إيران، وبلاد التركمان، إن هذه المناطق تضم اليوم سكانًا من الترك بأكثريتهم، وكذا كانت يومذاك، وإن ضمت - إضافة إلى ذلك - مجموعاتٍ من الفُرْسِ من السكان الأصليين ومجموعات من العرب والفرس جاءوا فاتحين واستقروا فيها، إلا أن ارتباط قيام الدعوة العباسية بخراسان, وارتباط تلك الدولة في أذهاننا بالفُرس قد جعلنا نتصور دائمًا سكان خراسان من الفرس، وهو الأمر المفهوم لدى أكثرية الناس، وقامت عصبية على الوهم ضد الفرس، هذا بالإضافة إلى أن الرجل الذي قامت الدولة على كاهله، أبا مسلم الخراساني، قد نُسِبَ إلى خراسان، والواقع أنه ليس من خراسان وإنما من فارس، كما أن اسمه هذا إنما هو اسم حركي، أمّا اسمه الحقيقي فإبراهيم بن عثمان.

قيام الدولة العباسية

قامت الدولة العباسية نتيجة التخطيط والسرية على أيدي سكان خراسان، سواء كانوا عربًا أم فرسًا أم تُركًا، وشكلٌ طبيعي أن يحصل هؤلاء على مراكز كبيرة ومناصب عالية في الدولة، وكان من جملة هؤلاء أعداد من الفرس ـ مع أنهم أقل من غيرهم ـ ما داموا يشكلون جزءًا من السكان، وبرز منهم فئة، وظن بعضهم أن الدولة أصبحت لهم ما دام منهم كبير القادة وهو أبو مسلم الخراساني، ثم لم يلبث أن حدث نزاع بينهم وبين الخلفاء العباسيين الذين لا يريدون أن يستأثر غيرهم بالسُّلطة سواءٌ أكان عربيًّا أم فارسيًّا أم تركيًّا, وكما تخلصوا من أبي مسلم الخراساني فإنهم قد تخلصوا أيضًا من عبد الله بن علي بن العباس الهاشمي عم الخليفة، وقائد الدولة، بل إن الخليفة المنصور قد ضرب أحدهما بالآخر، فلماذا ركَّز أصحاب العصبيات على أبي مسلم وأغفلوا التخلص من عبد الله بن علي؟

فكلاهما صاحب أطماعٍ بغضِّ النظر عن فارسية الأول وعربية الثاني.

وبالرغم من خطورة الفتنة الكبرى التي تمت بين الصحابة إلا أنها كانت أرحم بكثير من الفتنة التي صاحبت قيام الدولة العباسية، وذلك بسبب:

- انتهاء جيل الصحابة.
- أنَّ الصحابة كانوا مجتهدين؛ فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ ولكلٍّ أجره. ولكن هنا كانت الدنيا محرِّكة لأطراف كثيرة في الصراع إلى حد كبير.

تميز تاريخ الدولة العباسية بشيوع الاضطرابات والثورات طوال تاريخ الدولة تقريبًا، وإن كانت هذه الاضطرابات تحدث في عصر خليفة قوي أحيانًا، وفي عصور خلفاء ضعافٍ أحيانًا أخرى كثيرة.

بدأت الدولة العباسية بعصر التأسيس الذي شمل عصر أول خلفائهم أبي العباس السفاح، ثم أخيه أبي جعفر المنصور، وقد شُغِلوا في هذه الفترة بتوطيد أركان الدولة، والقضاء على بعض العناصر التي أرادت اختطاف الثورة لصالحها، والتمكين لنفسها على حساب العباسيين كأبي سَلَمة الخلاَّل وأبي مسلم الخراساني، كما شملت القضاء على رغبة الطالبيين (آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه) الذين خدعهم العباسيون في بداية الثورة بأن الدولة ستكون دولتهم.

الخلافة العباسية في عهد هارون الرشيد

تُعْتَبَر خلافة هارون الرشيد بداية عصر القوة في الدولة العباسية، ويشمل ذلك العصر خلافة ابنه المأمون، ثم المعتصم بن الرشيد، فالواثق بن المعتصم؛ حيث تميز هذا العهد بقوة السلطة المركزية، وبالتنظيمات الإدارية، والإصلاحات.

كما تميز أيضًا بالفتوحات العظيمة، وارتفاع شأن الخلافة الإسلامية، وصيرورتها القوة العظمى الوحيدة في العالم، وخضوع أقاليم الدولة لسيادتها - ما عدا الأندلس التي تمكن عبد الرحمن الداخل من الوصول إليها، وإقامة خلافة أموية هناك، ولم يستطع العباسيون المساس بجنابها -، وإن حفل هذا العصر - عصر القوة - بعديد من الثورات التي استطاعت الخلافة القضاء على أكثرها، واستمر بعضها طوال

عهد الدولة العباسية، كما جرى فيه صراع داخلي كبير على السلطة بين الأخوين: الأمين والمأمون وليـي عهد الرشيد، وجرت بينهما الحرب التي أسفرت عن مقتـل الأمـين الـذي اعتمـد عـلى العـرب، وانتـصار المأمون الذي اعتمد على الفُرس، وتولِّيه الخلافة.

العصر العباسي الأول مميزات العصر العباسي الأول:

سيطرة شبه كاملة للفرس على الجهازين العسكري والإداري:

عندما قامت الخلافة العباسية كـان للفُـرس اليـد العليـا في قيامهـا وخاصـة الخراسـانيين، وقـد سنحت الفرصة لهؤلاء للاستئثار بالسلطة وتـولي الحكـم، وسـاعد عـلى ذلـك شـدة ميـل العباسـيين إلى الفرس، وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية، وقد أثار ذلك كراهية العرب بتقريب الفرس إليهم؛ لذا لا نعجب من انصراف العرب عن العباسيين، فقد دَبَّ في نفوسهم دبيبُ الكراهية لهـم وللفـرس الـذي استأثروا بالسلطة دونهم؛ لممالأة العباسيين لهم واعـتمادهم عـلى ولائهـم، فقامـت الفـتن والثـورات في البلاد الإسلامية.

وكان من أثر ذلك الميل الذي أبداه العباسيون نحو الفرس وتلك الرعاية التي حاطوهم بهـا، أن أصبح نظام الحكم عند العباسيين مماثلاً لما كان عليه في بـلاد الفـرس أيـام آل ساسـان، قـال "بـالمر" في كتابه "هارون الرشيد": "ولما كان العباسيون يـدينون بقيـام دولـتهم للنفـوذ الفـارسي، كـان طبيعيًّـا أن تسيطر الآراء الفارسية؛ ولهذا نجد وزيرًا من أصل فارسي على رأس الحكومة، كما نجد أيضًا أن الخلافـة تدار بنفس النظام الذي كانت تدار به إمبراطورية آل ساسان".

كما اتخذ الخلفاء الموالي من الخراسانيين حرسًا لهم لاعتمادهم على ولائهم وإخلاصهم، واسـتبد هؤلاء الخلفاء بالسلطة، وتسلطوا على أرواح الرعية كما كان يفعل ملوك آل ساسان من قبل، وظهـرت الأزياء الفارسية في البلاط العباسي.

وطبيعي أن يميل العباسيون إلى الفرس، الذين ساعدوهم على تأسيس دولـتهم، وقاموا في وجه أعدائهم الأمويين، وإن مثل هذا الميل إلى الفرس، وتلـك الكراهـة التـي

أضمرها العباسيون للأمويين لتتمثل في تلك الخطب التي ألقاها داود بن علي وأبو جعفر المنصور وغيرهما، يشيدون فيها بمآثر الفرس، وما بذلوه من جهود في سبيل قيام الدولة العباسية.

***الوزارة:**

عندما انتقلت الخلافة إلى العباسيين، اتخذوا نظم الحكم عن الفرس ومنها الوزارة، وكان أول وزير للعباسيين أبا سلمة الخلال، لكن معالمها لم تتحدد في عهده؛ ولأن الدعوة العباسية قد قامت على أيدي الفرس وبمساعدتهم فمن الطبيعي أن يكون وزراء العصر العباسي الأول من الأعاجم مثل: البرامكة وبني سهل، وعلى أيدي هؤلاء اكتسبت الوزرة شكلها النهائي في أواخر العصر العباسي الأول، وكان الوزير في أيام العباسيين:

- ساعد الخليفة الأيمن.
- نائبًا عنه في حكم البلاد.
- يعين الولاة.
- يشرف على الضرائب.
- يجمع في شخصه السلطتين: المدنية والحربية.
- صاحب المشورة التي يسترشد بها الخليفة.

وكان الوزراء في العصر العباسي الأول يتجنبون تسمية أنفسهم باسم "وزير"، على الرغم من قيامهم بأعمال الوزارة ومهامهم، فإليهم يرجع الفضل في ضبط أمور الدولة، ونشر لواء الأمن والعدل بين الرعية، ومَرَدُّ ذلك إلى تخوف الوزراء من الخلفاء بعد أن لقي البعض منهم حتفه على أيديهم, ولكن هذا لم يمنع الوزراء من الإقبال على اكتساب الألقاب المنسوبة إلى الدولة، مثل:

عماد الدولة، وعز الدولة، وركن الدولة.

وكانت الوزارة أيام العباسيين ضعيفة أمام قوة الخلافة، قوية كلما ضعفت الخلافة؛ لـذا تطـرق الفساد إلى منصب الوزارة في عهد الخليفة المقتدر 295- 320هـ/ 908- 932م لاتباعه سياسة خرقـاء في تعيين وزرائه وعزلهم، حتى تقلَّد الوزارة في عهده اثنا عشر وزيرًا، عُـزِل بعـضُهم أكـثر مـن مـرة، وكـان لضعف الوزراء في ذلك العصر وازدياد نفوذ القواد أن ضاعت هيبة الوزارة فلم يبـق للـوزراء شيء مـن النفوذ؛ فاقتصرت وظيفتهم على الحـضور إلى دار الخلافـة في أيـام المواكـب مُرتَـدِين الـسواد متقلـدين السيوف والمناطق وغيرها من شعارات الوزارة، وأصبح تعيين الـوزراء وعـزلهم بيـد أمـير الأمـراء الـذي هيمن على شئون الخلافة والوزارة والدولة جميعًا, وبخاصة في عصر البويهيين والسلاجقة.

*** بروز الكُتَّاب:**

اتسعت الدولة العربية الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وضـمت شـعوبًا وطوائـف عديـدة من الناس، فكان لا بُدَّ لهذه الدولة من أن ينشأ فيها جهاز وظيفي يتولى أعـمال الكتابـة التـي يوجهها الخليفة إلى الوزير أو القـضاة والـولاة في الأقـاليم، وتـسجيل الرسـائل الـواردة مـن الـولاة والقـضاة إلى الخلافة، وكذلك في سائر الدواوين كانت هناك الحاجة إلى من يتولى الأعمال الكتابية فيها.

وفي العصر الأموي والعصر العباسي استمرت تلك الحاجة إلى مجموعة من الموظفين أو الكتـاب للقيام بالأعمال الكتابية، خاصة في العصر العباسي الأول بعدما تعـددت الـدواوين لمـساعدة الـوزير في أعماله الواسعة، وللإشراف على هذه الدواوين المختلفة وإدارة شئونها، فاقتـضى طبقًـا لـذلك أن يكـون لكل وزير كاتب أو كتَّاب يساعدونه، وأن يكون لكل والٍ من ولاة الأقاليم ورجال الدولة كاتب أو أكثر.

ويرأس جماعة الكتّاب الوزير، وأحيانًا كثيرة كان بعض الكتاب يتدرجون في الرقي إلى أن يتولوا الوزارة معتمدين على كفايتهم الكتابية وبلاغة أقلامهم.

وتولى الأعمال الكتابية في الخلافة العباسية الفرس؛ لأن الفرس كانت لهم القدرة الفائقة في الكتابة، بينما كان العرب يفخرون بالسيف لا بالقلم، لذا نجد كثيرًا من الكتاب في العصر العباسي يحذون حذوَ أجدادهم الفرس، حتى في مظهرهم الخارجي، وكان لامتلاك بعض الكتاب ثقافةً أوسعَ من ثقافة غيرهم، ودائرة معارفهم الواسعة، ودرايتهم بأحوال الناس الاجتماعية, وتقاليدهم الكبيرة الفضلُ في سيطرة الفُرس على ميدان الكتابة، هذا فضلاً عن إن إجادتهم عملهم كان يتطلب دراية في اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ والجغرافيا، إلى جوانب كثيرة قد تعرض في مسائل للخليفة أو الوزير أو الوالي.

ولما كانت الأعمال الكتابية مهمة وخطيرة يجب على من يتولاها أن يتحلى بأخلاق حميدة وثقافة واسعة ودقيقة، فقد تعددت الكتب التي أُلِّفَتْ لجماعة الكُتَّاب بصفة خاصة، فأَلَّف ابنُ قتيبة كتابًا اسمه "أدب الكاتب"، أوضح فيه الكثير من ألوان المعرفة التي اعتقد "ابن قتيبة" أن الكاتب بحاجة إليها، كما أَلَّف أبو بكر الصولي كتاب "أدب الكاتب" توسَّع فيه في شرح أمور كثيرة لم يعرض لها ابن قتيبة، ونصح "عبد الحميد الكاتب" الكُتّاب فقال: "فنافسوا معشرَ الكتَّاب في صنوف العلم والأدب، وتفقهوا في الدين، وابدءوا بعلم كتاب اللـه عز وجل والفرائض, ثم العربية فإنها ثقافة ألسنتكم, وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها؛ فإن ذلك معين لكم على ما تسعون إليه، ولا يضعفن نظركم في الحساب؛ فإن قوام كتاب الخراج منكم".

تنوع الكتَّاب تبعًا لتنوع الدواوين في ذلك العصر، فكان منهم كتاب الرسائل وكتاب الخراج وكتاب الجند وكتاب الشرطة وكتاب القاضي, وقد كان صاحب ديوان الرسائل الكاتب الأهم والأعلى شأنًا من غيره، إذ كان عليه إذاعة المراسيم وإبراءات وتحرير الرسائل السياسية، وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في صيغتها النهائية، وكانت مهمة كاتب الرسائل تشبه وزارة الخارجية اليوم؛ فكان يتولى مكاتبة الملوك والأمراء عن الخليفة بأسلوب عذب بليغ؛ لذا روعي في الكاتب رصانة الأسلوب، وسعة العلم فضلاً عن عراقة الأصل.

وقد زَخَرَ العصر العباسي الأول بطائفة من الكتاب لم يسمح الدهر بمثلهم، فقد اشتُهِرَ يحيى بن خالد البرمكي، والفضل بن الربيع في عهد هارون الرشيد، واشتهر الفضل والحسن ابنا سهل، وأحمد بن يوسف في عهد المأمون, واشتهر محمد بن عبد الملك الزيات، والحسن بن وهب، وأحمد بن المدبر في عهد المعتصم والواثق.

الحركة العلمية

شهد عصر القوة العباسي نهضة علمية بالغة القوة والتنوع، ويتحدث الأستاذ "نيكلسون" عن النهضة الثقافية في العصر العباسي قائلاً: "وكان لانبساط رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها، ورواج تجارتها أثر كبير في إنشاء نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل، حتى لقد بدا أن الناس جميعًا من الخليفة إلى أقل الأفراد شأنًا غدوا فجأة طلابًا للعلم، أو على الأقل أنصارًا للأدب. وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيًا إلى موارد العلم والعرفان؛ ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين, ثم يصنِّفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنفات التي هي أشبه شيء بدوائر للمعارف، والتي كان لها أكبر الفضل في إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعةً من قبل".

*** اشتغال الموالي بالعلم:**

مما يسترعي نظر الباحث في تاريخ الثقافة الإسلامية أن السواد الأعظم من الذين اشتغلوا بالعلم كانوا من الموالي، وخاصة الفرس، وكانت اللغة العربية هي الوسيلة الوحيدة للتفاهم بين المسلمين إلى أن أزال المغول الخلافة العباسية من بغداد في القرن السابع الهجري.

*** تقسيم العلوم:**

لقد ميز كُتَّابُ المسلمين بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم وبين العلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم، ويُطلَق على الأولى: العلوم النقلية أو الشرعية، وعلى الثانية: العلوم العقلية أو الحكمية، ويطلق عليها أحيانًا علوم العجم، أو العلوم القديمة. وتشمل العلوم النقلية: علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، والفقه،

وعلم الكلام، والنحو واللغة، والبيان، والأدب. وتشمل العلوم العقلية: الفلسفة، والهندسة، وعلم النجوم، والموسيقى، والطب، والكيمياء، والتاريخ، والجغرافيا.

وفي العصر العباسي الأول اشتغل الناس بالعلوم الدينية، وظهر المتكلمون, وتكلم الناس في مسألة خلق القرآن، وتدخل الخليفة المأمون في ذلك؛ فأوجد مجالس للمناظرة بين العلماء في حضرته، ولهذا عاب الناس عليه تدخله في الأمور الدينية، كما عابوا عليه تفضيله علي بن أبي طالب على سائر الخلفاء الراشدين، وذهب البعض إلى أن المأمون أراد بعقد هذه المجالس إزالة الخلاف بين المتناظرين في المسائل الدينية، وتثبيت عقائد من زاغوا عن الدين، وبذلك تتفق كلمة الأمة في المسائل الدينية التي كانت مصدر ضعفهم، وكان "المأمون" يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة؛ لأنه أكثر انفلاتًا من الشرع، وأكثر اعتمادًا على العقل في الأمور التي لا يصل إليها، فقرَّب أتباع هذا المذهب إليه؛ ومن ثَـمَّ أصبحوا ذوي نفوذ كبير في قصر الخلافة.

أ- العلوم النقلية:

1ـ علم القراءات:

ومن العلوم التي اشتغل بها العباسيون علم القراءات، ويعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن. وقد وجدت سبعة طرق في القراءات، تمثل كل طريقة منها مدرسة معترف بها ترجع قراءتها إلى إمام ترتبط باسمه، ويرجع أغلب الاختلافات في القراءات إلى رجال موثوق بهم ممن عاشوا في القرن الأول كابن عباس، وعائشة، وعثمان صاحب القراءة وابنه أبان، وإلى قُـرَّاء معترف بهم كعبد الله بن مسعود، وأُبيّ بن كعب، وهؤلاء قد أثنى عليهم التابعون وغيرهم.

ومن أشهر أصحاب القراءات في العصر العباسي الأول يحيى بن الحارث الذماري المتوفى سنة 145هـ/ 763م، وحمزة بن حبيب الزيات المتوفى سنة 156هـ/

773م، وأبو عبد الرحمن المقرئ المتوفى سنة 213هـ/ 829م، وخلف بن هشام البزار المتوفى سنة 229هـ/844م.

2ـ التفسير:

اتجه المفسرون في تفسير القرآن اتجاهين: يعرف أولهما باسم التفسير بالمأثور: وهو ما أُثِر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة رضوان الله عليهم، ويعرف ثانيهم باسم التفسير بالرأي: وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل، ومن أشهر مفسري هذا النوع المعتزلة والباطنية.

على أن النوع الأول من التفسير وهو التفسير بالمأثور، قد اتسع على مر الزمن بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام، والذين كانت لهم آراء أخذوها عن التوراة والإنجيل مثل: كعب الأحبار اليهودي، وعبد الله بن سلام، وابن جريج، ولقد كان إسلام هؤلاء فوق التهمة والكذب, ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم.

ولما كان الحديث يشغل كل عناية المسلمين في صدر الإسلام اعتُبر التفسير جزءًا من الحديث أو فرعًا من فروعه، حتى إن التفسير في ذلك العهد كان تفسيرًا لآيات مبعثرة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات إلا تفسير ابن عباس، ولو أن كثيرين يشككون في نسبته إليه.

أمَّا الطريقة المنظمة في تفسير القرآن فإنها لم تحدث إلا في العصر العباسي، فقد روى "ابن النديم" في "الفهرست": "أن عمر بن بكير كان من أصحاب الفرَّاء صاحب كتاب (معاني القرآن) المتوفى سنة 207هـ/ 823م, وكان منقطعًا إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفرَّاء: إن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً، أو تجعل في ذلك كتابًا أرجع إليه فعلت. فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتابًا في القرآن. وجعل لهم يومًا، فلما خرج إليهم وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة، فالتفت إليه الفراء فقال له: اقرأ. وبدأ بفاتحة الكتاب ففسرها، ثم استوفى

الكتاب كله، فيقرأ الرجل، ويفسر الفراء، فقال أبو العباس: لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحـدًا يزيد عليه".

ومن ذلك نرى أن القرآن الكريم قد أصبح منبعًا لكثير من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي، فعلماء النحـو اتخـذوا منـه مـادة خـصبة يعتمـدون عليهـا في اسـتنباط قواعـد اللغـة العربية، كما ساعد "الإعراب" على تفسير القرآن وكشف غوامض بعض الآيات القرآنية، حتى لقد وضـع علماؤهم كالكسائي والمبرد والفراء وخلف النحوي كتبًا أطلقوا عليها "معاني القرآن"، كما اعتمد الفقهـاء في آرائهم الفقهية على القرآن أساسًا للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه، وألّفوا في المذاهب المختلفة كتبًـا سموها "أحكام القرآن"، ومن هؤلاء الشافعي وأبو بكر الرازي، أضف إلى ذلك مـا كتبـه المؤرخـون مـن تفسير الآيات القرآنية التاريخية من حيث صلتها بتاريخ الأمم الأخـرى، وغـير خـافٍ أن القـرآن الكـريم من أهم المصادر التاريخية على الإطلاق؛ لأنه أقدمها وأصدقها وأوسعها مجالاً.

3ـ الحديث:

ومن أهم مصادر التشريع الإسلامي "الحديث"، وهو ما أُثِرَ عن النبي صـلى اللـه عيـه وسـلم من قول أو فعل أو تقرير لشيء رآه، ويأتي في الأهمية بعد القرآن الكريم.

وكانت دراسة علوم القرآن الكريم باعثًا قويًا على ظهور علوم الحـديث الـشريف؛ وذلـك لأنـه يفصل ما أجمله القرآن الكريم، ويفسر ما يصعب على النـاس فهمـه، فقـد شرح الحـديث الكثـير مـن الآيات القرآنية، ولم يُدوَّن الحديث الشريف تـدوينًا شـاملاً مـنظمًا في عهـد الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم, وفي عهد صدر الإسلام. ويُروَى أن الرسول صلَّى اللـه عليه وسلَّم نهى عن تدوين الحديث حتـى لا يختلط بالقرآن الكريم حيث قال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عنـي ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار».

وقد ظهرت بدايات تدوين الحديث الشريف في عهد الخليفة الأموي عمـر بـن عبد العزيز الذي كلف بعض من يثق بهم من علماء الحديث بجمعها، فقال لأبي بكر بن محمد بن حزم (ت120هـ/ 738م) عندما كلفه بهذه المهمة ما نصه: "انظر ما كان

من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو سنة ماضية، أو حديث عمرة فاكتبه؛ فإني خشيت دروس العلم، وذهاب أهله".

فكتب الأحاديث في دفاتر، وأُرْسِلَتْ منها نسخ إلى أنحاء الدولة الإسلامية.

حتى إذا جاء القرن الثاني للهجرة أخذ المسلمون يدونون الأحاديث النبوية، وأتاحوا الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث الذين ظهروا في العصر العباسي، واشتهر منهم سفيان الثوري (ت161هـ/ 778م)ـ أمير المؤمنين في الحديث ـ وله من الكتب "الجامع الكبير"و"الجامع الصغير"،كلاهما في الحديث.

والإمام مالك بن أنس (ت 179هـ/ 796م) أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وجّه إليه الرشيد العباسي ليأتيه فيحدثه، فقال: العلم يُؤتَى. فقصد الرشيد منزله واستند إلى الجدار، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، من إجلال رسول الله إجلال العلم. فجلس بين يديه فحدّثه، ومن مؤلفاته كتاب "الموطأ".

وسفيان بن عيينة (ت 198هـ/ 814م) كان حافظًا ثقة، واسع العلم، قال عنه الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. له كتاب "الجامع" في الحديث. والإمام أحمد بن حنبل (ت241هـ/ 856م) صاحب كتاب "المسند" الذي اشتمل على أربعين ألف حديث تكرر فيها عشرة آلاف، ويعدّ هذا الكتاب من الكتب المعتمدة في علم الحديث.

وشهد علم الحديث في القرن الثالث الهجري نشاطًا كبيرًا عندما اتسعت حركة الجمع, واستقر نقد الحديث للتمييز بين الصحيح والضعيف، وجمعت الأحاديث في كتب خاصة، وأفردت عن الشروح الفقهية، فظهرت المصنفات الصحيحة وأشهرها صحيح البخاري (ت256هـ/870م)، وصحيح مسلم (ت261هـ/ 875م)، وسنن ابن ماجه (ت273هـ/887م)، وسنن أبي داود (ت275هـ/ 889م)، وجامع الترمذي (ت279هـ/ 893م)، وتسمى هذه الكتب (بالصحاح الستة)، وأشهرها توثيقًا صحيحا البخاري ومسلم.

4- الفقه:

كان اختلاف أئمة الفقه في بعض النصوص الفقهية، واستنباط الأحكام منها قد أدى إلى تعدد المذاهب الفقهية، واشتهر من هذه المذاهب أربعة هي: مذهب مالك إمام أهل الحجاز، وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة أهل الحديث. ومذهب أبي حنيفة إمام أهل العراق، وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة الرأي والقياس. ومذهب الشافعي وكان يسير أولاً على طريقة أهل الحجاز، ثم جعل مذهبه وسطًا بين الطريقتين. ومذهب أحمد بن حنبل، وكان من كبار المحدثين، واختص هو وأصحابه بالمذهب الحنبلي الذي يبعد عن الاجتهاد؛ مما أدى إلى قلة عدد المتمسكين بمذهبه.

*** ظهور المدارس الفقهيه**

ظهرت في ميدان الفقه مدرستان: مدرسة أهل الحديث في المدينة وعلى رأسها الإمام مالك الذي كان يأخذ بمبدأ التوسع في النقل عن السنة، ومدرسة أهل الرأي في العراق وعلى رأسها الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت المولود بالكوفة سنة 80هـ/ 700م، ومات ببغداد سنة 150هـ/ 767م.

وقيل: إنه حج وهو في السادسة عشرة من عمره مع أبيه، وشهد عبد الله بن الحارث أحد الصحابة يحدّث بما سمع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما روي أيضًا أنه سمع مالك بن أنس، وكان أبو حنيفة بجانب اشتغاله بالعلم يحترف التجارة؛ فيبيع الخز، ويجلس في الأسواق مما أكسبه خبرة عظيمة, وجعله يعرف حقيقة ما يجري في الأسواق من معاملات الناس في البيع والشراء.

وقد تعلم أبو حنيفة الفقه في مدرسة الكوفة، وأخذ عن عطاء بن أبي رباح، وهشام بن عروة، ونافع مولى عبد الله بن عمر، ولكنه أخذ أكثر علمه عن أستاذه حماد

بن أبي سليمان الأشعري، وكان أبو حنيفة يتشدد في قبول الحديث، ويتحرَّى عنه وعن رجاله.

ولم يصل إلينا أي كتاب في الفقه لأبي حنيفة، غير أن ابن النديم ذكر من بين كتبه كتاب الفقه الأكبر ـ وهو في العقائد ـ ورسالته إلى البُستي، وكتاب الرد على القدرية، والعلم برًّا وبحرًا شرقًا وغربًا بعدًا وقربًا.

ومن فقهاء ذاك العصر مالك بن أنس الذي قضى حياته بالمدينة المنورة، روي أنه أخذ قراءة القرآن عن نافع بن أبي نعيم، وأخذ العلم عن ربيعة الرأي، وسمع الحديث من كثير من شيوخ المدينة كابن شهاب الزهري، ونافع مولى عبد الله بن عمر، وروى عنه الأوزاعي.

ومن أشهر أئمة هذا العصر أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي الذي جمع بين مدرستي النقل والعقل بما آتاه الله من سعة العقل والقدرة على الابتكار، وهو أول من تكلم في أصول الفقه، وأول من أخذ في وضع مبادئه، وكان الشافعي مُعظِّمًا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإنه إذا أراد أن يحُدِّث توضأ وجلس على صدر فراشه, وسرح لحيته, وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة.

قال عنه أحمد بن حنبل رحمه الله: ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعي. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي؟! فإني سمعتك تكثر من الدعاء له. فقال: يا بني, كان الشافعي كالشمس للدنيا, وكالعافية للبدن، هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض؟

ومن هؤلاء الأئمة أحمد بن حنبل رحمه الله الذي قال عنه الإمام الشافعي رحمه الله عندما خرج من بغداد إلى مصر: "خرجت من بغداد وما خلَّفتُ بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل". غير أن مذهبه قليل الأتباع، وأكثرهم بالشام ونجد والبحرين، وقد شهد له أئمة عصره بالانفراد بالزهد والورع والتقوى، وموقفه من مشكلة خلق القرآن يدل على قوة عزيمته, وشدة تمسكه بالدين.

ومن فقهاء ذلك العصر أبو يوسف (ت182هـ/ 798م)، وقد تولى القضاء للمهدي والهادي والرشيد، وكان في أيام الرشيد يتقلد منصب قاضي القضاة. وكان أبو يوسف من أكبر تلاميذ أبي حنيفة، أخذ عنه الفقه، وعمل على نشر مذهبه ومبادئه بعد أن تقلد قضاء بغداد. ومن مؤلفات أبي يوسف كتاب "الخراج" الذي ألفه للرشيد, وتعرض فيه لأهم أمور الدولة المالية التي لا يستطيع الإلمام بها إلا من كان في مثل منصبه, وقربه من الخلفاء, وتضلعه في الفقه الإسلامي.

ومن أشهر فقهاء هذا العصر - كذلك - الليث بمصر، وقد أطنب العلماء في الإشادة بعلمه، روي عن الشافعي أنه قال: إن الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به. وقال ابن وهب: ما رأينا أحدًا قَطُّ أفقه من الليث (ت 157هـ/ 774م).

5- علم الكلام:

من العلوم التي اشتغل بها العباسيون علم الكلام، ويقصد به الأقوال التي كانت تُصاغ على نمط منطقي أو جدلي للدفاع عن عقيدة المتكلم، كما يسمى المشتغلون بهذا العلم "المتكلمين"، وكان يطلق هذا اللفظ أول الأمر على من يشتغلون بالعقائد الدينية، غير أنه أصبح يطلق على من يخالفون المعتزلة ويتبعون أهل السنة والجماعة.

وكان من أثر ذلك أن أخذت كل فرقة تدافع عن عقيدتها، وتعمل على دحض الأدلة التي وردت في عقائد مخالفيها، وكانت المناظرات تعقد بين المتكلمين في قصور الخلفاء، وفي المعاهد الدينية كالمساجد، وغير الدينية كبيوت الحكمة. ومن أشهر المتكلمين: واصل بن عطاء، وأبو الهذيل العلاف، وإبراهيم النظام، وعمرو بن بحر الجاحظ، وبشر بن غياث، وثمامة بن أشرس.

وقد ظهر في عهد المأمون جماعة من كبار العلماء والمتكلمين الذين تناولوا أصول الدين والعقائد، وحَكَّموا عقولهم في البحث، ونشأت بسبب ذلك اعتقادات تخالف اعتقادات عامة المسلمين، وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث، وكان اعتماد المتكلمين في مباحثهم على العقل دون النقل، ومال المأمون إلى الأخذ بمذهب المعتزلة الفاسد، القائم على نبذ الشرع وتقديم العقل عليه؛ فقرَّب أتباع هذا المذهب

إليه، ومن ثَمَّ أصبحوا ذوي نفوذ كبير في قصر الخلافة ببغداد, ووافقهم فيما ذهبوا إليه من أن القرآن مخلوق وهي بدعة ضالة، وعمد إلى تسخير قوة الدولة لحمل الناس على القول بخلق القرآن؛ ربما لفساد عقيدته, وربما لشغل الناس عن القضايا السياسية ومحاسبة الحكام، كما يرى بعض الباحثين.

وصفوة القول: إن بعض خلفاء العصر العباسي الأول، كالمأمون والمعتصم والواثق شجَّع بعض الآراء الفلسفية والبحث العقلي في المسائل الدينية، وأن هؤلاء الخلفاء وقعوا فيما وقع فيه الروم من قبل، فأخذوا ببعض هذه الآراء واضطهدوا المعارضين لها، وعضدوا علماء الكلام فيما ذهبوا إليه من المسائل الدينية، وبخاصة مسألة خلق القرآن التي شغلت عقول الخلفاء وعلماء الكلام نحو خمس عشرة سنة (218- 232هـ/ 833- 847م).

6- النحو:

نشأ علم النحو في البصرة والكوفة اللتين صارتا من أهم مراكز الثقافة في القرن الأول الهجري، وفي هاتين المدينتين كانت تقيم جاليات عربية تُنسَب إلى قبائل عربية مختلفة ذات لهجات متعددة، وآلاف من الصُّنّاع والموالي الذين كانوا يتكلمون الفارسية، ومن ثَمَّ تعرضت العبارات العربية السليمة إلى شيء غير قليل من الفساد, ودعت الضرورة إلى تقويم اللسان العربي؛ حتى لا يتعرض القرآن الكريم للتحريف، وكان أبو الأسود الدؤلي أول من اشتغل بالنحو في عهد الأمويين، وقد قيل: إنه تلقى أصول هذا العلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومن علماء البصرة المبرزين في العصر العباسي الأول أبو عمرو بن العلاء (ت 153هـ/770م)، والخليل بن أحمد (ت 174هـ/ 791م) واضع علم العروض، وصاحب كتاب "العين" الذي يُعتَبر أول معجم وُضِعَ في اللغة العربية, وسيبويه الفارسي، ويعرف كتابه باسم "كتاب سيبويه"، والمبرد صاحب كتاب "الكامل"، ومن أشهر علماء الكوفة الكسائي الذي عهد إليه هارون الرشيد بتهذيب ابنيه الأمين والمأمون، وتلميذه الفراء المتوفى سنة 207هـ/ 823م.

ويعدّ الرؤاسي (ت235هـ/ 850م) مؤسس مدرسة الكوفة ورأس علمائها، قد غلبت عليه الناحية الصرفية التي اهتم بها الكوفيون, وتقدموا بها على أهل البصرة حتى عَدَّهم المؤرخون الواضعين لعلم الصرف.

وعندما تأسست مدينة بغداد وانتقلت الحركة العلمية إليها تكونت فيها مدرسة جديدة للنحو وقفت بين مدرستي البصرة والكوفة، وشجع الخلفاء العباسيون المناظرات العلمية بين علماء المدرستين، وأشهرها مناظرة الكسائي إمام الكوفة وسيبويه إمام البصرة، وفيها تغلب الكسائي فكان ذلك فوزًا لمدرسة الكوفة في بغداد، وقد أدى الخلاف بين المدرستين إلى بلورة علم النحو.

7- الأدب:

لقد شهد العصر العباسي ثورة ضخمة في الشعر، وظهر كثير من الشعراء الذين نهجوا بالشعر مناهج جديدة في الموضوعات والمعاني والأساليب والألفاظ حتى فاقوا في كل ذلك من سبقهم من الشعراء الإسلاميين والمخضرمين والجاهليين، ونشأت فيه أغراض لم تكن موجودة من قبل، وذهبت أخرى؛ فقد ضعف الشعر السياسي والحماسي والغزل العذري، وقوي شعر المدح والرثاء، وازداد الشعر الحكمي، وظهر الشعر الزهدي والصوفي والفلسفي والتعليمي والقصصي، وأسرف الشعراء المتأخرون في استعمال ضروب البديع من جناس وطباق، واهتموا بتزويق اللفظ.

وقد ازدهرت الحركة الشعرية والأدبية في العصر العباسي بفعل عملية الامتزاج بين المجتمعات والعناصر المختلفة وانتقال الثقافات الأجنبية عن طريق الترجمة، وتبلور الخلافات السياسية والمذهبية بين الفرق الإسلامية مع بعضها البعض من جهة، ومع غيرها من جهة أخرى، فضلاً عن تشجيع الخلفاء والحكام للشعراء في بغداد والمدن الأخرى، ولمع في سماء الأدب العباسي شعراء عديدون كبار أمثال: بشار بن برد (ت168هـ/ 785م)، وأبي نواس (ت198هـ/ 814م)، وأبي تمام حبيب بن أوس الطائي (ت228هـ/ 843م).

(أ) الشعر

نال الشعر من الاهتمام ما لم ينله أي لون أي لون من ألوان الأدب العربي؛ لما عرف عن صلة العرب بالشعر، فقد قيل: "الشعر ديوان العرب". وكان الشعر والأدب ينقل شفهيًّا منذ العصر الجاهلي رغم ضياع أكثره، وفي إطار هذا الجهد التدويني للشعر الجاهلي ظهرت مجموعات شعرية مهمة كالمعلقات والمفضليات والأصمعيات، فالمعلقات هي أقدم ما بقي لنا من مجموعات الشعر الجاهلي، وهي سبع قصائد طوال لسبعة من شعراء الجاهلية المشهورين، جمعها حماد الراوية (ت156هـ/ 773م) وسماها المعلقات، والمفضَّليات هي المجموعة الشعرية الثانية للمفضل بن محمد الضبي الكوفي (ت164هـ/ 781م)، والأصمعيات لعبد الملك بن قُرَيْب الأصمعي (ت216هـ/ 831م)، وهناك مجموعات شعرية أخرى كديوان الحماسة لأبي تمام (ت231هـ/ 846م)، وطبقات الشعراء لابن سلام (ت231هـ/ 846م)، وغيرها من المصنفات التي دونت أهم ما حفظته ذاكرة الرواة من الشعر الجاهلي بعد الإسلام؛ فصانته لنا من الضياع.

وكان للفرق الدينية كالشيعة والمعتزلة التي نشأت في القرن الأول الهجري، ونمت في العصر العباسي الأول، شعراء يدافعون عن مبدئِهم, ويحفزون أتباعهم لمقاومة كل اعتداء يحيق بهم من خلفاء ذلك العصر.

وقد حفَّزت الانتصارات المتوالية التي ظفر بها الخلفاء العباسيون على الروم كثيرًا من الشعراء إلى إنشاد القصائد الرائعة للإشادة ببطولتهم, وما أحرزوه من نصر وظفر في سبيل دفع خطر الأعداء عن المسلمين. من ذلك ما قاله أبو العتاهية في مطلع قصيدته التي نظمها على أثر انتصار الرشيد على الروم في هرقلة:

ألا نادت هرقلة بالخراب   من الملك الموفق بالصواب

ومدح أبو تمام الخليفة المعتصم على أثر انتصاره في عمورية بقصيدته التي قال فيها:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به   نظم من الشعر أو نثر من الخطب

(ب) النثر:

أمّا النثر فلم يكن أقل ثراءً وخصبًا من الشعر، فقد بدأ النثر في صدر الإسلام بسيطًا مباشرًا موجز العبارة، وبأشكال عديدة منها: الرسائل والخطب والأحاديث والأمثال والقصص، وبتقدم الحياة الاجتماعية والعقلية تقدم النثر وتنوعت موضوعاته، وتعددت فنونه؛ فظهرت صنعة الكتابة، ومن أبرز الكُتَّاب "عبد الحميد الكاتب" الذي يُعتَبَر شيخ صناعة الكتابة، والذي قيل فيه: بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد.

حركة التعريب والترجمة والتأليف

ـ التعريب: نقل الكتب والنصوص من لغة أجنبية إلى اللغة العربية.

ـ الترجمة: نقل الكتب وترجمتها من لغة إلى لغة أخرى.

ففي عصر المأمون (عصر الازدهار العلمي) أصبحت بغداد أعظم منارة للعلم والمعرفة في العصور الوسطى، وكان التعريب من كل اللغات، وقدم لكل مترجم قُبالة كل كتاب عرَّبه زنته ذهبًا.

وعندما انتصر المأمون على تيوفيل ملك الروم سنة 215هـ/ 831م علم بأن اليونان كانوا قد جمعوا كتب الفلسفة من المكتبات، وألقوا بها في السراديب عندما انتشرت النصرانية في بلادهم، فطلب المأمون من تيوفيل أن يعطيه هذه الكتب مكان الغرامة التي كان قد فرضها عليه؛ فقبل تيوفيل بذلك وعدَّه كسبًا كبيرًا له لنجاة أمته من أدران الفلسفة اليونانية العقيمة الفاسدة. أمّا المأمون فعدَّ ذلك نعمة عظيمة عليه، بينما كانت – في الواقع – نقمة كبيرةً على المسلمين؛ إذ تسببت تلك الكتب في إشغال المسلمين بالجدل فيما لا طائل وراءه، بل أدخلت في الإسلام عقائد وثنية مما كان يؤمن به فلاسفة الملل الأخرى كعقيدة الحلول والاتحاد، ووحدة الوجود، والعقول العشرة، وغيرها.

ومن المترجمين في هذه الفترة شيخ المترجمين حنين بن إسحاق، وثابت بن قرَّة، والحجاج بن مطر.

ضعف وسقوط الخلافة العباسية

كان هذا هو الوضع في عصر القوة في الخلافة العباسية، وكانت هذه هي سماته، وقد انقلب الوضع في عصر الضعف، وهو الذي يشمل بقية خلفاء الدولة حتى سقوط بغداد عاصمة الخلافة على أيدي التتار، وقتل الخليفة المستعصم عام 656هـ/ 1258م.

فما أهم سماته؟

إن من أهم سمات عصر الضعف بالخلافة العباسية ما يلي:

1- سيطرة القادة والجند الترك على الخلفاء:

إذا كان عصر القوة العباسي الأول قويًّا فلم تقم فيه سيطرة عسكرية أو زعامة ذات قوة تعتمد عليها في حكمها للمنطقة، وإذا ما تمَّ وحدَّثت نفسُ بعض القادة بذلك فقد كان يُقضَى عليها بسرعة، وهذا ما حدث لعبد الله بن علي، وأبي مسلم الخراساني، ولم تقم في ذلك العصر سوى دولة واحدة هي دولة الأغالبة في تونس، إذ كان إبراهيم بن الأغلب أمير المنطقة، واعتمد على نفوذه، وجنده فأسس دولته، وسكت عنه العباسيون لتقف إمارته هذه في وجه الإمارات الأخرى الخارجة على العباسيين، والمخالفة لهم، وهي إمارات الخوارج في "تاهرت" و"سِجِلْماسة"، وإمارة الأدارسة في المغرب الأقصى في فاس، ودولة الأمويين في الأندلس، وبهذا فلم تقم سوى دولة واحدة في عصر القوة العباسي اعتمدت على الجند.

وشعر الخليفة المأمون أن بعض القادة الذين أصبح لهم نفوذ لم يعد بالإمكان وضع حدٍّ لهم بسهولة، وخاف مغبة الأمر؛ لذا فقد طلب من أخيه المعتصم الإكثار من جلب الأتراك من بلاد ما وراء النهر على شكل مماليك، فحياة المدن لم تُفسد طباعَهم بعدُ، ويمكن تدريبهم تدريبًا عسكريًّا كي يكونوا أداةً طيعةً بيد الخليفة تحمىٰ بهم الثغور، وتضرب بهم خصوم الدولة في الداخل، وبدأت أفواج الترك تفد إلى بغداد حتى ضَجَّ منهم سكانها، وما أن أصبحوا جنودًا لهم نفوذ حتى كثرت تعدياتهم فقد أفسدتهم حياتهم الجديدة، وحدث الخلاف بينهم وبين البغداديين، واضطر

المعتصم إلى بناء مدينة "سامراء" والانتقال بهم هناك، ومع الزمن أصبح منهم قادة اشتهر منهم "الأفشين" و"بغا" و"وصيف" وغيرهم, وزاد نفوذهم في الدولة, وأخيرًا تآمروا مع المنتصر على قتل أبيه المتوكل عام 247هـ/ 862م.

ومع مجيء هؤلاء الجند إلى مركز السلطة أصبحت الأمور بأيديهم، وبقي الخليفة اسمًا أو صورة في قصره ليس عليه سوى التوقيع على التعليمات في كثير من الأحيان, أو إصدار الأوامر حسب رأي القادة، حتى وصف الخليفة أحد الشعراء فقال:

خليفة في قفصٍ بين وصيف وبُغا   يقول ما قالا له كما تقول البَبُّغا

وأصبح الحكم بالسيف لا بالرأي, والتنفيذ بالسوط لا بالحكمة، والناس مجبرون على الخضوع سواءٌ أكان الأمر حقًّا أم باطلاً، وقد قال أحد الشعراء معبرًا عن هذا الوضع:

لله دَرُّ عصابةٍ تركيةٍ   جعلوا نوائب دهرهم بالسيف

قتلوا الخليفة أحمد بن محمد   وكسوا جميع الناس ثوب الخوف

وهكذا فسد الوضع فلم يأمن الناس بعد ذلك على أرواحهم، ولا على أموالهم، ولا على أعراضهم، وهُدِرَت الكرامة، وفَقَدَ الناس حريتهم، وضاعت العزة، وأصاب الأمة الذل، ومتى وقع ذلك فقدت الأمة مقوماتها، ولم تعد قادرة على القتال، ولا على المجابهة، وأصبح المجتمع مضطرًّا للخضوع للقادة المتسلطين، وقبول كل رأي يقوله العسكريون، وهذا ما يريدونه عادة، ولم يعرفوا نتائجه، وإنما يعرفون مصالحهم، وبسط نفوذهم وسيطرتهم, وإشباع رغبات نفوسهم؛ هذا في الداخل، وهو نفسه ما يريده أعداء الإسلام في الخارج، ولا يختلف الوضع العسكري في أي زمان ولا أي مكان عن هذا أبدًا.

وليس معنى هذا أنه لا يوجد قادة عسكريون صالحون على مدار التاريخ، فقد وُجِدَ أمثال: نور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين الأيوبي وغيرهما، ولكن هذه نسبة قليلة، وما أن ينتهي الضابط الصالح حتى يرجع العرف العسكري، بل إن

العسكري الصالح قلَّما يطول أمره لأنه يقف أمام أهـواء الـذين دونـه، فيـشعرون بالـضغط والكبـت فيعملون على إزاحته بصورة أو بأخرى، ومن هنا كان أصحاب القوة من العسكريين في العصر العباسي الثاني من أسباب الضعف الذي أصاب الأمة سواءٌ أكانوا عربًا أم تُركًا أم فُرسًا، فالـسيف واحـد بأيـة يـدٍ كان.

2- انغماس المجتمع في الترف:

بينما كان العصر العباسي الأول عصر فتوحات عظيمة، وتوسعت بالدولة إلى آفاق غير متخيَّلة، وأصبح المستوى المادي طاغيًا؛ ويبدأ المجتمع في التمتع بثمارها، وبـالنعيم الـدنيوي الـذي صـنعه لهـم المال الوفير، ووفرته لهم القصور الشاهقة، والحدائق الغنَّـاء، والجـواري الحـسان؛ فـانزلقوا إلى اللـــهو والمجون والفساد، وازدهرت صنعة الغناء بدل الجهاد، وصار المغنون أشهر مـن العلـماء، وطغـى حـب الدنيا في القلوب، وكان من الطبيعي - والحال هكذا - أن تتوقف الفتوحات، ويـركن النـاس إلى الـدنيا؛ فيصير الأمر إلى زوال.

وقد نشأ على إثر حالة المجون هذه حركة مـضادة تـدعو للزهـد في الـدنيا ومتاعهـا، بـرز فيهـا الشاعر الكبير أبو العتاهية، لكن موجة الفساد كانت طاغية؛ فغمرت الدولة العباسية حتـى أسـقطتها، كما أسقطت من قبلُ الإمبراطورية الفارسية.

3- ازدهار الشعوبية:

الشعوبية قوم متعصبون ضـد العـرب مفـضِّلون علـيهم العجـم، ظهـرت دعـوتهم بعـد عـصر الخلفاء بدخول أجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط في خدمة الدولة الإسلامية، فنشأت العداوات بين العرب أصحاب الدولة، وبين العجم الذين انتحلـوا الإسـلام، وكـما حـدثت هـذه المفاضـلة بـين العـرب والعجم، حدثت أيضًا بين العرب أنفسهم في صيغة أخرى، وهي: قيس ويمن، هذا مع أن هدي الكتـاب العزيز يقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِـلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنْدَ اللـه أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللـه عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: 13].

وقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات: 10].

وقد قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حِجة الوداع: «أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء، ليس لعربي على عجمي فخر إلا بالتقوى، كلكم لآدم، وآدم من تراب»،

ويقال على الجملة: إن الإسلام الذي جاء لإسقاط الجنسية، حاول بعضهم - للحرية التي استمتعوا بها على عهد عز العرب - أن يعيدوا نغمتها، وألّف الشعوبيون رسائل وكتبًا، وصنَّفوا المسامرات والخطب، وراجت أسواق المادح والمقابح، ورد العرب على العجم برفق لئلاً ينفِّروهم، وكانوا يرمون إلى تأليف القلوب لا إلى تمزيقها، شأن الأمم العاقلة التي ترمي أبدًا إلى تكثير سوادها، وجمع القلوب على حبها، تتحاشى العبث بمقدسات الناس، وتحفظ لهم حرمتهم وكرامتهم.

4- الحركات الانفصالية:

لقد مضى العصر العباسي الأول ولا تزال للمسلمين دولة واحدة، وجميعهم يتبعون خليفة واحد، وإن وُجِدت ولاياتٌ لا تقر بالخليفة القائم بالأمر، أو تختلف معه قليلاً أو كثيراً، فإننا يمكن أن نعدها إمارات على خلاف مؤقت مع أمير المؤمنين؛ وذلك مثل: الدولة الأموية في الأندلس، وكذلك قامت دولتان للخوارج في المغرب الأوسط حوالي عام 140هـ/ 758م إحداهما للإباضيين في "تاهرت"، والأخرى للصفرية في "سِجِلماسة"، ورغم أن الخوارج يختلفون فكريًّا مع أهل السنة؛ إذ يُكفِّرون من لم ير رأيهم، ومع ذلك فلم تعلن هاتان الإمارتان الخلافة، وقامت دولة الأدارسة عام 172هـ/ 789م في المغرب الأقصى على يد إدريس بن عبد الله بن حسن, ومع أنه كان قد نجا من معركة "فخ" عام 169هـ/ 786م في أحد شعاب مكة، وقد قتل فيها كثير من أهله وذويه، وفر ناجيًا بنفسه، خائفًا من تعقُّب العباسيين وأنصارهم، وعندما تمكن من إقامة دولته لم يعلن نفسه خليفة، وتأسست دولة الأغالبة في المغرب الأدنى عام 184هـ/ 800م، ولكنها بقيت تتبع العباسيين، واستمرت إمارة عباسية أو ولاية تتبع بغداد، ولكنها وراثية في ولاتها.

أمَّا في عصر الضعف العباسي الطويل، فقد نشأت دويلات في مشرق الدولة الإسلامية إضافة إلى ما نشأ في مغربها؛ فقامت في المشرق الإسلامي دول انفصالية

منها الدولة الطاهرية (205- 259هـ/ 821- 872م)، والدولة الصفارية (254- 298هـ/ 868- 911م)، والدولة السامانية (261- 389هـ/ 875- 999م).

وكذلك زادت الدول المستقلة في مغرب الدولة الإسلامية وخاصة في مصر، فقد قام المماليك بتأسيس دول لهم في مصر مثل: الدولة الطولونية (254- 292هـ/ 868- 904م)، والدولة الإخشيدية (323- 358هـ/ 934-968م)، والدولة الفاطمية في بلاد المغرب ومصر (297- 567هـ/ 909- 1171م).

وظهرت دول أيضًا في وسط الدول الإسلامية، فقد قامت الدولة الحمدانية في الموصل (317- 380هـ/ 929- 990م)، وفي حلب (333ـ 394هـ/ 944- 1003م).

وأخيرًا يمكن القول: إن وجود هذه الدويلات إنما يعود إلى الضعف الذي أصاب الدولة العباسية، وإن وجود دويلات قد زاد في الضعف، أو هو سبب من أسبابه، ومَرَدُّ كل ذلك إلى ضعف الإيمان في النفوس، وتراجع الفكر الإسلامي من العقول، وعدم فهم طبيعة الإسلام في الجهاد، والسير وراء أصحاب المنكرات والأطماع بمجرد ادعائهم الانتساب إلى آل البيت مع وضوح ضلالهم وضلالاتهم، مما دفعهم إلى القيام بحركات ضد الدولة استغلها أهل السوء، وقد نُرْجِع ذلك إلى الجهل الذي يؤدي إلى ذلك، ولكن الجهل ليس إلا من ظواهر ضعف الإيمان، وكل ذلك أدَّى إلى وجود أكثر من خليفة في بلاد المسلمين، وتعدد الدول المنفصلة عن جسم الخلافة.

إنَّ سنن الله عز وجل لا تتخلَّف، ولا تتبدل، ولا وساطة فيها لأحدٍ كائنًا مَن كان؛ لذا كان لا بد من أن تجري تلك السنن على الدولة العباسية التي خالفت المنهج الإسلامي من أول يوم، وقد جرت تلك السنن باجتياح التتار لأراضي الخلافة بكل وحشية، حتى حاصروا بغداد، بينما الخليفة العباسي لاهٍ يستمتع برقص الجواري، ويقرِّب منه الخونة، كالوزير الشيعي ابن العلقمي الذي تعاون مع هولاكو ضد المسلمين.

وكانت النهاية الحزينة، بل المفجعة باستباحة بغداد أربعين يومًا، وقتل مليون من سكانها، بعد قتل العلماء، والأئمة، والقادة المجاهدين، والأعيان، وكبار التجار، ثم قتل الخليفة المستعصم نفسه رفسًا بالأقدام.

كانت هذه النهاية خليقة بدولة قامت على سفك دماء المسلمين، وعلى اللهو والمجون في أكثر وقتها.

مقدمة

شهدت تلك المرحلة أيضًا خصوصًا خلال القرن العاشر هجرة قبائل كردية من جوار بحر قزوين للاستقرار في العراق وشمال بلاد الشام؛ وازدهار هجرة القبائل أدى إلى تعاسة الوضع الاقتصادي والاجتماعي فضلاً عن تكاثر الحروب الداخلية والخارجية. إحدى أمثلة ذلك الدولة العقيلية والدولة المروانية اللتين ورثتا الدولة الحمدانية بعد انهيارها عام 979، وغلب الطابع العربي على الأولى بينما الطابع الكردي على الثانية، وقد اقتتلا طويلاً للسيطرة على الجزيرة السورية، كما قادت الدولة العقيلية حروبًا عدة ضد الدولة البويهية في بغداد. أما الحروب الخارجية، فتتمثل بغارات الإمبراطورية البيزنطية على حلب وأنطاكية واحتلالهما قسطًا من الزمن، بنتيجة تشقق الوضع الداخلي وفق أكثر النظريات انتشارًا، فإن السلاجقة هم جمهرة من القبائل التركية الرحل المحاربة، كانت تستقر في الصين وانتقلت منها إلى بخارى حيث اعتنقت الإسلام في عهد مؤسسها سلجوق،ثم استطاعت تحت زعامة طغرل بك السيطرة التدريجية على أملاك الدولة الغزنوية ثم الدخول إلى بغداد بناءً على طلب الخليفة، الذي عين طغرل بك سلطانًا وخطب باسمه في 15 ديسمبر سنة 1055م، الموافق فيه 22 رمضان سنة 447هـ ولقبه «بملك المشرق والمغرب» وزوجه ابنته.

وإثر وفاته عام 1063م، كان طغرل بك قد حقق استقرارًا سياسيًا واقتصاديًا في الأوضاع، وقد خلفه ألب أرسلان الذي امتد حكمه حتى القدس واستطاع عقب انتصاره في معركة ملاذكرد تأسيس دولة سلجوقية في الأناضول هي الأولى من نوعها؛ غير أنه قتل في إحدى معاركه عام 1064م وتلاه ابنه جلال الدولة ملكشاه، الذي شهدت سلطنته وفاة الخليفة القائم بأمر الله بعد خلافة استمرت خمسة وأربعين عامًا تعكس الاستقرار وتحسن الأوضاع المعيشية، وبويع المقتدي بأمر الله بالخلافة. وقد اهتم ملكشاه بالعلوم والفنون وشيّد في بغداد مرصدًا فلكيًا ومسجدًا كبيرًا دعي «جامع السلطان»، وقد برز في عهده أيضًا عمر الخيام وثار القرامطة في البصرة عدة مرات، وبوفاته عام 1092م أخذت الدولة السلجوقية بفقدان قوتها، إذ تفرقت إلى

عدة دول مستقلة في بلاد الشام والعراق وبلاد فارس وغيرها، بل تحولت الساحة إلى دسائس وتحالفات بين الملوك السلاجقة ضد بعضهم البعض بهدف توسيع إمارتهم.

لا شكّ أن تكلفة هذه الحروب الداخلية المستمرة، لم تؤثر فقط على الاستقرار الاجتماعي في البلاد، بل على الوضع الاقتصادي أيضًا بسبب كلفتها الباهظة، ما سهّل تحقيق انتصار الحملة الصليبية الأولى عام 1098م، وكان المستظهر بالله حينها يشغل منصب الخليفة منذ عام 1094م.

الفصل الاول

العصر العباسي الثالث

الدولة السلجوقيَّة أو دولة بني سلجوق أو دولة السَّلاجقة العظام (يُطلَق عليها الاسم الأخير لتمييزها عن دول السَّلاجقة اللاَّحقة التي ظهرت بعد تفكُّكها وانهيارها) هي واحدة من الدول الكبرى في تاريخ الإسلام وإقليم وسط آسيا، لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الدولة العباسية والحروب الصليبية والصِّراع الإسلامي البيزنطي. تأسَّست الدولة على يد سلالة السَّلاجقة، وهي سلالة تركيَّة تنحدر من قبيلة قنق التي تنتمي بدورها إلى مجموعة أتراك الغز. حكمت الدولة السلجوقيَّة في أوج ازدهارها كافَّة إيران وأفغانستان ووسط آسيا وُصولاً إلى كاشغر في الشرق، فضلاً عن العراق والشام والأناضول غرباً وُصولاً إلى مشارف القسطنطينية. قامت الدولة منذ عام 1037م (429 هـ) عندما دخل مؤسِّسها طغرل بك مدينة مرو في وسط آسيا، وحتى عام 1157م (552 هـ) عند مقتل السلطان أحمد سنجر، الذي تفكَّكت الدولة بعده إلى ولايات منفصلةٍ حكمت أجزاءً مختلفة من وسط وغربي آسيا.

ينتمي السلاجقة إلى قبيلة قنق إحدى العشائر المتزعمة لقبائل الغز التركية. دخلت هذه العشيرة في الإسلام أثناء عهد زعيمها ومؤسِّس السلالة سلجوق بن دقاق سنة 960م. دخلوا بعدها في خدمة القراخانات حُكَّام بلاد ماوراء النهر، وحازوا نفوذاً عالياً في دولتهم. ظهرت الدولة السلجوقيَّة عندما قاد طغرل بك حفيد سلجوق حرباً مع الدولة الغزنوية في إقليم خراسان الكبرى، تمكَّن على إثرها من انتزاع مدينتي مرو ونيسابور في عام 1037م (429 هـ). انتصر طغرل في العام ذاته بمعركته الكبرى مع الغزنويين، وهي معركة داندقان، التي كسرت شوكة دولة الغزنويِّين وأدَّت إلى الظهور الحقيقي للدولة السلجوقية.

استئنف طغرل تقدُّمه نحو الغرب بعد أن أمَّن خراسان فخاض حرباً مع الدولة البويهية في إيران والعراق، واستغلَّ فرصة استنجاد الخليفة العباسي القائم بأمر الله به ليسير نحو بغداد وينتزعها، وقضى بذلك على الدولة البويهية (التي كانت واحدةً من

القوى الكبرى في فارس لقرنٍ ونصف) في سنة 1055م (447 هـ). بعد موت طغرل ورث ابنه ألب أرسلان مقاليد الحكم، فتابع توسعة الدَّولة بخوض حربٍ جديدة مع الإمبراطورية البيزنطية، التي انتزعَ منها جورجيا وأرمينيا ومُعظم الأناضول في أعقاب انتصاره السَّاحق عليها بمعركة ملاذكرد سنة 1071م (463 هـ)، وتمكّن من مدِّ مساحة الدولة إلى سواحل بحر إيجة. توفي ألب أرسلان بعد معاركه مع البيزنطيين بسنواتٍ قليلة، فتولَّى الحكم ابنه ملك شاه، الذي وَسَّع الدولة بفتح أجزاءٍ من بلاد الشام بما فيها مدينة القدس.

منذ وفاة السُّلطان ملك شاه انتهى عصر النفوذ العسكريِّ السلجوقي، وبدأت الدولة بالانحدار والضعف تدريجياً. فقد ظهرت في أواخر عهده جماعة الحشاشين التي سبَّبت اضطراباتٍ كبيرة في شمال إيران، كما وبدأت في السنوات اللاحقة الحروب الصليبية التي خسرها السلاطنة السلجوقيُّون بعد عدَّة معارك تكبَّدوا فيها هزائم شديدة، وخسروا للصليبيِّين أجزاءً واسعة من دولتهم بما فيها الكثير من مدن الأناضول وبلاد الشام. انتهت دولة السَّلاجقة العظام في سنة 1153م (548 هـ) عندما ثار الأتراك الأوغوز على السلطان السلجوقي أحمد سنجر وزجُّوا به في السِّجن. تفكَّكت الدولة وانهارت بعد ذلك، إلا أنَّ فروعاً مختلفة من سلالة السلاجقة تمكَّنت من البقاء بعدها وحكمت أجزاءً كبيرة من البلاد الإسلامية، ومن أبرزهم سلاجقة الروم في الأناضول وسلاجقة كرمان في فارس وسلاجقة العراق وسلاجقة دمشق وحلب في الشام.

التأسيس

خريطة تقريبية لمدن وسط آسيا وحدود الدولة السلجوقية والدول المجاورة لها في عام 432 هـ عندما اعترف الخليفة العباسي لأول مرة بالدول السلجوقية.

يَعود أصل السلاجقة الأتراك إلى قبيلة "قنق" [بالتركية]، وهي إحدى قبائل الغز الثلاثة والعشرين الذين يُشكلون فرعاً من الأتراك. ولقد بدأت هذه القبائل منذ النصف الثاني من القرن السادس الميلادي سلسلة من الهجرات الكبيرة إلى أرض الأناضول لأسباب متعددة، ربما تكون قلة الغذاء والأراضي بشكل رئيسي.[7] لكن

أثناء الهجرة استقرت القبيلة لفترة من الزمن في جرجان وطبرستان وعمل أفرادها هناك في خدمة ملك تركي يُدعى "بيغو"، وكان منهم سلجوق بن دقاق الذي كان من كبارهم وحصل على رتبة "سباشي" أو "قائد الجيش" عند الملك التركي. لكن بسبب قوة سلجوق وتبعية أفراد القبيلة الكبيرة له وطاعتهم لأوامره، فقد بدأ بيغو يَقلق حول سيطرته على الجيش التركي وخشيَ من سلجوق، حتى أنه بدأ يُدبر لقتلهِ، وعندما علم سلجوق بالأمر جمع قبيلته ورحل إلى مدينة خجندة قرب نهر سيحون في حيث كان الحكم الإسلامي سائداً في المنطقة، وهناك أعلن إسلامهِ وأخذ يُحارب الأتراك الوثنيين في منطقة تركستان.

وبحلول القرن الخامس الهجري كانت قوة السلاجقة قد تعالت وأصبحوا دولة قوية، مما بدأ يُثير قلق السلطان محمود الغزنوي حاكم الدولة الغزنوية في بلاد الهند وفارس. وبسبب هذا قام محمود بشن حملة على السلاجقة عام 415 هـ انتهت بالقبض على سلطانهم أرسلان بيغو وعدد كبير من أتباعه، وأرسل أرسلان إلى سجن قضى فيه أربع سنوات ثم مات. لكن في عام 419 هـ ثار السلاجقة وخرجوا عن سيطرة محمود، فأرسل إليهم بعض الجنود لكنهم هُزموا وتابع السلاجقة سيرهم عبر بلاد ما وراء النهر، فدمروا ونهبوا العديد من المدن، فأرسل إليهم محمود الغزنوي أمير طوس الذي أستمر بملاحقتهم سنتين في تلك البلاد. لكن في عام 421 هـ توفي محمود دون أن يَقضي على السلاجقة، فسار ابنه مسعود بن محمود إليهم حيث طلبوا الصلح، وبهذا توقف النزاع بين الطرفين لفترة قصيرة. وما إن سار مسعود إلى الهند لقمع تمرد آخر ثار السلاجقة مُجدداً، فأرسل إليهم جيشاً التقوا معه في نيسابور وهزمهم، ولذلك انسحبوا إلى الري فنشبت بينهم وبين مسعود آخر معركة واستطاع أن يَهزمهم ويخضعهم.

ولكن كل الحروب المذكورة سابقاً قادها أتباع أرسلان بيغو الذي قبض عليه محمود الغزنوي على أيامه، لكنهم هُزموا بعد حربهم مع مسعود، في حين أتى مكانهم طغرل بك بن ميكائيل - ابن أخي أرسلان - الذي قاد حروب السلاجقة بعد ذلك وقام بتأسيس الدولة السلجوقية.[15] لكن في هذا الوقت وبعد هزيمة أتباع أرسلان

كان يُريد "علي تكين"[ملاحظة 1] أن يُصبح هو قائد السلاجقة، فاستدعى "يوسف بن موسى بن سلجوق" (ابن عم طغرل) وأكرمه كثيراً وحاول استمالته إلى طرفه لكي يُساعده ضد طغرل، لكن عندما علم يُوسف بذلك رفض ولم يَقبل بمعاونته، وبعد أن يأس علي تكين من استمالته قام بقتله. وقد كبر قتل يُوسف على طغرل، فجمع عشائره ولبسوا ثياب الحداد وجمع ما استطاع من الترك للثأر، وجمع علي تكين جيوشه أيضاً، ثم التحم الجيشان وهُزم جيش علي. وبعد ذلك استمر طغرل بملاحقته، فجمع علي كل جيوشه وكل من استطاع من الأتراك والتقى مع جيوش طغرل في معركة ضخمة عام 421 هـ هُزم فيها طغرل وقتل الكثير من جنده.

بسبب هذه الهزيمة لم يَعد طغرل قوياً كفاية، فراسل مسعوداً بن محمود لما كان ذاك في طبرستان طلباً للصلح، فاستغل مسعود هذه الفرصة وقبض على رسل السلاجقة كي لا يَعودوا بأخبار إلى طغرل ثم جمع جيشاً جراراً وسار إليهم وفاجأهم فألحق بهم هزيمة كبيرة. لكن بعد انتهاء المعركة بدأ جنود مسعود يَتصارعون فيما بينهم على الغنائم، وصدف في الوقت نفسه أن داوداً (معاون طغرل) كان يَقول لجنود السلاجقة أن تلك فرصة للإيقاع بجنود مسعود بعد أن انشغلوا بالغنائم والنصر وأحسوا بالأمان ففقدوا تيقظهم، فهاجم السلاجقة مُجدداً وانتصروا. وخلال هذه المعركة كان مسعود في نيسابور ووصلته أخبار الحرب، فبدأ يَخاف منهم وعرض عليهم أن يُعطيهم أراضي من دولته لكي يَكفوا عن محاربته، لكنهم رفضوا عرضه، فبدأ يُرسل إليهم الجيوش لكنهم هُزموا الواحد تلو الآخر. استمر مسعود بتجاهل السلاجقة لفترة بعد أن يأس منهم، ثم قرر في النهاية أن يَعود إلى محاربتهم وجمع جيشاً ضخماً،[19] لكن قائد الجيش (وهو حاجب مسعود) كان جباناً فأغار قليلاً على مرو ثم سار مُجدداً وعاد إليها بعد ذلك فأصاب جنوده التعب واستطاع طغرل هزيمته في سنة 428 هـ وبعد هذه المعركة سيطر السلاجقة على خراسان.

ولقد استمرت الحرب في السنوات اللاحقة بين الطرفين وبدأ طغرل يَغلب، فقلق مسعود وجمع جيشاً جراراً واتجه إلى خراسان في العام نفسه والتقى مع الأتراك السلاجقة في معركة حاسمة تعرف بمعركة داندقان هُزم فيها مسعود،وحكمت هذه

المعركة ببداية حكم السلاجقة ونهاية قوة الغزنويين، وبعدها توقف مسعود عن المقاومة وأسس السلاجقة إحدى أقوى دول المشرق، ولهذا يُعد عام 429 هـ هو عام تأسيس الدولة السلجوقية الحقيقي.

الحرب مع الديلمة البويهيين

قرر السلاجقة من أبناء سلجوق الاتحاد معاً تحت زعامة طغرل بك مع مساعدة أخيه داود وعمه موسى بن سلجوق بعد سيطرتهم على الحكم في أرض خراسان خلال عامي 431 و432 هـ فكان هذا هو قيام الدولة السلجوقية. حتى أنه يُقال أن طغرلاً أعطى لأخيه سهماً وقال: "اكسره"، فكسره، ثم أعطى له سهمين وثلاثة سهام فكسرهم أيضاً، وعندما وصل للأربعة سهام عجز عن كسرها، فقال له طغرل: "إن مثلنا مثل ذلك" (يَقصد أنهم ضعيفون عندما يَتفرقون). بدأ طغرل بك بعد قيام دولة السلاجقة بتوسيعها نحو المغرب، ففي عام 433 هـ فتح جرجان وباقي طبرستانفخطب له في كافة أنحائها،ثم سار في عام 434 هـ فحاصر خوارزم وفتحها ثم تابع السير واستولى على طبس ومكران وأطراف كرمان والري، ثم تابع التحرك في العام نفسه فأخذ همذان واتجه شمالاً إلى دهستان ثم عاد وعين أمراءً على طبرستان وهمذان وحاول إرسال جيش لأخذ كرمان لكنه هزم. بعد ذلك توقف طغرل قليلاً عن غزواته، فعاد البويهيون عام 436 هـ واستعادوا همذان، ولذا فقد أرسل طغرل إبراهيماً بن ينال إلى فارس عام 437 هـ فاستعاد همذان وغزا بلاد الجبل (غرب إيران والعراق حالياً) وأخذ عدة مدن منها ونهب الكثير،[32] وفي العام نفسه أيضاً جاء وباء كبير على الخيل في فارس فهلك 12,000 من خيل البويهيين على حد قول المؤرخين. في العام التالي عاد طغرل بك إلى غزواته فسار بنفسه مع جيشه إلى أصبهان وحاصرها على أمل الاستيلاء عليها، لكنه فشل فتصالح مع أميرها على أن يُعطيه مبلغاً من المال وعلى أن يُخطب له في أصبهان وما حولها. وفي عام 446 هـ فتح أذربيجان، ثم قرر أخيراً عام 447 هـ السير إلى العراق لطرد البويهيين منها. وقد كانت هناك علاقات قوية بين طغرل والخليفة العباسي قبل هذا

المسير، فقد بدأ طغرل مراسلة الخليفة منذ عام 433 هـ ونال منه الاعتراف بالدولة السلجوقية في العام نفسه، واستمرت علاقاتهما بالتحسن بعد ذلك.

بدأت الدولة البويهية بالتفكك والانحطاط منذ أواخر القرن الرابع الهجري، عندما انشق شرف الدولة عن صمصام الدولة (الذي كان حاكم البويهيين)، وأخذ منه جزءاً كبيراً من فارس وبلاد المشرق، ثم خلفه بعد موته بهاء الدولة الذي تابع الصراع مع صمصام الدولة حتى قتله، ثم نشب صراع بين أبناء بهاء الدولة بدورهم واستمرّت أوضاع البيت البويهي بالتدهور. وقد كان هذا النزاع الداخلي في الدولة البويهية لصالح السلاجقة،والذين راسلهم الخليفة القائم بأمر الله مستنجداً عام 447 هـ بعد أن سيْطر البساسيري (أكثر الرجال نفوذاً في الدولة البويهية والعباسية آنذاك) على الدولة وأصبح يُهدد وجود الخلاف العباسية، فسار طغرل بك إلى بغداد في العام نفسه، وأمر الخليفة العباسي بأن يُخطب لطغرل فيها قبل ثلاثة أيام من وصوله، ثم فتح طغرل بغداد في رمضان عام 447 هـ وهرب منها البساسيري والملك الرحيم (آخر ملوك البويهيين) الذين قُبض عليهما لاحقاً. وقد أحسن لسلاجقة معاملة الخلفاء العباسيين وأقرّوا المذهب السنيّ في البلاد على عكس البويهيين.

هرب البساسيري من بغداد عند وصول السلاجقة، لذا فأسرع طغرل بك بإرسال جيش إلى نواحي الكوفة لمنعه من الوصول إلى بلاد الشام، ثم سار بنفسه مع باقي الجيش في التاسع والعشرين من رمضان سعياً وراءه. وفي هذه الأثناء كان البساسيري يُعد العدّة في واسط لقتال طغرل واستعادة بغداد، لكن جيوش طغرل وصلت إليه والتحمت مع جنوده، فهُزم جنوده وهرب البساسيري وحده على فرس، ثم طاردته مجموعة من الغلمان وقتلوه وطيف برأسه في أرجاء بغداد.

ألب أرسلان.

بعد فتح طغرل بك للعراق توقف عن الحرب، وقضى معم السنوات الباقية من عمره في بغداد، وتزوج هناك من ابنة الخليفة القائم بأمر الله. ثم في الثامن من رمضان عام 455 هـ (1063 م) توفي وعمره سبعون عاماً في مدينة الري. لم يُنجب طغرلٌ أولاداً، ولذا فقد أوصى بأن يَحكم من بعده ابن أخيه "سليمان بن داود"، لكن

العامة فضلوا ألب أرسلان حاكماً لهم فعيّنه وزير طغرل - عميد الملك الكندري - حاكماً للسلاجقة مع أنه كان يَود العمل بالوصية. ومع ذلك فعندما تولى ألب أرسلان الحُكم عزل عميد الملك ثم قتله، وعيّن مكانه نظام الملك الذي كان وزيره قبل أن يَحكم بزمن طويل، والذي يُعد أيضاً من أشهر الوزراء في التاريخ الإسلامي.

أسرع ألب أرسلان بتوطيد الحكم في الدولة السلجوقية بعد أن استلمه، فانشغل خلال عامه الأول بمحاربة عدة فتن ظهرت في البلاد. وما إن انتهى من تلك الفتن تحرّك في عام 456 هـ متجهاً إلى أرمينيا لمحاربة الروم،[39] وعندما وَصل إلى أذربيجان التقى بجماعة من المحاربين يُقاتلون نصارى المنطقة، فالتحقوا به وعرضوا عليه أن يُساعدوه كدليل في تلك البلاد. استمر ألب أرسلان بالسير مع هؤلاء المحاربين حتى وصلوا نقجوان، وهناك توقف لجمع الجنود والسفن استعداداً للغزو، وبعد أن جهز قوّاته أرسل الجيوش مع ابنه ملكشاة ووزيره نظام الملك. وقد وصل ملكشاة أثناء سيره إلى قلعة للروم ففتحها، ثم وصل إلى "قلعة سرمباري" ففتحها أيضاً هي وقلعة أخرى بجانبها أراد تخريبها لكن نظام الملك نهاه عن ذلك، وقد سلّما جميع القلاع إلى أمير نقجوان. استمر ملكشاة بالغزو بعد ذلك حتى استدعاه والده، فأخذ الجيوش وسار لفتح المزيد من المدن. وبعد عدة غزوات وصل ألب أرسلان إلى "مدينة آني"، وهي مدينة حصينة حولها نهران، ويُطوقها خندق وراءه سور مرتفع من بقية الجهات، فحاصرها وحاول فتحها لكنه فشل، وبدأ جنوده يَيأسون من فتح المدينة. فقرر أرسلان بناء برج خشبي كبير، ملأه بالجنود والرماة ووضع فوقه المنجنيقات، فاستطاعوا هدم السور واقتحام المدينة وهزموا الروم، وملك ألب أرسلان المدينة وعاد من غزوته بعد أن فتح معظم جورجيا وأرمينيا وأغلب الأراضي الواقعة بين بحيرتي أوان وأرومية.

شرع ألب أرسلا ن في عام 462 هـ بغزو بلاد الشام، فأجبر حاكم الدولة المرداسية - محمود بن صالح بن مرداس - في حلب على الخطبة للخليفة العباسي، وبعث بجيش إلى جنوب الشام فتح الرملة وبيت المقدس الذين كانا تحت سيطرة الدولة الفاطمية. وفي عام 463 هـ سار ألب أرسلان إلى إلى الرها، فقام بردم الخنادق

حولها وبحفر الفجوات في أسوارها وبقصفها بالمنجنيقات لمدة شهر لكنه باء بالفشل، فتركها وسار إلى حلب ومعه 4 آلاف جندي. أرسل ألب أرسلان برسول إلى أمير حلب يَدعوه إلى طاعة السلاجقة وفتح بوابات المدينة لهم، لكنه استكبر ذلك فبدأ بجمع الجنود وبتجهيز المدينة لمقاومة الحصار. فأتى أرسلان إلى حلب عام 463 هـ وحاصر الأمير محمود بن صالح (والذي لم يَتوقع هذا بسبب إعلانه الطاعة للخليفة والسلاجقة)، لكن بعد مضي شهرين على الحصار عجز ألب أرسلان عن السيطرة على المدينة وبدأ يَخشى من تخطيط الإمبراطور البيزنطي لغزو خراسان وأيضاً على سمعته من فشله في حصار مدينتين، فعيّن قائداً مكانه للتفرغ للحصار وسار إلى خراسان لمقاتلة البيزنطيين. لكن عندما علم محمود بهذا أسرع إلى أرسلان وطلب التوصل إلى صلح، فاشترط أرسلان أن يُعلن الطاعة والتبعية للعباسيين والسلاجقة وأن يَذهب في اليوم إلى معسكره لإعلان ذلك، وهذا ما حدث فأصبحت حلب إمارة سلجوقية. بعد هذا سار ألب أرسلان إلى المشرق لمحاربة البيزنطيين، وترك الجيوش مع بعض القادة وسمح لهم بالمحاربة في بلاد الشام، ففتحوا جبيل ودمشق والرملة وبيت المقدس وطبرية وحاصروا يافا، وكان ذلك بين عامي 463 و465 هـ (ملاحظة: لحروب ألب أرسلان مع البيزنطيين انظر أدناه فقرة "الحرب مع البيزنطيين").

ملك شاه

في عام 465 هـ توفي ألب أرسلان في أرض ما وراء النهر أثناء الحرب[42] وعمره 40 سنة، وأوصى بالحكم بعده لابنه ملكشاه، فنُصب سلطاناً للدولة السلجوقية في العام نفسه. لكن ما إن تولى ملكشاه السلطنة حتى انقلب عليه عمه "قاروت بك"، فأسرع ملكشاه إليه وقابله بالقرب من همذان وهناك اقتتلا فانهزم عمّه واستقر الحكم لابن أرسلان. وكانت الدولة في عهده قد اتسعت اتساعاً عظيماً، فامتدت من كاشغر في أقصى المشرق (حيث توقفت الفتوح الإسلامية) إلى بيت المقدس قرب المغرب، وبهذا فقد كانت تشمل كامل الجزء الإسلامي من قارة آسيا عدا الجزيرة العربية ودول جنوب شرق آسيا. يُقال عن ملكشاه أنه كان من أفضل

السلاطين سيرة، وأن القوافل كانت تعبر من أقصى المشرق إلى لـشام في عهـده آمنـة دون التعـرّض إلى هجوم أو أذى.

أرسل ملكشاه خلال عهده جيوشاً مرتين متتاليتين لحصار مدينة حلب والاستيلاء عليها، لكنـه فشل، فتحرّكت جيوشه (التي يَقودها أخوه "تاج الدولة تتش") جنوباً وفتحت حماة. ودمـشق وأظهـر حاكم حمص الطاعة لها فتركوه حاكماً. لكن في عام 472 هـ تغيّرت مجريات الأحداث عندما راسل أهل حلب "مسلم بن قريش العقيلي" لكي يُخلصهم من محمـود المـرداسي، فـأتى إلى حلـب واسـتولى عليهـا وأسقط بهذا الدولة المرداسية مقيماً مكانها الدولة العقيلية، وقد راسل السلطان السلجوقي وأعلـن لـه الولاء وعرض إرسال مبلغ من المال كل شهر مقابل إبقائه حاكماً لحلب فوافق ملكشاه. لكن لاحقاً نشأ نزاع بين تتش (الذي ولاه ملكشاه على بلاد الشام) ومسلم بن قريش (الـذي أظهـر الطاعـة للـسلاجقة أيضاً)، وقد قتل مسلم في النزاع وتابع من بعده ابنه، لكـن تـتش نجـح بـانتزاع حلـب منـه فقـرر ابـن مسلم تسليم حلب إلى ملكشاه واستدعاه لذلك، فجاء ملكشاه من المشرق وتسلم حلـب (التـي تركهـا تتش وعاد إلى دمشق)، وسيطر ملكشاه أيضاً خلال هذه الحملة على اللاذقية وبضعة مدن أخرى.

في أواخر القرن الخامس الهجـري ظهـرت حركـة جديـدة في المـشرق هـي جماعـة الحـشاشين، والذين استولوا على قلعة ألمـوت عـام 483 هــ فحـاول ملكـشاه أن يُرسـل إلـيهم دعـاة يُعـدينهم إلى المذهب السني لكنه فشل، فأرسل في عام 485 هــ جيـشاً ليُحـاصر القلعـة لكنـه هُـزم مُجـدداً، فقـرر السلطان السلجوقي أن يَتجاهل هذه الحركة بالرغم من تحذيرات وزيره نظام الملك الكثيرة لـه. وعـلى أي حال فلم يَملك ملكشاه وقتاً طويلاً لمقاومة هذه الحركة، لأنه توفي عام 485 هـ تاركـاً دولـة يَتازعهـا أولاده فيما بينهم أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، الملقب جلال الدولة.

بعد معركة سمرقند التي قام بها السلطان ألب أرسلان سنة 465هـ وقبل وفاته على أثر جرحه بيد يوسف الخوارزمي أمر القواد بمبايعة ابنه، ملكشاه، للمرة الثالثة، وعـيَّن وزيـره نظـام الملـك وصـيًّا عليه وطلب احترامهما وطاعة أوامرهما

لما توفي أبوه ألب أرسلان، كان ملكشاه في صحبته، ولم يصحبه قبلها في سفر غير هذه المرة، فولي الأمر من بعده بوصية والده وتحليف الأمراء والجناد على طاعته، ووصى وزيره نظام الملك أبا علي الحسن على تفرقة البلاد بين أولاده، ويكون مرجعهم إلى ملكشاه، ففعل ذلك وعبر بهم جيحون راجعاً إلى البلاد.

لما وصل إلى البلاد وجد بعض أعمامه وهو قاروت بك صاحب كرمان قد خرج عليه، فعاجله وتصافا بالقرب من همذان، فنصره الله عليهم وانهزم عمه، فتبعه بعض جند ملكشاه فأسروه وحملوه إلى ملكشاه، فبذل التوبة ورضي بالاعتقال وأن لا يقتل، فلم يجبه ملكشاه إلى ذلك، فأنفذ له خريطة مملوءة من كتب أمرائه، وأنهم حملوه على الخروج عن طاعته وحسنوا له ذلك، فدعا السلطان بالوزير نظام الملك فأعطاه الخريطة ليفتحها ويقرأ ما فيها، فلم يفتحها، وكان هناك كانون نار فرمى الخريطة فيه فاحترقت الكتب، فسكنت قلوب العساكر وأمنوا، ووطنوا أنفسهم على الخدمة، بعد أن كانوا قد خافوا من الخريطة لأن أكثرهم كان قد كاتبه، وكان ذلك سبب ثبات قدم ملكشاه في السلطنة، وكانت هذه معدودة في جميل آراء نظام الملك.

ثم إن ملكشاه أمر بقتل عمه فخنق بوتر قوسه، واستقرت القواعد للسلطان وفتح البلاد واتسعت عليه المملكة، وملك ما لم يملكه أحد من ملوك الإسلام بعد الخلفاء المتقدمين فكان في مملكته جميع بلاد ما وراء النهر وبلاد الهياطلة وباب الأبواب والروم وديار بكر والجزيرة والعراق والشام وخطب له على جميع منابر الإسلام سوى بلاد المغرب، فإنه ملك من كاشغر وهي مدينة في أقصى بلاد الترك وسوريا إلى بيت المقدس طولاً، ومن القسطنطينية إلى بلاد الخزر وبحر الهند عرضاً، وكان قد قدر لمالكه ملك الدنيا.

كان من أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالسلطان العادل، وكان منصوراً في الحروب، ومغرماً بالعمائر، فحفر كثيراً من الأنهار، وعمر على كثير من البلدان الأسوار، وأنشأ في المفاوز رباطات وقناطر، كما عمرت في عهدِهِ كلية الإمام الأعظم في بغداد على يد أبو سعيد وابتدأ بعمارته في المحرم من سنة خمس وثمانين وأربعمائة،

وصنع بطريق مكة مصانع، وغرم عليها أموالاً كثيرة خارجة عن الحصر، وأبطل المكوس والخفارات في جميع البلاد.

كان لهجاً بالصيد، حتى قيل إنه ضبط ما اصطاده بيده فكان عشرة آلاف، فتصدق بعشرة آلاف دينار بعد أن نسي كثيراً منه، وقال: إنني خائف من الله سبحانه وتعالى لإزهاق الأرواح لغير مأكلة، وصار بعد ذلك كلما قتل صيداً تصدق بدينار.

خرج من الكوفة لتوديع الحاج، فجاوز العذيب وشيعهم بالقرب من الواقصة وصاد في طريقه وحشاً كثيراً فبنى هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها في ذلك الطريق، والمنارة باقية إلى الآن وتعرف بمنارة القرون، وذلك في عام 480 هـ كانت السبيل في أيامه ساكنة والمخاوف آمنة، تسير القوافل من ما وراء النهر إلى أقصى الشام وليس معها خفير، ويسافر الواحد والإثنان من غير خوف ولا رهب.

حكى محمد بن عبد الملك الهمذاني في تاريخه أن السلطان ملكشاه توجه لحرب أخيه تتش فاجتاز بمشهد علي بن موسى الرضا بطوس ودخل مع نظام الملك الوزير وصليا فيه وأطالا الدعاء، ثم قال لنظام الملك: بأي شيء دعوت؟ قال: دعوت الله أن ينصرك ويظفرك بأخيك، فقال: أما أنا فلم أدع بهذا بل قلت: اللهم انصر أصلحنا للمسلمين وأنفعنا للرعية.

الخلافة العباسية بعد سيطرة السلاجقة على السلطنة

خلافة المقتدي بأمر الله بن الأمير ذخيرة الدين

تولى المقتدي بأمر الله الخلافة من شعبان 467هـ حتى محرم 487هـ وعمره عشرون عامًا نشأ في حجر جده القائم بأمر الله يربيه بما يليق بأمثاله، وكان المقتدي شجاعًا شهمًا أيامه كلها مباركة، والرزق دار والخلافة معظمة جدًّا، وتصاغرت الملوك له وتضاءلوا بين يديه، خُطِب له بالحرمين وبيت المقدس والشام كلها، واسترجع المسلمون الرها وأنطاكية من أيدي العدو، وعمرت بغداد وغيرها من البلاد، وكان وزراؤه وقضاته من خيار الناس، وفي أول سنوات حكمه أخرج المفسِدات من بغداد

وأمرهن أن ينادين على أنفسهن بالعار والفضيحة، وخرب الخمارات ودور الزواني والمغاني.

السلطان ملك شاه

توافر لهذا الزمن اكتمال السعادة فقد كان ملك شاه السلجوقي أيضًا سلطانًا عـادلاً مقـدامًا لا يتوجه إلى إقليم إلا فتحه وخضع له ملوك الشرق والغرب، وخطب له من حدود الصين إلى آخر الـشام ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن وحملت إليه الروم الجزية ولم يفته مطلب.

الوزير قوام الدين نظام الملك

كذلك كان الوزير قوام الـدين نظـام الملـك أبي عـلى الحـسن بـن عـلي بـن إسـحاق رضي أمـير المؤمنين، كان معدودًا من العلماء الأجواد، وكان محبًّا للعلـم، مجلـسه دائمًـا معمـور بـالقراء والفقهـاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح، أمر ببنـاء المـدارس المعروفـة بالنظاميـة في سـائر الأمـصار والـبلاد وأسقط في زمنه كثير من المكوس والضرائب.

وعلى الجملة فقد كان هذا الوزير غرة في جبين آل سلجوق، وهو قرين أبو حامد الغزالي حجة الإسلام في طلب العلم.

بيـد أن الوشـاة وأصـحاب المـصالح لا يريـدون لهـذه الأمـة أمثـال هـذا الـود وهـؤلاء الـوزراء والسلاطين، فسعوا بينه وبين السلطان، حتى اسـتوحش منـه الـسلطان واسـتطال مدتـه وكانـت تـسعة وعشرين عامًا في الوزارة، وقتل. ومن عجائب القدر أن يمـوت الـسلطان بعـده بخمـسة وثلاثـين يومًـا، وبموتهما انتهت سعادة البيت السلجوقي، ووقعت بين رؤسائه الفتن وحكموا بينهم السيف.

وكان ملكشاه له أربعة بنين وهم بركيـارق ومحمـد وسـنجر ومحمـود فتـولى بركيـارق، ولكـن الخليفة مات فجأة قبل أن يوقع تقليده السلطنة.

خلافة أبي العباس أحمد المستظهر بالـلـه

(من محرم 487هـ حتى ربيع آخر 512هـ)

كان المستظهر لين الجانب، كـريم الأخـلاق، مـسارعًا في أعـمال الـبر، وكانـت أيامـه أيـام سرور لرعيته. تولى ملك العراق في عهده بركيارق بن ملكشاه الذي لم يحسن اختيار معاونيه، مما جـرّأ عمـه تُتُش بن ألب أرسلان صاحب دمشق أن يطلب السلطنة لنفسه، وقامـت بيـنهما معـارك انتهـت بقتـل تتش سنة 487هـ واستقام الأمر لبركيارق بعد أن كاد يضمحل.

طلب السلطنة كذلك أخو بركيارق محمد بن ملك شـاه فكـان ذلـك فاتحـة شر مـستطير عـلى هذين الأخوين، بل على البيت السلجوقي كله، بل على الإسلام جميعًا، فقد ظلت نيران الحـرب بيـنهما مستعرة من سنة 492هـ حتى سنة 497هـ أي خمس سنين، فتحرك الإفرنج من مرابضهم للإغارة عـلى البلاد الإسلامية لتخليص البيت المقدس كما زعموا، وملوك الإسلام وهـم مـن بيـت واحـد وأبنـاء رجـل واحد يتطاحنون ويتخاصمون، حتى تم الصلح بينهما كلٌّ على الـبلاد التـي تحـت يديـه، فـزال الخلـف والشغب، ولكن لم تطل مدة بركيارق بعد هذا الصلح فإنه توفي في 2 من ربيع الآخر سنة 497هـ وتـم الأمر من بعده لأخيه محمد الذي لم يكن موفقًا في اختيار وزرائه وولاتـه فكـثر التغيـير والاضـطراب في عهده، واستمر ملك محمد إلى سنة 511هـ وكان عادلاً حسن السيرة شجاعًا.. واختير للملك بعده ابنـه السلطان مغيث الدنيا والدين أبو القاسم محمود بن محمد بن ملك شاه، وبعدها بأربعة أشـهر تـوفي الخليفة المستظهر بالـلـه.

خلافة أبي منصور الفضل المسترشد بالـلـه بن المستظهر

(من ربيع آخر 512هـ حتى قتل في ذي القعدة 529هـ)

كان شهمًا شجاعًا كثير الإقدام بعيد الهمة وكان بليغًا حسن الخط، يقول عنه ابن الأثير: "ولقـد حاول أن يعيد شيئًا من مجد أهل بيته، فحالت الأقدار بينه وبين ما أراد".

كان سلطان العراق لأول عهده: السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، ولكن عمه سنجر بن ملكشاه (وكان ملك خراسان وما إليها من بلاد ما وراء النهر) لم يرضه هذا الوضع، فتوجه إلى العراق والتقيا بجيوشهما؛ محمود وعمه سنجر عند الري، وانتصر سنجر وخطب على المنابر له، وكان يقيم بالأهواز ثم تصالحا على أن يخطب لمحمود من بعد عمه، وردَّ عليه جميع ما أخذ منه سوى الري.

وفي سنة 514هـ قام ضد محمود أخوه مسعود بن محمد (وكان له الموصل وأذريبجان)، فتقاتلا فانهزم عسكر مسعود، ثم تصالحا.

هذا النزاع بين عظماء السلاجقة جعل الخليفة المسترشد يحاول أن يعيد هيبة الخلافة، فقاد الجيوش بنفسه لمحاربة المخالفين، ولم يكن للخلفاء عهد بذلك منذ زمن طويل، ولا شك أن الملوك السلجوقيين لا يعجبهم ذلك، فإنهم يرون ذلك تقليصًا لدورهم وخطرًا على نفوذهم، ولذا عزم محمود بن محمد بن ملكشاه أن يدخل بغداد ولم يكن مقيمًا بها، ولكن الخليفة وقف له وحاول منعه بالقوة، فلما رأى إصرار محمود آثر الصلح، فدخل محمود بغداد سنة 521هـ وأقام بها بضعة أشهر، ثم فارقها بعد أن حمل إليه الخليفة الخُلَع والدواب الكثيرة.

وفي سنة 524هـ استطاع محمود أن يستولي على قلعة الموت من يد صاحبها الحسن بن الصباح الاسماعيلي الباطني.

وفي سنة 525هـ توفي السلطان محمود فاضطرب الأمر من بعده حتى ولي أخوه مسعود الملقب بـ(غياث الدنيا والدين).

محاولة ثانية للخليفة

مرة أخرى حاول الخليفة المسترشد أن يعيد هيبة الخليفة، وأن يتحرر من نفوذ السلاجقة باستعمال القوة معهم؛ مما سبب نفرة بينه وبين السلطان مسعود أدت إلى أن أمر الخليفة بقطع خطبة مسعود من منابر بغداد، وجهز جيشًا لحرب مسعود ومعه جنود كثيرة، لكنها لم تكن ذات عصبية تصدق عند اللقاء، لذا لما تواجه الطرفان تحول

كثير من عسكر الخليفة الأتراك إلى السلطان مسعود، فانهزم جند الخليفة، وثبت الخليفة حتى أُسر وقتل في 16من ذي القعدة سنة 529هـ

خلافة الراشد أبو جعفر المنصور

وتولى بعده ابنه الراشد أبو جعفر المنصور في 27 من ذي القعدة سنة 529هـ الذي دخل في مواجهة مباشرة مع السلطان مسعود، فخلع بعد 11 شهرًا و11 يومًا.

ضعف السلاجقة وزوالهم في عهد الخلافة العباسية

خلافة المقتفي لأمر الله بن المستظهر

اختار السلطانُ مسعود المقتفيَ من ذي الحجة 530هـ حتى ربيع أول 555هـ ولما توفي السلطان مسعود سنة 547هـ بهمذان ماتت معه سعادة البيت السلجوقي، فلم تقم له بعده راية يعتد بها.

تولى بعده محمد بن محمود الذي توفي سنة 554هـ بهمذان ثم كان الأمر من بعده لأرسلان بن طغرل، ثم توفي الخليفة في 2 ربيع أول سنة 555هـ وهو أول من استبد بالعراق منفردًا عن السلاجقة، وأول خليفة تمكن من الخلافة، كان شجاعًا مقدامًا مباشرًا للحروب بنفسه، وكان عادلاً حسن السيرة من الرجال ذوي الرأي والعقل والكبير.

خلافة المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله

(من ربيع أول 555هـ حتى ربيع آخر 566هـ)

كان المستنجد بالله يعد من خيرة الخلفاء العباسيين رفع المكوس والمظالم ولم يترك منها شيئًا، وكان شديدًا على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس، سجن رجلاً كان يسعي بالناس فسادًا مدة، وقد شفع له بعض أصحابه، وبذل فيه عشرة آلاف دينار، فقال له الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار ودلني على آخر مثله لأحبسه وأكف شره عن الناس.

وفي أيامه اتسعت رقعة ميدان القتال بين المسلمين والصليبيين وكانت الساحة بلاد الشام ومصر؛ ويقود القتال محمود نور الدين في كلا الساحتين، حيث ضعفت الدولة الفاطمية لدرجة كبيرة، وهذا ما جعل نور الدين محمود يتولي أمر الدفاع عن مصر.

وكان ملك السلاجقة في عهده أرسلان بن محمد بن ملكشاه، ولم يكن له شيء من السلطان في بلاد العراق.

خلافة المستضيء بأمر الله بن المستنجد بالله

(من ربيع الآخر 566هـ حتى ذي القعدة 575هـ)

كان المستضيء بأمر الله عادلاً حسن السيرة في الرعية، عاش حميدًا ومات سعيدًا. يقول ابن الأثير في تاريخه: وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحريًا للعدل منه، وله أخبار حسان ألفت فيها كتب خاصة.

وانقرضت في عهده الدولة الفاطمية في محرم سنة 567هـ على يد الدولة الأيوبية، وخطب للمستضيء في بلاد اليمن، هذا بالإضافة إلى مصر وإفريقية والشام.

خلافة الناصر لدين الله بن المستضيء

وهو أطول خلفاء بني العباس مدة من ذي القعدة 575هـ حتى رمضان 622هـ وفي عهده انتهى ملك السلجوقيين بالعراق سنة 590هـ بقتل طغرل بن أرسلان على يد خوارزمشاه علاء الدين تكش، الذي اتسع ملكه جدًّا، فصار ملكه ممتدًا من أقاصي بلاد ما وراء النهر شرقًا إلى بلاد الري التي أخذها بعد القضاء على السلاجقة، وكان هوى خوارزمشاه أن يذكر اسمه على منابر بغداد فيخطب له بدل السلاجقة، ولكن الخليفة أبى، فاشتدت العداوة بينهما حتى قطع خوارزمشاه خطبة الناصر من منابر بلاده.

الفصل الثاني

الحرب مع البيزنطيين

كان مسير طغرل بك إلى أذربيجان عام 446 هـ من أولى غزوات السلاجقة في بلاد البيـزنطيين. عندما وصل طغرل إلى مدينة تبريز أطاعه حاكمها وخطب له وقدم له الهدايا، فتركه حاكماً لها وتـابع سيره إلى أرمينيا، فوصل إلى ملاذكر فحاصرها ونهب ما حولها، لكنها كانت مدينة حصينة فطال حصارها حتى حل الشتاء، فعاد إلى الري وكان يُريد متابعة الحصار بعد انتهاء الشتاء، لكنه اضطر عـام 447 هـ للعودة إلى العراق وفتح بغداد فلم يُتابع غزوته، ويُقال أن طغرلاً نهب وقتل مقداراً عظيماً من الروم خلال غزوته هذه.

في عـام 449 هـ نهب السلاجقة ملطية وهزموا قربها القائد البيزنطي " فيلاريتـوس [بالإنجليزية]"، بينما غزا جيش آخر لهم مدينة قونية والإمبراطور البيزنطي عاجز عن ردعهم. وقد قـام ألب أرسلان أيضاً بحملة على أذربيجان وأرمينيا سنة 456 هـ. لكن في عام 462 هـ سار الملك البيزنطي "رومانوس الرابع ديوجين [بالإنجليزية]"[39] جنوباً إلى الشام بعد أن بدأ يُحس بتهديد السلاجقة لإمبراطوريته، فاستولى على مدينة مَنْبج ونهبها وقتل الكثير من سكانها، وهزم صالح بن مرداس وجيوش العرب التي معه. ثم أقام في "أرتح" شرق أنطاكية، لكن اضطر بعد ذلك بسبب الجوع وقلة الغذاء المتوفر للجيش إلى أن يَعود إلى أرمينيا في بلاده.

لم يَكتفي الإمبراطور البيزنطي - رومانوس الرابع - بحملته السابقة التي اضطر لإيقافها قبل أن يَنتهي من غزوه، ولذا فقد سار عام 463 هـ مع جمع عظيم من الروم البيـزنطيين والفـرنج والروس والكرج يُقال أن عددهم وصل إلى مئتي ألف، فوصل إلى منطقة قرب مدينة ملاذكر. وفي هذه الأثناء كان السلطان السلجوقي ألب أرسلان يُقيم في أذربيجان، ووصل إليه نبأ الجيش البيزنطي الضخم الذي يَتوجه إلى دولته، فحاول جمع عدد من الجنود بسرعة لكنه لم يَستطع، فسار على عجلة من أمره مع ما يَملك من عساكر (والذين بلغ عددهم 15 ألفاً) باتجاه ملاذكر وأرسل زوجته مع وزيره نظام الملك إلى همذان. وعندما اقترب ألب أرسلان من موقع المعركة أرسل

فرقة من الجنود تتقدم الجيش، فالتقت مع فرقة مقدمة جيش البيزنطيين التي بلغ عدد جنودها 10 آلاف، فتقاتلتا وانتصرت فرقة السلاجقة. وعندما التقى الجيشان أرسل أرسلان إلى ملك البيزنطيين يَطلب منه المهادنة، لكنه رد بأنه "لا مهادنة إلا بالري"، فانتظر السلطان حتى جاء يوم الجمعة عندما يَدعو الخطباء بالنصر على المنابر وبدأ القتال. واستطاع السلاجقة محاصرة جيش البيزنطيين وهزمهم، وكانت من أعظم المعارك في تاريخ دولة السلاجقة، وقد سُميت بمعركة ملاذكرد.[40] وأدى هذا النصر إلى اكتساح السلاجقة لمعظم باقي الأناضول، وإلى هزيمة البيزنطيين وعجزهم عن مقاومة المد السلجوقي بعد ذلك، وقد ترتب عليه صلح وضعه ألب أرسلان تتوقف الحرب بموجبه لخمسين عاماً ويُطلق جميع أسرى المسلمين في بلاد الروم ويَمد البيزنطيون جيوش السلاجقة بالجنود متى احتاجوا ذلك. وبعد هذه المعركة اجتاح السلاجقة تركيا حتى قاربوا حدود القسطنطينية، فارتعد الإمبراطور البيزنطي وطلب العون من البابا المسيحي، ولاحقاً قام هذا الإمبراطور بدعم الحملة الصليبية الأولى لحماية إمبراطوريته. وربما كانت أهم نتائج تلك المعركة استقرار السلاجقة في أرض الأناضول وتأسيسهم لسلطنة سلاجقة الروم.

الحرب مع الصليبيين

في عام 490 هـ (1097 م) اجتمعت أربع جيوش أوروبية في الأناضول بهدف غزو الشرق الأدنى وأخذه من المسلمين، وقد دعمهم الإمبراطور البيزنطي بالمؤن والمساعدات وبعض المدد العسكري حتى لكي يَطردوا السلاجقة من المنطقة، وأجبر ثلاثة من قواد الجيوش الأربعة على حلف اليمين له بأن يُعطوه جميع الأراضي التي يَستعيدونها من السلاجقة لأنها كانت تابعة له في السابق. بعد ذلك سارت الجيوش التي قُدر عدد جنوها بزهاء 300 ألف جنوباً وحاصرت مدينة نيقية (عاصمة سلاجقة الروم وأهم مدنهم)، فاستنجد أهلها بالسلطان السلجوقي قلج أرسلان الذي كان يُحاصر ملطية، فتركها وسار بسرعة لإنقاذ المدينة، لكنه اصطدم بجيش صليبي متأخر عن بقية الجيوش أثناء طريقه واقتتلا في معركة شديدة، ووصل المدد إلى الصليبيين من الجيوش التي كانت تحاصر نيقية فانهزم السلاجقة وانسحبوا. اضطر

قلج أرسلان للاستلام لمصير نيقية بعد هذه المعركة، فتركها وسار بعيداً عنها، وسقطت في أيدي الصليبيين بعد مدة قصيرة، وقد توجه بعد ذلك إلى الدانشمنديين (دويلة أخرى انفصلت عن السلاجقة كانت في نزاع مع سلاجقة الروم) وعقد الصلح معهم مؤقتاً للتعاون على مقاومة الصليبيين الذين يُهددون كليهما، فاجتمعت قوى الأتراك في الأناضول وسارت معاً إلى سهول دوريليوم لمقاومة الصليبيين وصدهم.

في البداية لم يَتقدم إلى السهول للقتال سوى جيش واحد من جيوش الصليبيين، ولذا فقد ظن المسلمون أنه هو كامل قوات الصليبيين الموجودة في المنطقة، فبدؤوا القتال وأملوا النصر واقتربوا منه، لكن فجأة ظهر جيشان صليبيان آخران (كانت قد وصلتهم أخبار المعركة في اليوم السابق) والتحما في المعركة فقلبا مجريات الأمور وانهزم المسلمون وخسروا المعركة، وهرب قلج أرسلان تاركاً وراءه الكثير من الغنائم للصلبيين، وبعد هذه المعركة توقف عن قتالهم المباشر واستمر بالانسحاب وإخلاء المدن في المنطقة، فاكتسحها الصليبيون بكل سهولة معيدين أراض ضخمة إلى الإمبراطورية البيزنطية، وكانت هذه الموقعة التي حسمت الصراع السلجوقي-الصليبي في الأناضول هي معركة دوريليوم. سار الصليبيون بعد هذه المعركة باتجاه الشام (وهي الجزء الأهم من غزوتهم)، فاستغرقت رحلتهم أربعة شهور عبر الأناضول ثم قرب الشام، عانوا خلالها من الحرارة والجوع وقلة المؤن، وعندما وصلوا أخيراً إلى أرض الشام غزوا مدينة قونية وملكوها (والتي كان السلاجقة قد جعلوها عاصمتهم الجديدة بعد سقوط نيقية) ثم هرقلة ثم اتجهوا إلى أنطاكية التي أصبحت هدفهم الجديد،وملكوا في طريقهم قيصرية وطرسوس وأضنة (بمساعدة من الأرمن المسيحيين في هذه المدن الذين رحبوا بقدوم الصليبيين) وهزموا عدة جيوش صغيرة للسلاجقة، واجتاحوا الرها أيضاً وأسسوا فيها إمارتهم الأولى، وقد هاجم قائد صليبي أثناء المسيرة مدينة سميساط وطرد منها الحامية التركية بمساعدة سكانها الأرمن، لكن سرعان ما عادت الحامية وباغتتهم فقتلت من الأرمن زهاء الألف رجل وبعض فرسان الصليبيين، ومع هذا فقد استعادوا المدينة لاحقاً وطرد منها الأتراك وقتل

قائدهم. وفي الأثناء التي دارت فيها هذه المناوشات بين فرق من الجيش الصليبي، كان الجيش الصليبي قد وصل أنطاكية بعد مسيرة أربعة شهور، فحاصرها لكنها كانت منيعة وذات أسوار عالية فطال حصارها وصمدت، مما تسبب بانخفاض معنويات الصليبيين وحماسهم، لكن القساوسة المسيحيين نجحوا برفع معنويات الجنود من جديد،ومع استمرار إمدادات الصليبيين ومؤنهم فقد أطالوا الحصار وأنهكوا المدينة، وفي النهاية استطاعوا اقتحامها عام 491 هـ ونهبوها وخربوها وقتلوا الكثير من أهلها، وبذلك سقطت أنطاكية (إحدى أقوى مدن المشرق) في أيدي الصليبيين. ولاحقاً حاول المسلمون حصار أنطاكية واستعادتها لكنهم فشلوا، وسرعان ما سقطت القدس أيضاً، فأسس الصليبيون بهذا ثلاث إمارات ومملكة واحدة في الشرق الأدنى (علاوة على اجتياحاتهم الضخمة في الأناضول)، وهي: إمارة الرها وأنطاكية وطرابلس إضافة إلى مملكة بيت المقدس.

بعد تأسيس الصليبيين لدويلاتهم الأربع، حشد "كمشتكين بن الدانشمند" (الحاكم الداشمندي) بمعونة أمير سلاجقة الروم جيشاً جديداً لملاقاة الصليبيين وسار به إلى أمير أنطاكية المدعو "بوهمند" الذي كان يَغزو أحد الحصون، وعندما علم بوهمند بالأمر عاد بسرعة إلى أنطاكية وجمع جيشاً ضخم لقتال الأتراك، وسار به إليهم فاقتتلا في معركة شديدة عام 493 هـ هُزم فيها الصليبيون واستطاع الأتراك أسر الأمير الأنطاكي بوهمند وقتل الكثير من جنوده. وبعد بضعة شهور من ذلك انطلقت الحملة الصليبية لعام 1101، وكانت هي الأخرى مؤلفة من أربعة جيوش تحركت في ثلاثة أقسام، كان أحدها يَضم جيشين من الجيوش الأربع والذين يَتألفان بشكل أساسي من اللومبارديين، وقد أصرّ جنود هذا الجيش على السير شرقاً لتحرير بوهمند من الأتراك قبل متابعة السير إلى الجنوب، ومع أن القسم الآخر من الجيش حاول إقناع اللومبارديين بعدم فعل ذلك إلا أنهم أصرّوا وكادوا يُعلنون العصيان فسار الجيش إلى الشرق حتى وصل أنقرة وملكها، فأسرع الأتراك من سلاجقة ودانشمنديين بالاتحاد معاً والسير إلى الصليبيين، ودخلوا معهم في عدد من المناوشات بغيت إرهاقهم واستنزاف قواهم، ثم راسلوا أمير حلب ("رضوان السلجوقي") الذي كانوا في خلاف

معه سابقاً واستدعوه فأتاهم مع جيشه بسرعة قاطعاً مئات الكيلومترات. والتحم الجيشان قرب أماسيا عام 494 هـ واستمرت المعركة لمدة يوم استطاع فيه الأتراك أن يَهزموا الصليبيين وأن يَقتلوا الآلاف منهم، فلم يَنجو منهم في النهاية إلا 3 آلاف جندي لاذوا بالفرار إلى القسطنطينية، ويُقال أن حوالي 30 ألفاً منهم قتلوا في المعركة، مما أدى إلى إبادة جيشين من الجيوش الصليبية الأربع بالكامل تقريباً. وبعد أن تحمس الأتراك من نصرهم هذا ساروا إلى منطقة بين نيقية وهرقلة حيث كان القسم الثاني من جيش الصليبيين، فحاصروه وهزموه وقتلوا معظمه بينما هرب القائد بالكاد مع بعض الفرسان إلى أنطاكية، وبعد هذا ساروا إلى آخر أقسام الجيوش الصليبية والذي كان قد عبر القسطنطينية قبل مدة ليست بالطويلة، فحاصروه هو الآخر وأبادوه قاضيين بهذا على كافة جيوش تلك الحملة الصليبية، وربما كان هذا أعظم نصر للسلاجقة والأتراك في الحروب الصليبية.

لم يَتوقف السلاجقة عند ذلك، فما إن استتب السلام في الإمبراطورية السلجوقية وانتهت النزاعات الداخلية فيها، اتجه محمد بن بركيارق إلى الجهاد، فوجه الأوامر إلى مودود أمير الموصل وسقمان أمير أرمينيا بالسير بحملة عسكرية كبيرة إلى الصليبيين مباشرة بعد سقوط طرابلس، فاتجهت الحملة إلى الرها وحاصرتها، لكن سرعان ما جاء المدد من بقية الدويلات الصليبية فرفعوا الحصار واتجهوا إلى حران، ثم التقوا لاحقاً مع المدد الصليبي قرب نهر الفرات وهزموا قوات الصليبيين وظفروا بهم، وبعد ذلك عادت قوات السلاجقة إلى أراضي الدولة دون غزو الرها، فعادت قوات الصليبيين أيضاً إلى دويلاتها. لكن بعد مدة قرر الصليبيون أن يَغزو العراق من أجل الوصول إلى بغداد، فبدؤوا بتوسيع أراضيهم بحصار حصن حران، فهب أمير الموصل ومعه سقمان مُجدداً واشتبكا مع الصليبيين في معركة وهزموهم، وبعد ذلك أعادوا حصار الرها لكنهم فشلوا وانسحبوا، وقد استطاعوا أيضاً استعادة بضعة مدن في أنطاكية. واستمرت الحروب طويلاً بعد ذلك بين السلاجقة والصليبيين، ومع أن السلاجقة أفلحوا باستعادة العديد من المدن وبمنع استيلاء الصليبيين على العديد

غيرها، لكنهم لم يَستطيعوا إسقاط أي من الدويلات الأربع التي أسسها الأوربيون في المشرق

حروب الفرنجة أو الحملات الصليبية أو الحروب الصليبية بصفة عامة اسم يطلق حالياً على مجموعة من الحملات والحروب التي قام بها أوروبيون من أواخر القرن الحادي عشر حتى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر (1096 - 1291)، كانت بشكل رئيسي حروب فرسان ، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى الذين اشتركوا فيه وكانت حملات دينية وتحت شعار الصليب من أجل الدفاع عنه وذلك لتحقيق هدفهم الرئيسي وهو السيطرة على الأراض المقدسة كبيت المقدس ، ولذلك كانوا يخيطون على ألبستهم على الصدر والكتف علامة الصليب من قماش أحمر .

كان السبب الرئيس وراء سقوط البيزنطيين الدمار الذي كانت تخلفه الحملات الأولى المارة من بيزنطة (مدينة القسطنطينية) عاصمة الإمبراطورية البيزنطية وتحول حملات لاحقة نحوها.

كانت الحروب الصليبية سلسلة من الصراعات العسكرية من الطابع الديني الذي خاضه الكثير من أوروبا المسيحية ضد التهديدات الخارجية والداخلية. وقد خاض في الحروب الصليبية ضد المسلمين، وثنية من السلاف، والمسيحيين الروسية والأرثوذكسية اليونانية، والمغول، والأعداء السياسيين للباباوات. كان الصليبيون يأخذون الوعود ويمنحون التساهل.

هدف الحروب الصليبية في الاصل كان الإستيلاء على القدس والأراضي المقدسة التي كانت تحت سيطرة المسلمين، وكانت القاعدة التي أطلقت في الأصل استجابة لدعوة من الإمبراطوريه البيزنطيه الأرثوذكسية الشرقية لمساعدتهم ضد توسع المسلمين السلاجقه في الأناضول.

مصطلح الحروب الصليبية يستخدم أيضا لوصف حروب معاصرة ولاحقه من خلال القيام بحملات إلى القرن السادس عشر في الأقاليم خارج بلاد الشام. عادة ضد الوثنيين، والزنادقة بحسب المعتقد المسيحي، والشعوب الخاضعة لحظر الطرد لمزيج من الدينية، والاقتصادية، وأسباب سياسية. التناحرات بين المسيحيين والمسلمين على حد

سواء لنيل الصلاحيات أدى أيضا إلى التحالفات بين الفصائل الدينية ضد خصومهم، مثل التحالف المسيحي مع سلطنة رومية أثناء الحملة الصليبية الخامسة.

كانت الحروب الصليبية بعيدة المدى السياسي، والاقتصادي، والتأثيرات الاجتماعية، والتي استمر بعضها في الأوقات المعاصرة. بسبب الصراعات الداخلية بين الممالك المسيحية والقوى السياسية، وبعض البعثات الصليبية قد تم تحويلها من الهدف الأصلي، مثل الحملة الصليبية الرابعة، والتي اسفرت عن كيس القسطنطينيه المسيحية وتقسيم الإمبراطوريه البيزنطيه بين البندقيه والصليبيين. وكانت الحملة الصليبية السادسة أول حملة صليبيه دون مباركة البابا، وارساء سابقة ان الحكام بخلاف البابا ان يستهل حملة صليبيه.

سمي الصليبييون لانهم كانو قد نقشوا على صدورهم علامه الصليب وفي النصوص العربية المعاصرة لتلك الأحداث كابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ وابى الفداء في كتابه المختصر في أخبار البشر سموا بالفرنجة أو الافرنج أو الروم وسميت الحملات الصليبية بحروب الفرنجة اما في الغرب فقد سمي الصليبيون بتسميات متعددة كمؤمني القديس بطرس (fideles Sancti Petri) أو جنود المسيح (milites Christi)، ورأى من كان مندفعا بدافع الدين من الصليبيين انفسهم, على أنهم حجاج، واستخدم اسم "الحجاج المسلحين" لوصفهم في إشارة إلى أن الحجيج لا يحمل السلاح في العادة.وكان الصليبيون ينذرون أو يقسمون ان يصلوا إلى القدس ويحصلوا على صليب من قماش يخاط إلى ملابسهم، وأصبح اخذ هذا الصليب إشارة إلى مجمل الرحلة التي يقوم بها كل صليبي.

وفي العصور الوسطى كان يشار إلى هذه الحروب عند الأوروبيين بمصطلحات تقابل الترحال والطواف والتجواب (peregrinatio) والطريق إلى الأرض المقدسة (iter in terram sanctam) وظهور مصطلح "الحرب الصليبية" أو "الحملة الصليبية" على ما يبدو أول ما ظهر في بحث لمؤرخ بلاط لويس التاسع عشر، لويس ممبور سنة 1675.[ادعاء غير موثق منذ 1575 يوماً] و من ضمن الأسباب كذلك ان طيلة فترة

الحرب كانت الزوارق الشراعية و الأسلحة و الحواجز كلها تحمل علامة الصليب الحملات الصليبية علي الوطن العربي كانت تقول انها تخلص المسيحية

كان الوجود الإسلامي في الأرض المقدسة الأولى بدأ مع الفتح الإسلامي لفلسطين في القرن السابع. ولم يلحظ أي تدخل من هذا بكثير مع الحج إلى الأماكن المقدسة المسيحية أو من الأديرة والطوائف المسيحية في الأراضي المقدسة، وكانت دول أوروبا الغربية أقل اهتماما بفقدان القدس، في العقود والقرون التي تلت ذلك، عن طريق غزوات المسلمين وعدائية أخرى من غير المسيحيين، مثل الفايكنغ، والسلاف، ومع ذلك، فإن نجاحات جيوش المسلمين وضع ضغوطا متزايدة على الإمبراطوريه البيزنطيه الارثوذكسيه الشرقية.

من العوامل الأخرى التي ساهمت في هذا التغيير في المواقف الغربية ازاء الشرق حدثت في سنة 1009، عندما أمر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بتدمير كنيسة القيامة هناك اضطهادات أخرى تعرض لها المسيحيون المشرقيون في مصر،وبلاد الشام والعراق منذ عهد الخليفة العباسي التاسع المتوكل على الله الذي اضطهد عمومًا إلى جانب المسيحيين واليهود جميع من يخالفه في المذهب الشافعي، مع ان الدين الإسلامي لا يأمر بتدمير الكنائس. وفي عام 1039 سمح خلفه للإمبراطوريه البيزنطيه بإعادة بناء كنيسة القيامة. وسمح الحج في الأراضي المقدسة قبل وبعد إعادة بناء كنيسة القيامة

حاله دول أوروبا الغربية

اصل الحروب الصليبية تكمن في التطورات في أوروبا الغربية في وقت سابق من العصور الوسطى، فضلا عن تدهور حاله الإمبراطوريه البيزنطيه في الشرق الناجمة عن موجة جديدة من الهجمات التركية المسلمة.

انهيار الإمبراطورية الكارولانجيه في اواخر القرن التاسع، جنبا إلى جنب مع الاستقرار النسبي للحدود المحلية الأوروبية بعد تنصير الفايكنج، والسلاف، والمجر، قد انتجت الكثير من الطبقة المسلحة وبروز الطاقات التي كانت في غير محلها قتال بعضهم بعضا، وارهاب السكان المحليين. حاولت الكنيسة كبح هذا العنف مع

حركات السلام والهدنة مع الله، والتي كانت ناجحه إلى حد ما، لكن طبقة المحاربين كانوا يسعون دائما لايجاد منفذ لمهاراتهم، وأصبح فرض التوسع الإقليمي، اقل جاذبيه بالنسبة لقطاعات كبيرة من النبلاء. وكان هناك استثناء واحد هو الاسترداد في إسبانيا والبرتغال، فرسان إسبانيا والبرتغال وبعض المرتزقة من أماكن أخرى في أوروبا في مكافحة الوجود الإسلامي. أعطى البابا إسكندر الثاني بركته لمسيحيي ايبيريا في حروبهم ضد المسلمين.

جردت الحملات الصليبية أيضا غير محاربة الإسلام والمسلمين إذ كان هدفها في البداية أيضا محاربة البابا لمخالفيه، فقد جاء الصليبيون من شمال فرنسا إلى جنوبها لكى يقاتلوا الهراطقة الألبيجنسيين. فمنذ نهاية القرن الحادي عشر بدأت بوادر المقاومة ضد الكنيسة البابوية في روما وسيطرتها على شئون الحياة الأوربية، وعند نهاية القرن الثاني عشر ذاعت الأفكار التي أخذ يواقيم الفلورى Jouchim Flora يدعو لها، وقد لاقت أفكاره الدينية الذيوع بسرعة ملحوظة. وسار يواقيم على نهج سان برنار الذي زعم أن العالم قد دخل عصر المسيح الدجال الذي يسبق قيام القيامة. وعلى حين أكتفى سان برنار بإدانة كبار الأساقفة على اعتبار أنهم أسرى الشيطان، فإن يواقيم جعل البابوية نفسها هي المسيح الدجال. وقلب بذلك حق وراثة بابا روما للمسيح رأساً على عقب. وحاز شعبية واسعة لدى جميع الفرق المخالفة، ونتج عن أفكاره هذه أن ظهرت عصبة جمعت حولها عدداً ضخماً من الأتباع في جنوب فرنسا تدعى الكارتاريون Czthari أي الأطهار أو الألبيجنسيون نسبة إلى بلدة Albi في مقاطعة تولوز والتي كانت معقلاً لهم. وعند نهاية القرن الثاني عشر كان سكان المدن الأثرياء ونبلاء تولوز وبروفانس إما أعضاء في الكنيسة الألبيجانسية وإما من المتعاطفين مع قادتها. وكانت البابوية في روما سنة 1200م ترى في السيطرة الألبيجنسية على جنوب فرنسا سرطان ينهش في جسد العالم المسيحي يجب استئصاله بأي ثمن، لأنها رأت فيها ديانة مختلفة. وتطورت الأحداث بالشكل الذي أدى إلى إعلان بابا روما قرار حرمان على ريموند السادس أمير تولوز، وإباحة أراضيه وأملاك الألبيجنسيين، فتحمس لذلك أمراء شمال فرنسا واندفعوا في حملة صليبية سنة 1209

قضت على الأمراء الأقطاعيين في جنوب فرنسا، واقتسموا إقطاعاتهم.كذلك يمكن أن نصور الغزو الجزئي الذي قام به الأنجلو ـ نورمان لأيرلندا على أنه نمط من أنماط الحروب الصليبية رغم أن ضحاياه كانوا من الكاثوليك.

جاءت بداية الحروب الصليبية في فترة كانت فيها أوروبا قد تنصرت بالكامل تقريبا بعد اعتناق الفايكينج والسلاف والمجر للمسيحية.فكانت طبقة المحاربين الأوروبيين قد أصبحوا بلا عدو لقتاله، فأصبحوا ينشرون الرعب بين السكان، وتحولوا إلى السرقة وقطع الطرق والقتال في ما بينهم، فكان من الكنيسة ان حاولت التخفيف بمنع ذلك ضد جماعات معينة في فترات معينة من أجل السيطرة على حالة الفوضى القائمة.وفي ذات الوقت افسح المجال للاوربيين للاهتمام بموضوع الأرض المقدسة التي فتحها المسلمون منذ عدة قرون ولم يتسن للاوربيين الالتفات لها لانشغالهم بالحروب ضد غير المسيحيين من الفايكنج والمجريين الذين كانوا يشكلون المشكلة الاقرب جغرافيا سابقا، وكذلك بدأت الكنيسة تلعب دورا في الحرب الاستردادية في إسبانيا، حيث قام البابا إسكندر الثاني عام 1063 بمباركة المحاربين الذاهبين إلى الأندلس، الأمر الذي لعب دورا كبيرا في تكوين فكرة الحرب المقدسة.

الحملة الصليبية الثانية

كانت ثاني حملة صليبية رئيسية تنطلق من أوروبا، دُعي إليها عام 1145 كرد فعل على سقوط مملكة الرها في العام الذي سبق. حيث كانت الرها (إديسا) أول مملكة مسيحية تقام خلال الحملة الصليبية الأولى (1096 - 1099) وكانت أول مملكة تسقط كذلك. دعا إلى الحملة الثانية البابا إيجين الثالث، وكانت أول حملة يقودها ملوك أوروبا، وهم لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث ملك ألمانيا، وبمساعدة عدد من نبلاء أوروبا البارزين. تحركت جيوش الملكين كل على حدة في أوروبا، وأخرهم بعض الشيء الإمبراطور البيزنطي مانويل كومينوس؛ وبعد عبور الجيوش المناطق البيزنطية من الأناضول، هُزم كلا الجيشين على يد السلاجقة المسلمين، كل على حدة. ووصل كل من لويس وكونراد وشراذم جيوشهما إلى القدس عام1148

م، وهناك حاولو السيطرة على دمشق وهناك اتبعوا نصيحة اتضح أنها سيئة بالهجوم على دمشق، حيث فشلوا فشلاً ذريعاً.

كانت الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق هزيمة للصليبين ونصرا للدويلات الإسلامية. وأدت نتائجها إلى فتح المسلمين للقدس من جديد وقيام الحملة الصليبية الثالثة في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي بعد سلسلة من الأحداث في الشام.

تأسست في الشرق ثلاث ممالك صليبية بعد الحملة الصليبية الأولى وحملة سنة 1101 وهي: مملكة بيت المقدس اللاتينية، وإمارة أنطاكية في شمال غرب سوريا وكونتية الرها شمالاً، وتأسست في عام 1109 إمارة رابعة في طرابلس وهي كونتية طرابلس. كانت الرها تقع في أقصى شمال شرق سورية نسبة للبقية، كما كانت الأقل سكانا والأقل أهمية من الناحية الدينية؛ ولذلك كانت هدفاً للهجمات المتكررة من الدويلات الإسلامية المجاورة من الأرتقيين والدانشمنديون والسلاجقة. وقد أُسر كل من الكونت بلدوين الثاني وكونت الرها المستقبلي جوسلين الأول بعد هزيمتهم في معركة حران عام 1104. كما أُسر بلدوين وجوسلين مرة أخرى عام 1122. وبالرغم من أن الرها تعافت إلى حد ما بعد معركة أعزاز عام 1125، إلا أن جوسلين الأول قتل في إحدى المعارك عام 1131. أما خليفته جوسلين الثاني فاضطر للتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية، ولكن توفي كل من الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني كومنينوس وملك القدس فولك سنة 1143. كما تخاصم جوسلين مع كونتية طرابلس وإمارة أنطاكية، تاركاً الرها دون حلفاء أقوياء.

في تلك الأثناء، قام عماد الدين زنكي حاكم الموصل بدخول حلب عام 1128. فكانت حلب مفتاحًا للسيطرة على كافة بلاد الشام، وكان التنافس قائما عليها بين حكام الموصل ودمشق. فالتفت كل من زنكي والملك بلدوين الثاني إلى دمشق، وهُزم بلدوين خارج أسوارها المنيعة عام 1129. فتحالف حكام دمشق البوريون لاحقاً مع الملك فولك عندما حاصر زنكي المدينة في 1139 و1140. وقاد التفاوض ما بين زنكي والدمشقيين المؤرخ أسامة بن منقذ.

في أواخر 1144، تحالف جوسلين الثاني مع الأرتقيين وتحرك بكامل جيشه تقريباً من الرها في شمال شرق سوريا ليدعم حاكم سلالة الأرتقيين فخر الدين قره أرسلان ضد حلب، فقام زنكي مستغلاً موت فولك عام 1143 بالإسراع شمالا لحصار الرها، فسقطت بين يديه بعد شهر في 24 كانون الأول/ديسمبر عام 1144. وقد أُرسل مانسيس من هيرجيس وفيليب من ميلي وغيرهم من القدس ليساعدوا المملكة الصليبية، ولكنهم وصلوا متأخرين. واستمر جوسلين الثاني يحكم ما تبقى من دويلته من تل باشرالواقعة جنوب شرق تركيا حالياً. ولكن شيئاً فشيئاً سقط ما تبقى من ملكه أو بيع للبيزنطيين. أما زنكي الذي مُدح في طول البلاد وعرضها كحامي العقيدة والملك المنصور، فلم ينطلق في هجوم على ما بقي من مناطق الرها أو أنطاكية كما كان يخشى الصليبيون. فالأحداث في الموصل أجبرته على العودة. ومرة أخرى وضع دمشق نصب عينيه، ولكنه اغتيل على يد أحد العبيد عام 1146 وخلفه في حكم حلب ابنه نور الدين زنكي. حاول جوسلين استعادة الرها بعد اغتيال زنكي، ولكن نور الدين هزمه في تشرين الثاني/نوفمبر 1146.[6]

كان حماس الغرب الأوربي قد فتر بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، لذا فهو بحاجة إلى صدمة تنفخ فيه روح الحماس من جديد، فشكل سقوط مملكة الرها التي جاءت بمثابة كارثة حقيقية هي الصدمة المطلوبة فقد وصل أنباء سقوطها إلى أوروبا على يد الحجاج المسيحيين في 1145 الذين كانوا يحجون إلى الرها كمجمع للكنائس ومكان مقدس، ثم أكد تلك الأنباء مبعوثين من أنطاكية والقدس وأرمينيا. وكان الأسقف هيو من دوقية جبلة في أنطاكية هو الذي أوصل الخبر إلى البابا أيوجينيوس الثالث والذي أصدر مرسوما باباويا في 1 كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام يدعو فيه إلى حملة صليبية ثانية. كما أخبر الأسقف هيو البابا عن المملكة المسيحية الشرقية، وكان يأمل بأنه سينجد الدويلات الصليبية في الشرق. لم يكن لأيوجينيوس السلطة على روما، وعاش في منطقة فيتربو، ولكن مع ذلك، كانت الحملة الثانية أكثر تنظيما وأكثر مركزية من الحملة الأولى كان البابا يوافق على واعظين محددين، وقيدت الجيوش من قبل أقوى ملوك أوروبا. وكان خط مسير

الجيوش مخططاً مسبقاً. في البداية تم إغفال هذه التخطيطات. وكان الملك لويس السابع ملك فرنسا يخطط لحملة صليبية جديدة بشكل مستقل عن البابوية، الأمر الذي أعلنه لمجلسه في عيد الميلاد. ولكن لعل المرسوم لم يكن قد وصل إلى لويس بعد! وفي كل الأحوال فإن رئيس الدير سوجر ونبلاء آخرون لم يكونوا في صف خطط لويس. فاستشار لويس برنارد من كليرفو، والذي بدوره وجهه إلى البابا أيوجينيوس. وهنا أصبح لويس يعرف بشأن المرسوم بلا شك، وأصبح أيوجينيوس داعما متحمسا لحملة لويس. تم إعادة إصدار المرسوم في 1 مارس 1146، وخوّل البابا أيوجينيوس برنارد رئيس دير كليرفو أن يعظ وينشر الخبر في أنحاء فرنسا.

الفصل الثالث

الخلفاء يستعيدون السيطرة على بغداد (1136 - 1242)

استطاع المقتفي لأمر الله أن يستقل بحكم بغداد وجوارها عن السلاجقة المستقلين بمحاربة بعضهم بعض، ودعم الأسرة الزنكية التي بلغت شأنًا عاليًا في محاربة الصليبيين واستطاعت استعادة الرها منهم؛ وعندما توفي عام 1170م بويع ابنه المستنجد بالله بالخلافة، فاستمر بسياسة والده الرامية إلى الحفاظ على استقلال بغداد وجوارها، وأرسى إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية عديدة، وكان في خلافته أن خطب للعباسيين في مصر على يد الدولة الزنكية بعد وفاة آخر الخلفاء الفاطميين العاضد لدين الله، وبذلك توحدت الخلافة الإسلامية مجددًا؛ كما شهدت خلافته قيام السلطنة الأيوبية بقيادة صلاح الدين الأيوبي الذي سيطر على بلاد الشام والحجاز واليمن ومصر وليبيا، واستطاع صلاح الدين في عهد الخليفة المستضيء بأمر الله استعادة القدس وعدد آخر من المدن التي كانت واقعة تحت سيطرة الصليبيين عام 1187م في أعقاب معركة حطين، وتصدى للحملة الصليبية الثالثة. وتلى المستضيء ابنه الناصر لدين الله، والذي استطاع كما فعل والده وجده، الحفاظ على الجزء الأكبر من العراق مستقلاً تحت إدارته الفعلية لا إدارة الوزراء أو الجيش، وقد دعا عدد من المؤرخين فترة هؤلاء الخلفاء الذين استقلو بالعراق اسم «فترة استعادة هيبة الخلافة»، وقد توفي الناصر لدين الله، والذي اشتهر بالحكمة والحنكة، بعد خلافة طويلة دامت خمسةً وأربعين عامًا في أكتوبر سنة 1225م.

في الواقع، فإن وضع العراق خلال عهد الناصر لدين الله، كان أفضل بكثير عن سائر أمصار الدولة العباسية؛ فبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي عام 1193م ودفنه في دمشق، اقتسم أولاده السبعة عشر سلطنته المترامية الأطراف، وكما فعل السلاجقة من قبلهم، تحارب الأمراء الأيوبيون وشكلوا أحلافًا ضد بعضهم البعض،[52] واستوردوا قبائل تركية وشركسية دعيت لاحقًا باسم المماليك؛ أما أحوال أقصى المشرق الإسلامي، كبخارى وكابُل وجوارهما، فكانت سيئة هي الأخرى، بسبب تعرضهما للغزو والتخريب من قبل المغول بقيادة جنكيز خان. على أن ما وصل من

أخبار ذلك العصر في العراق وسواه، لا تفيد بأوضاع ثقافية جيدة أو دعم للعلوم والفنون من قبل الخلفاء وحاشيتهم، كما كان الحال في عصر الدولة الذهبي.

تلى الناصر ابنه الظاهر بأمر الله، لكنه توفي بعد عام واحد فقط، وصارت البيعة لابنه المستنصر بالله عام 1226م وقد أسس الجامعة المستنصرية، ونقل المؤرخون أنه أسس دورًا لضيافة الفقراء وإعتاق الرقيق،[54] وفي خلافته سيطر المغول على بلاد فارس محاذين بذلك العراق.

الفصل الرابع

عبد اللـه المستعصم باللـه

هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد بن المهدي بن المنصور، أمه أم ولد تسمي ماردة وهي من مولدات الكوفة، وكانت أمها صغدية، واتجه في نشأته اتجاهًا عسكريًا، دفعته إليه شجاعته وإعجابه بالبطولة، ولهذا لم تكن له ثقافة عالية، فحرمه الرشيد من الولاية. ولد ببغداد في العاشر من شهر شعبان من عام178، فبينه وبين أخيه المأمون تسع سنوات[1].

كان يتولي بلاد الشام ومصر في عهد أخيه المأمون، وفي أثناء خلافة المأمون كان المعتصم يده اليمني فيما صادف من مشكلات وما خاض من حروب، ولما مرض المأمون عهد إليه بالخلافة، ولم يعهد بها لابنه العباس لأنه رأي في أخيه مقدرة وقوة شكيمة وخبرة واسعة ليدبر دفة الأمور من بعده.

وترك المأمون ابنه وعهد بالخلافة للمعتصم، وفي اليوم الذي توفي فيه المأمون ببلاد الروم بويع له بالخلافة ولقب بالمعتصم باللـه في 19رجب((سنة 218هـ)) 10 أغسطس ((سنة833)) ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة سامرا في 18 ربيع الأول((227)) 4 فبراير ((سنة 842)) فكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، وكان المعتصم أول الخلفاء العباسين الذي أضاف إلى اسمه لفظ الجلالة فتسمي" بالمعتصم باللـه" .ونقش في خاتمه " اللـه ثقة أبي إسحاق بن الرشيد وبه يؤمن" (القلقشندي: مآثر الأناقة ج1ص219هـ)، بينما يذكر المسعودي أن نقش خاتمه"

---

[1] محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية(الدولة العباسية)، الشيخ محمد الخضري بك، تحقيق: إبراهيم أمين محمد، ص 271، و الأعلام للزركلي، ج3 ص 45، الخلافة في الحضارة الإسلامية، أحمد رمضان أحمد، ص89، شذور العقود في ذكر النقود، المقريزي، ص 199ـ200، تاريخ الخفاء، السيوطي(ت 911هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ص 379، العصر العباسي الأول، عبد المنعم ماجد، ص387، نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري (ت 733هـ)، ج22 ص 242ـ243، دروس التاريخ الإسلامي وأحوال الدول العربية، محيى الدين الخياط، ج4 ص50، العباسيون و آثارهم المعمارية في الشرق ومصر والمغرب، عبد اللـه كامل موسى، ص 236، تاريخ الدولة العباسية، محمد أحمد إبراهيم، ص 127ـ 128، أخبار الدول المنقطعة تاريخ الدولة العباسية، جمال الدين أبي الحسن علي، ص 170.

الحمد لله الذي ليس كمثله شيء وهو خالق كل شيء "[1] (التنبيه والإشراف، ص 356)[2].

تسِّمي المعتصم بالمثمن من أحد عشر وجهًا: (كانت خلافته ثماني سنين، وثمانية أشهر وثمانية أيام، وغزا ثماني غزوات، وتوفي وله ثماني وأربعون سنة، وهو الثامن من ولد العباس، والثامن من الخلفاء، وتولي الخلافة وعمره ثماني عشر سنة، وولد في شعبان وهو الشهر الثامن وخلف ثمانية ذكور منهم: هارون الواثق وجعفر المتوكل، وأحمد المستعين، وثمانية بنات، وخلف ثمانية ألف ألف درهم[3].

إن اختيار المأمون للمعتصم وعدوله عن ابنه العباس الذي كان يتمتع بشهرة واسعة بين جند العرب، ولعل السبب الرئيسي الذي حمله على ذلك هو أنه رأي في شكيمة المعتصم ومتانة خلقه ما يضمن له تنفيذ السياسة التي رسمها لدولته[4].

وجاءت وصية المأمون للخليفة المعتصم على النحو التالي: " يا أبا إسحاق، ادن مني، واتعظ بما تري، وخذ بسيرة أخيك في القرآن، واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله، الخائف من عقابه وعذابه، ولا تغتر بالله ومهلته، فكأن قد نزل بكَ الموت.

ولا تغفل أمر الرعية. الرعية الرعية! العوام العوام! فإن الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم. الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين!.

ولا ينهين إليكَ أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته وآثرته على غيرك من هواك، وخذ من أقويائهم لضعفائهم، ولا وتحمل عليهم في شيء، وأنصف

---

[1] دراسات في تاريخ الدولة العباسية، الدكتور رضوان محمد البارودي والدكتور صبحي عبد المجيد إدريس ص 151، و الخلافة في الحضارة الإسلامية، أحمد رمضان أحمد، ص89.

[2] العصر العباسي الأول(القرن الذهبي) في تاريخ الخلفاء العباسين(التاريخ السياسي)، الدكتور عبد المنعم ماجد ص 38، والأنباء بأنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء وولايات الأمراء (المعروف بتاريخ القضاعي)، للقضاعي (ت 404)، ص 287.

[3] تاريخ الأمم والملوك، الطبري ج 10 ص 294، وذكر الوصية د\حسن إبراهيم حسن في كتابه التاريخ السياسي ص 64.

بعضهم من بعض بالحق بينهم، وقربهم وتأتهم، وعجل الرحلة عني، والقدوم إلى دار ملكك بالعراق، وانظر هؤلاء القوم الذين أنتَ بساحتهم فلا تغفل عنهم في أي وقت.

والخرمية فأغزهم ذا حزامة وصرامة وجلد، وأكنفه بالأموالِ والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة، فإن طالت مدتهم ؛فتجرد لهم بمن معكَ من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه، راجيًا ثواب الله عليه.

وأعلم إن العظة إذا طالت أوجبت على السامع لها والموصي بها الحجة، فاتق الله في أمرك كله، ولا تفتن".

وهذه الوصية لم يوص بها المأمون إلا والعباس حاضر، ثم دعا أبا إسحاق بعد ساعة حين اشتد به الوجع، وأحسَّ بمجيء أمر الله فقال له: يا أبا إسحاق، عليكَ عهد الله وميثاقه وذمة رسول الله - ﷺ - لتقو من بحق الله في عباده، ولتؤثرنّ طاعته على معصيته، إذ أنا نقلتها من غيرك إِليكَ؟ قال: اللهم نعم، قال فانظر من كنت تسمعني أقدمه على لساني فأضعف له التقدمة، عبد الله بن طاهر أقره على عمله ولا تهجه فقد عرفت الذي سلف منكما أيام حياتي وبحضرتي، استعطفه بقلبك، وخصه ببرك، فقد عرفت بلاءه وغناه عن أخيك. وإسحاق بن إبراهيم فأشركه في ذلك، فإنه أهل له. و أهل بيتك، فقد علمت أنه لا بقية وإن كان بعضهم إليه. وأبو عبد الله بن أبي داود فلا يفارقك، وأشركه في المشورة في كل أمرك، فإنه موضع لذلك منك، ولا تتخذن بعدي وزيرًا تلقي إِليه شيئًا، فقد علمت ما نكبني به يحيي بن أكتم في معاملة الناس وخبث سيرته حتى أبان الله ذلك منه في صحة مني، فصرت إلى مفارقته قالبًا له غير راضٍ بما صنع في أموال الله وصدقاته، لا جزاه الله عن الإسلام خيرًا! وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ، فأحسن صحبتهم، وتجاوز عن مسيئهم، وأقبل من محسنهم، وصلاتهم فلا تغفل في كل سنة عند محلها فإن حقوقهم تجب من وجوه شتي، اتقوا الله ربكم حق تقاته ولا تموتن إلا أنتم مسلمون، واتقوا الله واعملوا له، واتقوا الله في أموركم كلها، واستودعكم الله ونفسي، وأستغفر الله مما سلف، وأستغفر الله مما كان مني، إنه كان غفارًا، فإنه ليعلم

كيف ندمي على ذنوبي، فعليه توكلت من عظيمها وإليه أنيب ولا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل، وصلى الله على محمد نبي الهدي والرحمة![1]

نلاحظ أن الوصية طويلة ومليئة بالتفاصيل الدقيقة، إن دلت فإنما تدل على حرص المأمون في أن يكون المعتصم امتدادًا له.

اختلف المؤرخون في أمر البيعة للمعتصم، والثابت أنه كان مع أخيه بطرسوس وأن الجند شغبوا وأرادوا مبايعة العباس بن المأمون، إذ يظهر إنه كان محبوبًا لدي الجيش وخاصة العرب منه، فطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة.

كان العباس عسكريًا ممتازًا ولكن المعتصم تفوق عليه في هذا الجانب وتصف مصادرنا المعتصم بأنه كان ضئيل الحظ من الثقافة، بل أن البعض يتهمه بأنه كان أميًا، ولكن كفاءته العسكرية غطت على قصوره الثقافي في نظر الخليفة الراحل المأمون2. و تذكر بعض الروايات أن العباس أسرع إلى مبايعة عمه حسمًا للفتنة. فيذكر الطبري وصاحب العيون والحدائق أنه عندما شغب الجند(أرسل أبو إسحاق إلى العباس فأحضره فبايعه، ثم خرج إلى الجند فقال: ما هذا الحب البارد؟ أنا قد بايعت عمي المعتصم، . فسكن الجند وخمدت الفتنة وركب البرد بالبيعة للمعتصم إلى الأفاق، وبالتعزية للمأمون[3]. وفيها: أمر المعتصم بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة، وحمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر علي حمله، وأحرق ما لم يقدر على حمله. وأمر بصرف مَن كان المأمون أسكن ذلك الموضع من الناسِ إِ لي بلادهم.وفيها: انصرف المعتصم إلى بغداد، ومعه العباس بن المأمون، فقدمها يوم السبت مستهل شهر رمضان. ويقول اليعقوبي: ((وامتنع بعض القواد من البيعة لمكان العباس من المأمون، فخرج إليهم العباس من مضربه، فكلمهم بكلام استحمقوه وشتموه وبايعوا لأبي إسحق))[4].

---

[1] نفس المصدر(تاريخ الأمم والملوك)، ص 11.

[2] الخلافة العباسية قيامها وازدهارها وعوامل انهيارها، د/عبد الرحمن سالم، ص 150، و تاريخ العرب (مطوّل)، لفيليب حتي، مراجعة د/ أدورد جرجي ود/ جبرائيل جبور، ج2 ص369.

[3] البداية والنهاية، للمؤرخ الشهير ابن كثير، ج9ص 305ـ306.

[4] العصر العباسي الأول(دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي)، الدكتور عبد العزيز الدّوري، ص 175.

ولكن المسعودي يبين أن العباس بايع بعد تردد، فيقول: ((وكان بينه(المعتصم) وبين العباس بن المأمون في ذلك الوقت تنازع في المجلس، ثم انقاد العباس إلى بيعته))[1].

وينفرد الدينوري براوية غريبة مؤداها أن المأمون ((بايع لابنه العباس.. بولاية العهد من بعده.. وخلفه بالعراق)) وأن المعتصم دعا وجوه الأجناد والقواد بطرسوس إلى بيعته فبايعوه، ((فسار من طرسوس حتى وافي مدينة السلام فدخلها وخلع العباس بن المأمون عنها وغلبه عليها فبايعه الناس))[2].

ولكن الدينوري مؤرخ ضعيف، هذا بالإضافة إلى انفراده بهذه الراوية وهذا عكس ما رأيناه في بعض المصادر المهمة(البداية والنهاية، الأمم والملوك، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تاريخ اليعقوبي...).

ومن صفات المعتصم:

1: وصفه ابن طباطبا في كتابه (الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة1217هـ ص 220).

قائلا: إنه كان سديد الرأي، شديد المنة، غزير القوة يحمل ألف رطل يمشي به خطوات، وكان موصوفًا بالشجاعة.

2: يقول المسعودي(كان الرجل الذي لا يقاس به الرجال قوة بدن وشدة بأس وشجاعة قلب وكرم أخلاق).

3: يقول الأربلي (كان من العظماء الموصوفين بالحزم ذوي المناقب الوافرة والفتوح الظاهرة والفضائل الجمة والهمة العالية جدًا في إعزاز الدين. قيل أنه لم يكن في بني العباس قبله أشجع منه ولا أتم تيقظًا في الحروب ولا أشد قوة)[3].

[1] مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي ج 4 ص 2

[2] مرجع سابق العصر العباسي الأول (دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي)، ص175

[3] مرجع سابق (العصر العباسي الأول) ص176، و المعارف، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري(ت276هـ)، ص220، الأخبار الطوال، الدينوري، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة الدكتور جمال الدين الشيال، ص396

كل هـذه الـصفات رجحـت المعتـصم لمنـصب الخلافـة بعـد أخيـه المـأمون، وبويـع بالخلافـة بطرسوس يوم الخميس الثامن عشر من رجب من سنة ثماني عشرة ومائتين.

السياسة الداخلية في عهد المعتصم:

حكم المعتصم الدولة العباسية حكمًا استبداديًا مقرونًا بشيء من العطف وحسن التدين، حتى وصفه المسعودي بحسن السيرة واستقامة الطريقة.

كان المعتصم شجاعًا قويًا من أشد الناسِ بطشًا، وكان قائدًا موفقًا في حروبه، حتى لقد اسـتحق لقب الخليفة القائد[1].

كان المعتصم في أغلب أمره امتداد للمأمون، كان امتدادًا له في مسألة خلق القرآن، وفي موقفـه من الزط حتى استطاع أن يقضي علـيهم، وفي صراعـه النـاجح مـع الخُرَّميـة، وفي هيبتـه وجلالـه أمـام الروم[2].

كان من وزراء المعتصم: الفضل بن مروان بن ما سرخس، كان رجلآ نصرانيًا من أهـل الـبردان وكان متصلا برجل من العمال يكتب له وكان حسن الخطِ ثم صار مع كاتـب كـان للمعتـصم قبـل أن يستخلف وهذا الكاتب هو(يحيي الجرماني) فلما مات يحيى صير الفـضل في موضـعه ولم يـزل كـذلك حتى بلغ المعتصم الحال التي بلغها والفـضل كاتبـه، وكـان الفـضل يـدخل عـلى المعتـصم فيقـول لـه: احمل إلى كذا وكذا من المال فيقول: ما عنـدي فيقـول: فاحتلهـا مـن وجـه الوجـوه فيقـول: ومـن أي احتالها؟ ومن يعطيني هذا القدر من المال؟ وعند من أجده؟ فكان ذلك يسوء المعتصم ويعرف وجهه.

وكان للمعتصم رجل مضحك اسمه إبراهيم الهفتي كان يصحبه قبـل الخلافـة فيقـول له: فيما يداعبه والـلـه لا أفلحـت أبـدًا، فلـما ولي المعتـصم أمـر للهفتـي مـال وأمـر الفـضل أن يعطيـه أيـاه فلـم يفعـل، وشـكا ذلـك إلى المعتـصم عنـدما كـان يمـشي مـع المعتـصم في بستانه ببغداد قائلا: أتحسب أنك أفلحت الآن؟ إنما لك من الخلافة الاسم والـلـه ما يجـاوز أمـرك أذنـك وإنمـا الخليفـة الفـضل بـن مـروان الـذي ينفـذ أمـره مـن سـاعته، فقـال

[1] دراسة في تاريخ العرب، الدكتور السيد عبد العزيز سالم، ج 3 ص 95
[2] موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (الخلافة العباسية)، الدكتور أحمد شلبي، م 13ج 3 ص 193

المعتصم: أي أمر لي لا ينفذ؟ فقال الهفتي: أمرت لي بكذا وكذا منذ شهرين فما أعطيت مما أمرت به منذ ذاك حبة، فاحتجب المعتصم على الفضل وأمره بأن يعطي الهفتي ما أقره له[1].

ومن وزراء المعتصم: الفضل بن مروان، وأحمد بن عمار، محمد عبد الملك الزيات[2].

لقد حفلت خلافة المعتصم - رغم قصرها - بأحداث وتطورات بالغة الأهمية. وسوف نناقش في الصفحات التالية أهم هذه الأحداث والتطورات.

القضاء على ثورتي الخرَّمية والزط.

أولاً/ القضاء على ثورة الخُرَّمية(201هـ ـ222هـ)

تمثلت قضية المعتصم الأولى في وضع نهاية لثورة بابك الخُرَّمي مهما ترتب على ذلك من تضحيات. وقد ازدادت هذه الثورة خطورة في نفس العام الذي تولي فيه المعتصم وذلك بانضمام عدد كبير إليها من همذان وأصبهان وما حولهما من مدن حيث أصبحوا يمثلون تهديدًا حقيقًا للخلافة3.تجمع هؤلاء المارقين، وكوَّنوا لأنفهسم مذهبًا تعصبوا له ودافعوا عنه بقوة السلاح، وزعيم هو بابَك الخُرَّمي.

تسمي هذه الطائفة(الخُرَّمية) إلى مدينة بفارس اسمها(خُرَّمة) وقد تسمي (الحُرَّمية) بالحاء المهملة لأنها تحرِّم القتل والغصب والحروب المُمُثْلَةَ(التنكيل والتعذيب)، وهذه الطائفة وجُدت قبل بابك بزمن طويل فهي امتداد لأفكار مزدك، وكانت بتقول بالتناسخ، وتغري باللذات والانعكاف على الشهوات والاختلاط والمشاركة في الحُرَم والأهل، ولكنها - كما سبق - تحرم القتل والحروب والمثلة، وفي

[1] محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية(الدولة العباسية)، الشيخ محمد الخضري بك، تحقيق: إبراهيم أمين محمد، ص271

[2] أخبار الدول المنقطعة تاريخ الدولة العباسية، الشيخ جمال الدين أبي الحسن علي، ص176

[3] معجم البلدان، ياقوت الحموي، أصبهان: مدينة مشهورة وهي اسم مركب من (الأصب، هان) وتعني بلاد الفرسان، وهي اسم للإقليم بأسره، م 1 حرف الهمزة ص 206، همذان: سميت بهمذان بن الفلّوج ابن سام بن نوح، والبعض قال معناها المحبوبة، فاتح همذان المغيرة بن شعبة في سنة 24 من الهجرة، م 5 حرف الهاء ص 409، و تاريخ الدولة العباسية، الدكتورة نبيلة حسن محمد، ص 224، الفهرست، ابن النديم(ت 380هـ)، ص 529.

عهد بابَك أحلَّ هذا ما حرمته الحرمية، فأضاف إلى القول بالتناسخ والإغراء بالذات... القتل والغصب و المثلة، ولذلك غلبت النسبة لهذه الطائفة بالخاء المعجمة لا بالحاء المهملة إذ لم يعد للتحريم مجال. و قد انتهز بابَك المشكلات التي سبقت عهد المأمون وعاصرت سنيه الأولى فظهر سنة 201هـ في أذربيجان وقوي أمره وعز جانبه حتى أوشك أن يعزل المقاطعات الفارسية عن العرب[1].

استعد المعتصم استعدادًا كبيرًا للقضاء على هذا الثائر العنيد، فوجه المعتصم للخُرَّمية عدة جيوش كان آخرها جيشًا بقيادة (إسحاق بن إبراهيم بن مصعب) فكانت له معهم ملحمة عظيمة في أواخر سنة 218هـ سقط خلالها من الخُرَّمية ستون ألفًا كما يذكر الطبري، وهرب منهم عدد كبير إلى الروم.عين المعتصم (حيدر بن كابوس المعروف بالأفشين) لقب لملوك أشروسنة، القائد التركي للعمليات ضد بابك في سنة 220هـ فأستطاع أن يُنْزِل ببابَك الهزيمة الأخيرة سنة 221هـ وقد خاض الأفشين ضد بابك معارك ظافرة، ثم كانت المعركة النهائية معه في شهر رمضان سنة 222هـ (837م) حيث أنزل به هزيمة ساحقة وفرَّق جمعه واستولي على مدينته التي تسمي" البذ"[2].

وهرب بابك بعد هذه الموقعة الفاصلة إلى بلاد الروم عن طريق أرمينيا، ولكنه وقع في قبضة أحد بطارقة أرمينيا المتعاونين مع الخلافة، واسمه(سهل بن سنباط) حيث سلمه للأفشين، فتوجه به الأفشين إلى المعتصم وهو بمدينة" سَامَرَّا" الذي كان قد أنشأها حديثًا واتخذها عاصمة له، ودخل الأفشين ومعه بابَك وبعض آل بيته أسري مُكبَّلون مدينة سامرا في صفر سنة 223هـ(838م).

---

[1] تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان ج 2 ص 35، و المختصر لأخبار البشر لعماد الدين إسماعيل أبي الفدا صاحب حماه، ص 34، العصر العباسي الأول، عبد المنعم ماجد، ص 401، الدولة العباسية (من التخلي عن سياسيات الفتح إلى السقوط)، د/ نادية محمود مصطفى، ص32.

[2] ياقوت الحموي، معجم البلدان: بذ بتشديد الذال المعجمة كورة بين أذربيجان وأرّان بها كان مخرج بابَك الخُرَّمي في أيام المعتصم "جـ 1 ص 429، و الأخبار الطوال للدينوري تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة الدكتور جمال الدين الشيال، ص 405، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، للإمام أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، ج2ص 60.

وأمر المعتصم بقطع يدي بابَك ورجليه، ثم قتله وصلبه بسامراء، وقتل أخيه عبد الله وصلب ببغداد، وقد أخذت المدينة زخرفها وازَّينت ابتهاجًا بالانتصار على بابَك، وكان يومًا لم ير الناس مثله ولا مثل تلك الزينة[1].

فما كان من المعتصم إلا أن أعْلي منزلة الأفشين وألبسه وشاحين بالجوهر ووصله بعشرين مليون درهم وولاه السند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه[2].

ولاشك أن القضاء على بابَك يُعد أعظم إنجاز للمعتصم في خلافته، بل من أعظم الإنجازات العباسية؛فقد أشرف بابَك" على إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها، فقد قضي عليه بعد جهاد استمر أكثر من عشرين عامًا[3].

ثانيًا: القضاء على ثورة الزط

استمرت مشكلة الزط في جنوب العراق قائمة منذ خلافة المأمون الذي لم يتمكن من القضاء عليهم وإسكات ثورتهم.ولما تسلم المعتصم استعان بالقائد عجيف بن عنبسة لحربهم[4]. في سنة 219هـ جمادي الآخرة وجه المعتصم (عجيف بن عنبسة)لمحاربة الزط (وهم عناصر هندية بائسين وصلوا إلى سواحل خليج البصرة، واشتغلوا هناك برعي الجواميس، وصلوا إلى بطائح العراق، وبلغ عددهم ثلاثين ألفًا، ثم دفعهم سوء وضعهم الاقتصادي إلى الثورة على الخليفة المأمون 205ـ 218هـ ولما عجز عن الانتصار عليهم جاء بعده المعتصم فحطم وجودهم سنة 220 هـ)[5]، فقطعوا فيه الطريق، واحتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة، وأخافوا السبيل، وكان رئيس الزط رجلا يقال له " محمد بن عثمان" وكان صاحب أمره والقائم بالحرب سملق، فرتب المعتصم الخيل في كل سكة من سكك البرد تركض

---

[1] تاريخ الطبري، ج 8، ص 52ـ55، و عصر المأمون، أحمد فريد رفاعي، ص821.

[2] الخلافة العباسية قيامها وازدهارها وعوامل انهيارها، د/عبد الرحمن سالم، ص150.

[3] العباسيون الأقوياء، محمد إلهامي، ج1، وذكر أيضًا تاريخ مختصر الدول، للعلامة غريغوريوس أبي الفرج بن اهرون الطبيب الملطي المعروف بابن العبري، صححه الأب أنطون صالحاني اليسوعي، ص139، و الدولة العربية الإسلامية، د/محمد جمال الدين سرور، ص299.

[4] التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الدكتور إبراهيم أيوب، ص 92.

[5] العباسيون في التاريخ، الدكتور علي حبيبة، ص 139، و تاريخ الطبري، ج 10 ص 306، و الحضارة العباسية، وليم الخازن، ص 145، و دروس التاريخ الإسلامي وأحوال الدول العربية، محيى الدين الخياط، ج4 ص 51.

بالأخبارِ، فكان الخبر يخرج من عند عجيف، فيصل إلى المعتصم من يومه، وكان الذي يتولي النفقة على عجيف من قبل المعتصم " محمد بن منصور" كاتب إبراهيم بن البختري، فلما صار عجيف إلى واسط، ضرب عسكره بقرية أسفل واسط يقال لها(الصافية) في خمسة آلاف رجل، وصار عجيف إلى نهر يحمل من دجلة يقال له بردودا، فلم يزل مقيمًا عليه حتى سده، فلما أخذ عليهم طرقهم حاربهم، وأسر منهم خمسمائة رجل، وقتل منهم في المعركة ثلاثمائة رجل، فضرب أعناق الأسري، وبعث برؤوسهم إلى باب المعتصم، ثم أقام عجيف بإزاء الزط خمسة عشر يومًا، فظفر منهم بخلق كثير.ومكث عجيف يقاتلهم - فيما قيل - تسعة أشهر.

وفي سنة 220هـ دخل عجيف بالزط بغداد، وقهره إياهم حتى طلبوا منه الأمان فأمنهم، فخرجوا إليه في سنة219هـ على أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم، وكانت عدتهم - فيما ذكر - سبعة وعشرين ألفًا، المقاتلة منهم اثنا عشر ألفًا، وأحصاهم عجيف سبعة وعشرين ألف إنسان، بين رجل وامرأة وصبي، ثم جعلهم في السفن، وأقبل بعضهم حتى نزل الزعفرانية، فأعطى أصحابه دينارين دينارين جائزة، وأقام بها يومًا، ثم عبأهم في زواريقهم على هيئتهم في الحرب، معهم البوقات، حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة220هـ والمعتصم بالشماسية، وأقاموا في سفنهم ثلاثة أيام، ثم عبر بهم الجانب الشرقي، فدفعوا إلى " بشر بن السميدع" فذهب بهم إلى الخانقين، ثم نقلوا إلى الثغر إلى عين زربة، فأغارت عليهم الروم، فاجتاحوهم فلم يفلت منهم أحد[1]

التخلص من مازيار والأفشين

أولا/ التخلص من ما زيار:

كان مازيار أحد المقربين من الخليفة المأمون وموضع ثقته فقد ولاه شروين على حدود طبرستان وسماه محمد، وسمح له بالتلقب بلقب" الأصبهبذ"[2] وهو لقب يطلق

[1] الدولة العباسية قيامها وسقوطها، حسن خليفة، ص 133، و تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن، ج2 ص 66، مختصر تاريخ العرب، سيد أمير علي، نقله إلى العربية، عفيف

[2] تاريخ الدولة العباسية، محمد أحمد إبراهيم، ص 40.

على من كان يتولى تلك المناطق. وفي سنة 224 هـ خالف ما زيا ر بن قارن بن ونـدا هُرمـز المعتـصم صاحب طبرستان وكشف عن روحه الثورية، وعصى وقاتل عساكره.

وكان سببه أن مازيار كان منافرًا عبد اللـه بن طـاهر لا يحمـل إليـه خراجـه، وكـان المعتـصم يأمره بحمله إلى عبد اللـه، فيقول: لا أحمله إلا إليكَ، وكان المعتصم ينفذ مُـن يقبـضه مـن أصـحاب مازيار بهمذان، ويسلّمه إلى وكيل عبد اللـه بن طاهر يردّه إلى خراسان.

وعظّم الشر بين مازيار وعبد اللـه، وكان عبد اللـه يكتب إلى المعتصم، حتـى اسـتوحش مـن مازيار، فلما ظفر الأفشين ببابَك، وعظ محلّه عند المعتصم، طمع في ولايـة خراسـان، فكتـب إلى مازيـار يستميله، ويظهر له المودة، ويُعلمه أن المعتصم قد وعده ولاية خراسان، ورجا أنـه إذا خـالف مازيـار سيَّرة المعتصم إلى حربه، و ولاه خراسان، فحمل ذلك مازيار على الخلاف، وتـرك الطاعـة، ومنـع جبـال طبرستان، فكتب المعتصم إلى عبد اللـه بن طـاهر يـأمره بمحاربتـه، وكتـب الأفـشين إلى مازيـار يـأمره بمحاربة عبد اللـه بن طاهر، وأعلمه أنه يكون له عند المعتصم كما يحب، ولا يشك الأفشين أن مازيار يقوم بمقابلة ابن طاهر، وأن المعتصم يحتاج إلى إنفاذه وإنفاذ عساكر غيره[1].

انتفض مازيار وحمل الناس على بيعته كرهًا وأخذ رهائنهم وعجل جباية الخراج فأستكثر منـه وخرب سور آمد وسور سابة وقتل أهلها إلى جبل يعرف بهر مازياروني سرخاشان سورطمس منهـا إلى البحر على ثلاثة أميال وهي على حد جرجان وكانت تنبيـه سـدًا بـين الـترك وطبرسـتان وجعـل عليـه خندقًا ومن أهل جرجان إلى نيسابور، وأنفذ عبد اللـه بن طاهر عمه الحـسن بـن الحـسين في جـيش كثيف لحفظ جرجان، فعسكر على الخندق، ثم بعث مولاه (حيان بن جبلة) إلى قومس فعسكر عـلي جبال شروين.

[1] الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ص 961، تحقيق أبو صهيب الكرمى، و البداية والنهاية، لابن كثير، ج9 ص314.

وبعث المعتصم من بغداد محمد بن إبراهيم بن مصعب وبعث منصور بن الحسن صاحب دنباوند إلى الري، وبعث أبا الساج إلى دنباوند وأحاطت العساكر بخياله من كل ناحية، ودخل أصحاب الحسن بن الحسين أصحاب سرخا شان في تسليم سورهم وليس بينهما إلا عرض الخندق، فكلموه وسار الآخرون إليه على حين غفلة من القائدين، وركب الحسن بن الحسين وقد ملك أصحابه السور ودخلوا منه فهرب سرخا شان وقبضوا على أخيه شهريار فقتل. ثم قبض على سرخاشان على خمسة فراسخ من معسكره وجيء به إلى الحسن بن الحسين فقتله أيضًا.

ثم وقعت بين حيان بن جبلة وشهريار ابن أخ مازيار ومن قواده، مداخلة استمالة حيان، فأجاب أن يسلم مدينة سارية إلى حد جرجان على أن يملكوه جبال آبائه، وبعث حيان إلى ابن طاهر فسجل لقارن بما سأل، وكان قارن في جملة عبد الله بن قارن أخي مازيار ومن قواده فأحضر جميعهم لطعامه وقبض عليهم، وبعث بهم إلى حيان فدخل جبال قارن في جموعه واعتصم لذلك مازيار، وأشار عليه أخوه القوهيار أن يخلي سبيل من عنده من أصحابه ينزلون من الجبل إلى مواطنهم لئلا يؤتي من قبلهم، فصرف صاحب شرطته وخراجه وكاتبه حميدة، فلحقوا بالسهل ووثب أهل سارية بعامله عليهم مهرستان بن شهرين ودخل حيان سارية.

ثم بعث قوهيار أخو مازيار محمد بن موسي بن حفص عامل طبرستان(مكونة من شقين طبر، واستان) ومعناها ناحية الطبر، وهى بلدان واسعة (معجم البلدان للبغدادي، م4) وكانوا قد حبسوه عند انتفاضهم، فبعثه إلى حيان ليأخذ له الأمان وولاية جبال آبائه على أن يسلم إليه مازيار، وعزل قوهيار بعض أصحابه في عدوله بالاستئمان عن الحسن إلى حيان فرجع إليهم وكتبوا إلى الحسن يستدعون قوهيار(قرية بطبرستان) من أخيه مازيار فركب من معسكره بطمس وجاء لموعدهم ولقي حيان على فرسخ فرده إلى جبال شروين التي افتتحها، ووبخه على غيبته عنها فرجع سارية وتوفي، وبعث عبد الله مكانه محمد بن الحسين بن مصعب وعهد إليه أن لا يمنع قارن ما يريده، ولما وصل الحسن إلى خرماباذ (قرية من قرى بلخ ومنها أبو الليث نصر بن سيار الخرما باذي) وسط جبال مازيار لقيه قوهيار هنالك، واستوثق كل

منهما من صاحبه، وكاتب محمد بن إبراهيم بن مصعب من قواد المعتصم قوهيار بمثل ذلك، فركب قاصدًا إليه، وبلغ الحسن خبره فركب في العسكر وحازم يسابق محمد بن إبراهيم إلى قوهيار فسبقه ولقي قوهيار وقد جاء بأخيه مازيار فقبض عليه وبعثه مع اثنين من قواده إلى خرماباذ ومنها إلى مدينة سارية[1].

لما وصل إلى المعتصم نبأ هذه الفتنة عزم على القضاء عليها، فألقت قواته القبض على المازيار وعقد المعتصم مجلسًا لمحاكمته ووجه إليه بعض التهم ومنها:

1: محاولته القضاء على الدولة الإسلامية والدين الإسلامي والتخلص من الحكم العربي وإعادة الدولة الفارسية كما كانت بدينها ولغتها. وانتهت هذه المحكمة بضرب المازيار بالسوط حتى مات أن شهر به وصلب[2].

يتضح أن ثورة المازيار كانت حركة فارسية سياسية ترمي إلى التخلص من سلطان العرب، وأنها اتخذت المذهب الخرمي الثوري شعارهم لتضم قوي الطبقات العامة ضد بني العباسي. وقد انتبه الخليفة إلى مغزاها[3].

ثانيًا/ القضاء على ثورة الأفشين

في عام 225 هـ قبض المعتصم على الأفشين لعداوته لعبد الله بن طاهر، ولأحمد بن أبي داوود، فعملا عليه، ومازالا حتى ألقيا في قلب المعتصم أن الأفشين يريد قتله. ونَقَل إليه ابن أبي داوود أنّه يكاتب المازيار. فطلب المعتصم كاتبه وتهدّده بالقتل، فاعترف وقال: كتبتُ إليه بأمره يقول: لم يبق غيري وغيرك وغير بابَك. وقد مضي بابَك، و جيوش الخليفة عند ابن طاهر، ولم يبق عند الخليفة سواي، فإنْ

[1] تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ص 746ـــ 747، و تاريخ الدولة العباسية (العصر العباسي الأول)، محمد سهيل طقوش، العصر العباسي الأول، عبد المنعم ماجد، ص 407ـ 412، العصر العباسي الأول(عصر القوة والتوسع والازدهار)، د/ إبراهيم فرغلي، ص 151 ـ152.

[2] الدولة العربية الإسلامية منذ العام الأول للهجرة وحتى نهاية العصر العباسي الأول (1ـ232هـ)(622ـ846م)، الدكتور جمال الدين سرور، ص 300.

[3] تاريخ الطبري، الطبري ج 10 ص360، العيون ص 59ـ60، و شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد(الإمام شهاب الدين أبي الفلاح)، م 3 ص 101، تحقيق محمود الأرناؤوط، دراسات في تاريخ العرب(العصر العباسي الأول)، السيد عبد العزيز سالم، ج3 ص 94.

هزمت ابن طاهر كفيتُك أنا المعتصم، وتخلص لنا الدّين الأبيض، يعني المَجُوسيّة. وكان يُتَّهَم بها[1].

فَوَهب المعتصم لكاتبه مالآ وأحسن إليه، وقال: إن أخبرت أحدًا قتلتُك. فَرُوي عن أحمد بن أبي داوود قال: دخلت على المعتصم وهو يبكي ويُقلق، فقلتُ: لا أبكي الله عينيك، ما بك؟

قال: يا أبا عبد الله، رجل أنفقتُ عليه ألف ألف دينار، و وهبتُ له مثلها يريد قتلي. قد تصدّقتُ لله بعشرة آلاف ألف درهم، فخُذْها ففرِقْها. وكان الكَرْخُ قد احترق، فقلت: نفرّق نصف المال في بناء الكرخ، والباقي في أهل الحرمين.

قال: أفعل. وكان الأفشين قد سير أموالا عظيمة إلى مدينة أشروسنة (بلدة كبيرة بما وراء النهر من بلاد الهياطلة)، وهمّ بالهرب إليها، وأحسّ بالأمر.ثم هيّأ دعوة ليسُمّ المعتصم وقواده، فإن لم يجب دعا لها الأتراك مثل إيتاخ، وأشناس فيسمِّمهم ويذهب إلى أرمينية، ويدور إلى أشروسنة. فطال به الأمر، ولم يتهيأ له ذلك، فأخبر بعضُ خواصه المعتصم بعزمه، فقبض حينئذ المعتصم عليه، وكتب إلى ابن طاهر بأن يقبض على ولده الحسن بن الأفشين[2].

وظل الأفشين في محبسه بعد محاكمة المعتصم له إلى أن توفي سنة 226هـ ثم نكل به. إن حركات بابك ومازيار والأفشين والتحالف بينهم كانت استمرار للصراع بين العرب والفرس وتم القضاء عليها[3].

علق ميور على محاكمة الأفشين بقوله): إنها تبين بجلاء كيف كان تمسك أهالي ولايات الدولة العباسية الشرقية بدينهم الوثني، وذلك لبعدهم عن مركز هذه الدولة، ولأن الإسلام لم يكن قد وصل إلى قلوبهم، ثم لتحصنهم في بلادهم المنيعة وقربهم من الأتراك الوثنيين، وقد خلص ميور من ذلك بهذا الرأي، وهو إن إسلام بعض

---

[1] أخبار الدول المنقطعة تاريخ الدولة العباسية، الشيخ جمال الدين أبي الحسن علي، ص 172.

[2] تاريخ الإسلام للذهبي، تحقيق الدكتور: عمر عبد السلام تدمري، ج16ص 18، و شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد شهاب الدين أبي الفلاح)، م 3 ص 105.

[3] مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي ج 4 ص16 242، و المختصر في أخبار البشر لعماد الدين إسماعيل أبي الفداء صاحب حماه (ت 732)، ص33.

أهالي فارس إنما كان إسلامًا ظاهريًا، وأنهم كانوا لا يزالون متمسكين بعقائدهم المجوسية القديمة، وأنهم كانوا ينتهزون الفرصة المواتية ليرتدوا عن الإسلام ويعودوا إلى دينهم القديم. ومصداق ذلك ما رأيناه من ظهور هذه الحركات التي أشعل نيرانها سنباذ المجوسي وأنصار أبي مسلم الخراساني وبابَك الخُرَّمي.

سياسة المعتصم إزاء العلويين

سلك المعتصم إزاء العلويين نفس السياسة العدائية التي سلكها الخلفاء من قبله - فيما عدا المهدي والمأمون - ، ففي سنة 219هـ تخلص المعتصم من محمد الجواد بن علي الرضا زوج أم الفضل ابنة المأمون، التي اتهمت بدس السم له.وقد يكون ذلك بإيعاز من عمها المعتصم، الذي خشي أن يطالب محمد الجواد بالخلافة مستندًا على أن المأمون قد ولي أباه علي الرضا العهد قبل وفاته، وبالتالي تصبح الخلافة حقًا له من بعد أبيه، فضلا عن ذلك فإن أولاده من أم الفضل هم من سلالة المأمون. وقد تم دفن محمد الجواد بمقابر قريش في الجانب الغربي من بغداد مع جده موسي بن جعفر، وكان عمره آنذاك خمسة وعشرين عامًا[1].

خرج على المعتصم محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي في سنة 219هـ لما علم بما حدث لمحمد الجواد، أدرك أن المعتصم سيتخلص من العلويين واحدًا بعد الآخر، فخشي على نفسه وفر من الكوفة إلى خراسان وتنقل بين كورها(ولاياتها).فانضم إليه جمع كثير من أهلها، واشتبك في عدة معارك مع جيش المعتصم كان النصر حليفه فيها. و لكن ينجح عبد الله بن طاهر في إلقاء القبض عليه، و أرسله إلى المعتصم فحبسه في سامرا وقد اختلف الناس في نهايته فقيل إنه مات مسمومًا، وقيل إن شيعته تمكنت من إخراجه من حبسه وذهبوا به إلى مكان ما. كان

---

[1] ينتسب العلويين إلى علي بن أبي طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة أم الحسن والحسين سيدا شباب الجنة، وهو رابع الخلفاء الراشدين ، له قدم راسخة في مؤازرة الحق سواء في عهد الرسول أو عهد الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي(ت 347هـ)، ج 4 ص52، وذكره الدكتور: حسن إبراهيم حسن في كتابه: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي في م 5 ج 2، و المنتظر في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي(ت 597هـ)، ج 11 ص41، الدولة العربية الإسلامية، محمد جمال الدين سرور، ص 312، العلاقات بين العلويين والعباسين، عبد العزيز محمد اللميلم، ص 217ـ 220، نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، ص 243.

أنصار محمد بن القاسم العلوي من الزيدية، ويزعم فريق منهم في نواحي الكوفة وبلاد فارس أنه حي لم يمت وأنه سيعود إلى الدنيا ليملأها عدلا بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا، ومنهم من يزعم أنه لم يمت وأنه المهدي المنتظر، وأكثر هؤلاء بنواحي الكوفة و الديلم و طبرستان وبعض كورخراسان[1].

مسألة خلق القرآن

كانت بداية محنة خلق القرآن عبارة عن مناظرات ومجادلات كلامية بين الطوائف ثم انتقلت إلى مرحلة الصراع بين أهل السنة والمعتزلة في أواخر عهد المأمون سنة 218هـ ولما مات أوصي أخاه المعتصم بأن يعتقد ما اعتقده هو وجاء ذلك في وصيته له قبل وفاته (أبا إسحاق أدن مني واتعظ بما ترى وخذ بسيرة أخيك في القرآن)[2].

وتابع المعتصم مقالة المأمون في خلق القرآن وهي (أن القرآن مخلوق محدث وليس كلام الله عز وجل)، وقد امتحن الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، في هذه القضية وناله ما نال من العذاب[3].

لم يكن للمعتصم حظ من العلم أو الثقافة يجعله ذا رأي في مسألة خلق القرآن، وإنما كان ينفذ وصية المأمون، وزاد عليه في إلحاق الأذى بكل من يعرف بذلك من العلماء وأهل الرأي، فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه.

[1] معجم البلدان، البغدادي، طبرستان: مكونة من شقين (طبر، و استان) ومعناها ناحية الطبر، وهى بلدان واسعة كثيراً، م4 ص13ــ 16، و دراسات في تاريخ الدولة العباسية، الدكتور رضوان محمد البارودي، والدكتور صبحي عبد المجيد إدريس، ص 157ــ158، معالم التاريخ الإسلامي، عصام عبد الرءوف الفقي، ص 180، تاريخ الدولة العباسية، محمد أحمد إبراهيم، ص129.

[2] عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج، تأليف علي محمد الصلابي ، ص 107، و المسلمون في ظلال العباسين، للدكتور يسري أحمد عبد الله زيدان، ص 98ـ 99، تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، م2 ص472، المنتقي من المقفىَّ في أخبار بني العباس، المقريزي، تحقيق/ تميمه محمد عيد الروّاف، ص 317.

[3] التاريخ الإسلامي (الدولة العباسية)، محمود شاكر، ج 5 ص 201، و الدولة الإسلامية في العصر العباسي قضايا ومواقف، الدكتور صابر محمد دياب حسين، ص 136ـ137، المنتظر في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي(ت 597هـ)، ج11 ص 43.

كتب المعتصم إلى البلاد بحمل الناس على القول بخلق القرآن، وأمر المعلمين أن يعلموا الصبية ذلك، وقد تفوق المعتصم على أخيه في إهانة العلماء والفقهاء إهانة بالغة وأجبرهم علي القول بخلق القرآن.

وكان أحمد بن حنبل - أشد المعارضين للقول بخلق القرآن - وأكثر من تعرض للتعذيب[1].

فيذكر المؤرخون أن المعتصم أمر بإحضار أحمد بن حنبل سنة 219هـ وامتحنه بخلق القرآن، فلم يجب بذلك إلا أن قال: هو كلام الله ما أزيد عليها، فأمر المعتصم بجلده حتى غاب عن الوعي وتقطع جلده، ثم أمر بإلقائه في السجن وظل في محبسه لمدة ثمانية وعشرين شهرًا. وقد كان لموقف أحمد بن حنبل أثره في علو شأنه بين الناس، وتقدير المحدثين له، ونظرًا لذلك أمر المعتصم بإطلاق سراحه بعد إصراره على موقفه في محاولة استرضاء الرأي العام.

كانت وقفة الإمام أحمد بن حنبل في وجه الظلم وفي وجه البدع المستحدثة التي أرادت النيل من الدين خصوصًا في مسألة خلق القرآن وقفة عظيمة.وقد صمد أيضًا بالرغم من التعذيب والضرب بالسياط والحبس والملاحقة والإغراء.وقد قال بعض الأشعار أثناء حبسه[2].

ومن أشعاره وهو في السجن:

لعمرك ما يهوى لأحمد نكبة ... من الناسِ إلاّ ناقص العقلِ مُغْورُ

هو المحنة اليوم الذي يبُتلي بهِ ... فيعتبر السِنّي فينا ويسبرُ

شجيَّ في حلوق الملحدين وقرَّة ... لأعين أهل النسك عف مشِمّرُ

لريحانة القرَّاء تبغون عشرة ... وكِلّكُمُ من جيفة الكلب أقذرُ

فيا أيها الساعي ليدرك شأوه ... رويدك عن إدراكه ستقِصّرُ.

[1] أحمد بن حنبل: هو الإمام محمد أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس. . . . . يعود نسبه إلى معد بن عدنان، الشيباني المروزي الأصل ولد سنة164هـ ببغداد توفي سنة241هـ نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النّويري(ت 733هـ)، ج22ص 167.

[2] شذور العقود في ذكر النقود، المقريزي، ص 200ـ 201.

يقول الإمام الشافعي عنه:

أضـــحي ابـــن حنبـــل حجَّـــة مـــبرورة وبُحِـــبّ أحمـــدَ يُعـــرَفُ المتنِـــسّكُ

وإذا رأيـــــتَ لأحمـــــد منتِقّـــــصًا فـــاعلم بـــأنَّ سُـــتورَهُ ســـتُهتَّكُ.

اعتماد المعتصم على الأتراك

يكاد يجمع المؤرخون القدامى على أن أصل الأتراك يرجع إلى ترك بن يافث بن نوح عليه السلام.كان موطنهم الأصلي على جبال الألطاي في أواسط آسيا بين الهند والصين وسيبريا في شبه منحرف تحده من الجنوب جبال الهيمالايا، ومن الجنوب الغربي هضبة البامير(في آسيا الوسطى)، ومن الغرب جبال الطاء (التاى)ومن الشرق جبال خنجان، والأراضي المحصورة بين هذه الحدود حوالي ستة ملايين كيلو مترا مربعًا بما فيها الجبال والمنخفضات والهضاب[1].

ترجع شدة شكيمة الأتراك لحياة الرعي والصيد بين الهضاب والجبال العالية، لذا برعوا في أساليب القتال والغزو[2].

وهؤلاء الترك لم يكونوا مثقفين أبدًا، بل كانوا شبه أميين، وكانت مقدرتهم الفكرية ضعيفة، وإنما جل شأنهم ومكانتهم السلاح والقوة والمقدرة الحربية[3].

إن السياسة التي أوحت باستخدام العنصر التركي في الدولة العباسية ترجع إلى أن العباسين تخلوا في أول الأمر عن العنصر العربي وأساءوا الظن بهم على اعتبار أنهم أنصار الأمويين، وقربوا إليهم الفرس، لكن الفرس شعب أجنبي، وليس هناك ما يربطه بالعباسين إلا المصلحة الخاصة.

[1] إمرة الأمراء في العصر العباسي (324ـ 334هـ)، الدكتور السيد عبد الفتاح بلاط، ص 15، و تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، د/ بشير رمضان التليسي و د/ جمال هاشم الذويب، ، ص75.

[2] الدولة العباسية، الدكتور الفقي، ص 217، والخلافة العباسية والحركات الاستقلالية بالمشرق، محمد عبد الحميد الرفاعي، ص41، 78ـ79.

[3] تاريخ عصر الخلافة العباسية، الدكتور يوسف العشي، راجعه ونقحه د/محمد أبو الفرج العش، ص 101، و العباسيون ملوك الدنيا، محمود عبد الفتاح شرف الدين، ص 175.

بعد آن آلت الخلافة إلى المعتصم بعد وفاة أخيه المأمون سنة218هـ بدأ يشعر المعتصم بعدم الثقة في جنود بغداد من الأبناء وذلك لكثرة الاضطرابات التي كانوا يثرونها، كذلك بدأ المعتصم يشعر بضعف ثقته بالفرس حين رأي أن كثيرًا من الجند تعصب للعباس ابن أخيه المأمون ونادوه باسم الخلافة، إلى جانب أن أمه(أم المعتصم)كانت تركية تسمي(ماردة)وكان في طباعه الكثير من طباع هؤلاء الترك من القوة والشجاعة والاعتداد بقوة الجسم، فدعته العصبية التركية إلى التفكير في الاستعانة بالعنصر التركي وأن يألف جيشه منهم لما اتصفوا به من شدة البأس والقوة[1].

بدأ المعتصم في طلب الأتراك من فرغانة، و أشروسنة ؛واستكثر منهم حتى بلغ عددهم في عهده سبعين ألفًا.كان هؤلاء الترك يتكلمون التركية فأخذوا يتعلمون العربية، ولم يكن جميع الأتراك مسلمين بل كان فريق منهم من المجوس، فأخذوا يعتنقون الإسلام حين استقدمهم المعتصم.

كان المعتصم ينفق على جنده من الترك بسخاء، واتخذ لهم ثكنات خاصة يعيشون فيها من معيشة عسكرية، وكان يلبسهم أنواع الديباج والمناطق المدهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزى عن سائر جنوده، ورفع المعتصم من أقدارهم وبخاصة: الأفشين وإيتاخ وأشناس.

فأفشين: هو حيدر بن كاووس وهو تركي من " أشروسنة" كورة من بلاد ما وراء النهر شرقيها فرغانة وغربها سمرقند وشماليها الشاش وبعض فرغانة وجنوبيها بعض حدود كش و الضفاينان وغيرهما ومدينتها التي يسكنها الولاة بنجكث. عينه

---

[1] الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، ج2 ص236، و الأمويون العباسيون الأندلسيون، وجدان علي بن نايف، ص96، و تاريخ العرب العام، ل. أ. سيديُو، نقله إلى العربية عادل زعيتر، ص 185، 199، تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد، ص 380، و التاريخ السياسي للخلافة العباسية، د/ فائزة إسماعيل أكبر، ص 178ـ 180، دراسات في الجيش الإسلامي في العصر العباسي الأول، د/ راضي عبد الله عبد الحليم، ص 12ـ 14، الفهرست، ابن النديم(ت 380هـ)، ص 529، نظم الحكم في الدولة العباسية، صفاء حافظ عبد الفتاح، ص 21ـ 25 ومن ص 185ـ 186، دولة بني العباس، شاكر مصطفى، ج1 ص 628، تاريخ الدولة العباسية(العصر العباسي الأول)، أحمد إسماعيل الجبوري، ج1 ص 155، النفقات وإدارتها في الدولة العباسية، ضيف الله يحيى الزهراني، ص 35وص 66 وص 317، الحضارة العباسية، وليم الخازن، ص56.

المعتصم سنة 220هـ لحرب بابَك الخُرّمي، وكان قائدًا لإحدى الفرق الثلاث التـي دخلـت بـلاد الـروم إلى عمورية.

إيتاخ: كان غلامًا خزريًا لسلام الأبرش طباخًا فاشتراه المعتصم سـنة 199هـــ رفعـه المعتـصم و ولاه بعد الخلافة معونة سامرا مع إسحاق بن إبراهيم، و ولاه المعتصم قيادة الثلاث فرق التي دخلـت بلاد الروم إلى عمورية.

أشناس: غلام تركي اشتراه المعتصم ورقاه لما ظهر من شـجاعته وكـان في غـزوة عموريـة عـلى مقدمة الجيش واستخلفه مرة علي سامرا[1]

وغير هؤلاء كان من القواد عجيف بن عنبسة ووصيف وبغا الأكبر وأبو موسي وغيرهم.

كـان جـيش المعتـصم لا يتكـون مـن الأتـراك وحـدهم، بـل كـان هنـاك فريـق مـن الجنـد يعرف(بالخراسانية)ينتمي إلى خراسان، وفريق آخر يعـرف بالمغاربـة، وهـم مـن أهـل الحـوف بمـصر(القرية في بعض اللغات)، ويمثل هذا الفريق العنصر العربي2.

وقد خصَّ المعتصم الأتراك بالنفوذ، فقلـدهم قيـادة الجـيش وجعـل لهـم مركـزًا في مجـال السياسة والحرب، وحرم العرب مما كان لـديهم مـن قيـادة الجيـوش، كـما أسـقط أسـماءهم مـن الدواوين، وأعلي من شأن الـترك المجلـوبين، وآثـرهم عـلى الفـرس والعـرب في كـل شيء، فـسياسة استخدام الأتراك في الجيش وإيثارهم بالمناصب العالية حملت العـرب عـلى الانـصراف عـن تأييـد العباسيين وخاصة بعد أن أهمل شأنهم وحرموا من الأرزاق التي كانت لهم، ولم يكن لدي العـرب القوة التي يستطيعون بل استعادة سلطانهم، فقد كانوا متفرقين، فعرب الشام وعرب مصر وعرب بلاد المغرب، كل من هؤلاء حرص على العمل لمصلحته دون سواه مما أدي إلى فشل القـضية التـي

[1] محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية(الدولة العباسية)، الشيخ الخضري بك، ص 267ـ 268، تحقيق الشيخ محمد العثماني

[2] رسالة ماجستير بعنوان (الأتراك والخلافة في العصر العباسي الأول) / عبد البارى محمد الطاهر، ص174ـ187، إشراف أحمد جاب اللـه شلبي 1989م.

كانوا يدافعون عنها، وبقاء الأتراك على استبدادهم بالسلطة، فكان ذلك نذيرًا بظهور أعراض الضعف علي الخلافة العباسية[1].

سرعان ما شعر الأتراك بقوتهم، لكنهم أساءوا استعمال هذه القوة ؛فساروا في شوارع بغداد راكبين خيولهم دون أن يعبأوا بالمارة، فتأذي من ذلك أهل بغداد، واجتمع أهل الخير على باب المعتصم وقالوا: إما أن تخرج من بغداد، فإن الناس قد تأذوا بعسكرك، أو نحاربك، فقال كيف تحاربوني؟ قالوا: نحاربك بالسهام السحر، قال: وما سهام السحر؟ قالوا: ندعو عليكَ، فقال المعتصم: لا طاقة لي بذلك [2].

يروى الطبري أن المعتصم نفسه - هو الذي استكثر من الأتراك ـ وعبر في أواخر أيامه عن استيائه من الاعتماد عليهم في حديثه مع إسحاق بن إبراهيم بقوله: " نظرت إلى أخي المأمون، وقد اصطنع أربعة أنجبوا. واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم، قلت: من الذي اصطنعهم أخوك؟ قال: طاهر بن الحسين، فقد رأيت وسمعت، وعبد الله ابن طاهر فهو الرجل الذي لم ير مثله، وأنت، فأنت والله لا يعتاض السلطان منك أبدًا، وأخوك محمد بن إبراهيم، وأين مثل محمد؟وأنا اصطنعت الأفشين، فقد رأيت إلى ما صار أمره، و أشناس ففشل أبيه، وإيتاخ فلا شيء ، ووصيف فلا معنى فيه، فقلت: يا أمير المؤمنين أعزك الله، نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها، فأنجبت فروعها، واستعمل أمير المؤمنين فروعًا لم تنجب إذ لا أصول لها، فقال: يا أبا إسحاق لمقاساة ما مربي في طول هذه المدة أسهل على من هذا الجواب" .

ونتج عن غطرسة هؤلاء الجند الأتراك/

ثورة أبي حرب المبرقع اليماني بفلسطين، حيث رفع أبو حرب المبرقع اليماني راية العصيان على خلافة المعتصم بعد أن بلغه أحد جنود الترك حاول دخول منزله، فسار إلى جبال الأردن، وصار يحرص من يأتيه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويذكر لهم معايب الخليفة، فاستجاب له فريق من فلاحي تلك المنطقة، وزعم

[1] الحضارة الإسلامية في الشرق في عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الدكتور محمد جمال الدين سرور، الباب الأول ص22ـ24.

[2] تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ج7 ص 312ـ314، والدولة العباسية قيامها وسقوطها، حسن خليفة، ص 138.

أبو حرب أيضًا أنه أموي فانحاز إلى جانبه جماعة من رؤساء اليمانية، منهم رجل يقال له ابن بيهس كان موضع احترام أهل اليمن، ولما علم المعتصم بتلك الحركة التي قام بها أبو حرب. بعث إليه حملة تحت قيادة رجاء بن أيوب الحضاري.

ورسم رجاء بن أيوب الحضاري خطة للقضاء على تلك الحركة وهي أن ينتهز فرصة انشغال أصحاب أبي حرب من الفلاحين بالزراعة حين يحل موعدها، وبالفعل انتظر رجاء بن أيوب الحضاري هذه الفرصة وبالفعل حل موسم الزراعة، وبدأ أصحاب أبي حرب يهتمون بالزراعة وشغلوا بها، فلم يبق مع أبي حرب إلا ما يقرب من ألف رجل، وبذلك أصبح أمر محاربته هينًا، فتغلب عليه رجاء وأسره وبعث به إلى سامراء.

بناء مدينة سامراء

يقال إن اسمها مأخوذ من(سُرَّ من رأى) وتقع على شرق نهر دجلة على بعد ثلاثين فرسخًا (حوالي مائة كيلو متر) شمال بغداد، وهي مدينة جددها العباسيون وبخاصة هارون الرشيد الذي حفر نهرا سماه الطاقول، ثم بني بها المعتصم قصرًا وأهداه لأشناس.

كان سبب نقل العاصمة اصطناع المعتصم للأتراك. وحدث أن بغداد ضاقت بالجند الجدد من الترك الذين استكثر منهم المعتصم [1]، فقد بلغ تعدادهم حوالي سبعين ألفًا، ومدوا أيديهم وأذاهم إلى حُرمَ الناس.وسعوا في بغداد الفساد، وشكا الناس للخليفة، وهدده الشيوخ بسهام السَّحرَ، (بالدعاء ليلا عليه)فوطدَّ العزم على الخروج بجنده من بغداد، فاختار سامرا وبني بها قصرًا فخمًا له، ومسجدًا عظيمًا، وبني عساكرُه دورًا حولَ قصره، وانتقل المعتصم وقواده وجنده إلى سامرا، وظل بها المعتصم حتى مات.

[1] مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي(346هـ)، ج3 ص 46، و البلدان، اليعقوبي، ص14، تاريخ التمدن الإسلامي، جرجى زيدان، ج4 ص109، تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص 381، المنتقي من المقفىَّ في أخبار بني العباس، المقريزي، تحقيق/ تميمه محمد عيد الروّاف، ص 300ـ 302، التاريخ السياسي للخلافة العباسية، د/ فائزة إسماعيل أكبر، ص 180، العباسيون وآثارهم المعمارية في الشرق ومصر والمغرب، عبد الله كامل موسى عبده، ص 238ـ254، تاريخ الدولة العباسية (العصر العباسي الأول)، أحمد إسماعيل الجبوري، ج1 ص 156.

قد أورد كارل بروكلمان وصفًا دقيقًا لسامرا، ومن بعض دراساته عنها:

أنشأ المعتصم قناتين من نهر دجلة، خلفتا على المدينة الجديدة - بالإضافة إلى النهر نفسه - منعة الحصن البحري، وقد اعتمد المعماريون المسلمون في أبنية سامرا على نماذج فهلوية[1].

يقول أبو سعد: سامَرّاء بلد على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخًا يقال لها سُرّ مَن رأى فخففها الناس وقالوا سامَرّاء، وهي في الإقليم الرابع، طولها تسع وستون درجة وثلثًا درجة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وسدس، تعديل نهارها أربع عشرة ساعة، بناها المعتصم ونزلها في سنة 221هـ.

فقد أمر المعتصم أبا الوزير أحمد بن خالد الكاتب بأن يأخذ مائة ألف دينار ويشتري بها بناحية سُرّ من رأى موضعًا يبني فيه مدينة لهؤلاء الأتراك الذين سعوا في بغداد فسادًا، فقال له أبو الوزير: آخذ خمسة آلاف دينار وإن احتجت إلى زيادة استزدت[2].

وفي بناء سر من رأى نلاحظ التأكيد على الأسوار أو على بناء مدينة محصنة وذلك لثبوت أركان الدولة العباسية، واهتم المعتصم بأن تكون عاصمته مجمعًا للصناعات المعروفة، واعتنى بالناحية التجارية، فوسع" صفوف الأسواق" وعمل شارعًا على دجلة جعله رصيفًا مرسي لسفن التجارة.

وكان اهتمامه شديدًا في فصل الجيش والدواوين عن السكان وفي إنزال الأهل في أحياء خاصة حسب مهنهم.

فأسكن كل صنف من جيشه في جهة حسب جنسياتهم، ثم وضع كل فرقة تحت قائدها وفي محلة خاصة.

[1] تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان ج 2 ص 49ـ50، و تاريخ الموصل، أبو بكر الأزدي، ص 416، الكامل في التاريخ، ابن الأثير(ت630هـ)، م6 ص21، رسالة ماجستير(الأوضاع الاقتصادية في العراق والشام في العصر العباسي الأول، د/يسرى أحمد عبد الله عبد الرحمن زيدان، ص 483.

[2] معجم البلدان، ياقوت الحموي، م 3 ص174ـ175.

فكان تقسيمه للمدينة الجديدة تقسيمًا عسكريًا اجتماعيًا يتناسب وكونها معسكرًا أولا، ومركزًا حضريًا ثانيًا.

السياسة الخارجية في عهد المعتصم

علاقة الخليفة المعتصم مع البيزنطيين.

يعد عهد المعتصم فيصلا في تاريخ هذه العلاقات الخارجية، فالخلفاء قبله كانوا يجتهدون ويجاهدون على النسق القديم. بينما في عصر المعتصم قد عملت الدولة على تثبيت المكاسب والاستعانة في تجميد الموقف بإتمام إقامة الثغور والتحصينات؛ لتتقيأ الدولة الإسلامية ظل الدعة والسلام ويدخل العالم في ظل السلام مبسوط الرواق، فتكاملت أطراف ما وراء النهر، وشحنت هذه الثغور بالمرابطين المقاتلة وأدت دورها كاملا في تحصين الحدود والدفاع عن الدولة ودفع جميع الأخطار.

فالنظام الثغري وصل لمرحلة الكمال زمن المعتصم كما تذكر رواية البلاذري[1].

ففي زمن المعتصم(218ـ227هـ)أصبحت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية أسوأ مما كانت عليه من قبل، ولكن المعتصم لم يشأ أن يتفرغ للأمور الخارجية قبل أن ينتهي من المشاكل الداخلية فآثر أن يتخلص من تلك أولا ثم يتفرغ للبيزنطيين. وقد استغل الامبراطور البيزنطي ثيوفيل بن ميخائيل ملك الروم انشغال المعتصم بالقضاء على ثورة بابَك الخُرَّمي، فخرج سنة 223هـ وبصحبته ما يقرب من مائة ألف وأغار على البلاد الإسلامية[2].

يذكر ابن الأثير أن ثمة اتصال حدث بين بابَك و ثيوفيل وقد حثّه فيه بابَك على قتال المسلمين، حيث أن جميع جند المسلمين في أذربيجان، في الوقت الذي يثور

---

[1] العالم الإسلامي في العصر العباسي، الدكتور حسن أحمد محمود، ق1 العصر العباسي الأول ص 154ـ155.

[2] رسالة ماجستير بعنوان "السياسية الخارجية للدولة العباسية": العصر العباسي الأول (132ـ332هـ)، نايف عيد جابر سهيل ؛ص 96، إشراف إبراهيم أحمد العدوى 1985م، والوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول، محمد ماهر حمادة، ص 385ـ 386.

فيه بابَك وتنشغل القوات العباسية بمحاربته. وفي الوقت نفسه يستفيد بابَك من مهاجمة ثيوفيل، فينشغل العباسيون بذلك فيخف الضغط عليه وبعبارة أخري يصبح العباسيون بين شقي الرحى بابَك من الداخل و ثيوفيل من الخارج.

وكيفما كان الأمر فقد هاجم ثيوفيل ومن معه من الخُرَّمية الذين ساروا إلى بلاده وكان معه أيضًا ملوك برجان والبرغر(البلغار)و الصقالبة وغيرهم ممن جاورهم، واتجه إلى " زبطرة" وهي أقرب البلاد الإسلامية لبلاد الروم، فأحرقها وخرّبها وقتل رجالها وسبى نساءها وأطفالها، وقتل الذراري، وأخذ الأسرى ومثّل بكل من وقع في يده، ولما انتهى من " زبطرة" ثم حاصر شمشاط وبعد أن هزم نجدة أتت لإنقاذها، فتحها وأحرقها، وأعمل الخراب في أرمينية الصغرى وسبى كثيراً من أهلها.

ثم سار إلى مالطية(ملطية) وغيرها من ثغور المسلمين، فسبى النساء ومثّل بالمسلمين فسمل عيونهم وقطع أفواههم وأذانهم ثم عاد إلى بلاده[1].

و قد ترك هذا الهجوم وما ارتبط به من جرائم لا إنسانية آثارًا عميقة في نفوس المسلمين.وقد عبر عن ذلك إبراهيم بن المهدي حين دخل علي الخليفة وأنشده:

يا غيرة الله قد عانيتِ فانتقمي   هتك النساء وما منهن يرتكبُ
هَبِ الرجال علي أجرامها قُتِلَتْ   ما بالُ أطفالها بالذبحِ تُنتهب؟!

لما علم المعتصم بذلك ثارت ثائرته، وغضب غضبًا شديدًا وأعلن النفير، وقد انزعج أكثر لما أصاب زبطرة لأنها مسقط رأسه، فضلا عن بعض الأمور التي ألهبت مشاعره أن امرأة هاشمية من نساء زبطرة كانت في جملة السبي وأنها تعرضت في أسرها للهوان على يد البيزنطيين فصاحت: وا معتصماه! فعرف المعتصم بقصتها فأجابها وهو في مكانه: لبيك لبيك!وأصر على ضرورة محاربة البيزنطيين والانتقام منهم، فصاح" النفير النفير" وركب دابته[2].

---

[1] الكامل في التاريخ، ابن الأثير ج 6 ص 479، بيروت سنة 1965.

[2] كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، ج 3 ص322، تاريخ الإسلام، الذهبي، ج 16ص 14، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، مختصر تاريخ العرب، سيد أمير علي، ص250، التاريخ السياسي للخلافة العباسية، د/ فائزة إسماعيل أكبر، ص 189ـ 192، الدولة العباسية (من التخلي عن سياسيات الفتح إلى السقوط)، نادية محمود مصطفى، ج9 ص 32ـ 34.

فتح عمورية

لما انتهي المعتصم من أمر بابَك سار إلى بلاد الروم قاصدًا أراضي الدولة البيزنطية ليضربها ضربة قاصمة، فسأل معاونيه عن أمنع وأحصن بلاد الروم فقيل له: " عمورية" فلم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية وبنكها وهي أشرف عندهم من القسطنطينية، ويقال أن اسمها كان منقوشًا على درع كل جندي من جنود المسلمين[1].

وقد اختار المعتصم مدينة عمورية هدف أساسيًا لهذه الغزوة لأن عمورية في ذلك الوقت كانت من أهم مدن الروم في آسيا الصغرى، ولأنها كانت الموطن الأصلي للأسرة التي كانت تحكم الروم حينذاك وهي الأسرة العمورية.

قد وصلت القوة الضاربة للدولة العباسية في محاربتها للبيزنطيين أقصي ذروتها في عهد المعتصم، فتحرك من سامرا في جيش ضخم جرار لم يتجهز به خليفة من قبل، سواء في العدد أو العدة، وكان ذلك في جمادي الأولي سنة223هـ(838م)، وصحبه كبار قواده من الأتراك والعرب كالأفشين قاهر بابك، ثم أشناس وإيتاخ وعجيف بن عنبسة ومحمد بن إبراهيم والعباس بن المأمون، بالإضافة إلى الخليفة نفسه وهو القائد الأعلى.

يقال أن عدد جيش المعتصم بلغ خمسين ألفًا وقيل مائتي ألف [2].

أقام المعتصم على نهر سيحان[3]، وأمر المعتصم الأفشين أن يدخل بلاد الروم عن طريق طرسوس، وحدد لهما يومًا يلتقيان فيه عند أنقرة. ودخل المسلمون أنقرة وأحرقوها.

[1] تاريخ الطبري، الطبري ج 10 ص 235، و تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، ص 476، و المعارف، الدينوري، ص221.

[2] مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، ج3، ص472، و دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، عبد الحليم عويس، ص 54، تاريخ الخلفاء، السيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ص 381، نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، ج22 ص251ـ252.

[3] سيحان نهر يصب في البحر المتوسط شرقي طرسوس، ويسميه ابن الأثير "السن"و الطبري"اللمس".

واصل الجيش الإسلامي تقدمه حتى وصل عمورية، وكان المعتصم على قلب الجيش، والأفشين على الميمنة، و أشناس على الميسرة، وأرهبوا السكان فيما بين أنقرة وعمورية والمسافة بينهما سبعة مراحل(140 كيلو متر)، ووصل المعتصم عمورية فضرب عليها الحصار في السادس من رمضان سنة 223هـ ولم تستطع المدينة أن تصمد طويلًا؛فقد حاصروا المدينة، وتمكنوا من إحداث ثغرة في سورها، دُلّوا على مكانها، كان السيل قد هدّمها، ورفعت بشكل سريع على حجرٍ واحدٍ سُمكًا، فدكّها ودخلوا المدينة في السابع عشر من رمضان سنة 223هـ (12من أغسطس 838م)، وكان مصيرها الإحراق والتدمير، وسقط الآلاف من أهلها قتلي(ثلاثين ألف قتيل).أما الأسرى فكانوا لا يحصون كثرة.

قد افتدي أسر البيزنطيين من الأشراف أنفسهم بأموال كبيرة، وغنم المسلمون مغانم كثيرة أمر المعتصم ببيعها في مواضع كثيرة استغرق هذا خمسة أيام كاملة، وكان ينادي على الشيء ثلاثة أصوات فقط طلبًا للسرعة(فيما يشبه المزاد الآن)، وكان ينادي على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة.وبعد تخريب عمورية اتجه المعتصم إلى طرسوس.

كان لفتح عمورية أثر عظيم بما قوّي من معنويات المسلمين، وما أضعف من معنويات الروم.

وقد أشار أبو تمام إلى هذه الحادثة وهذا النصر العظيم في قصيدته المشهورة التي يذكر فيها فتح عمورية ويمدح الخليفة المعتصم والتي يقول فيها:

السيف أصدق أنباءً من الكتب	في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف	في متونهنّ جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة	بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما	صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به	نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتحٌ تُفَتَّحُ أبواب السماء له	وتبرُز الأرض في أثوابها القُشُب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت	منك المنى حُفَّلاً معسولة الحلب

أبقيتَ جدَّ بني الإسلام في صَعَد — والمشركين ودار الشرك في صَبَب
لقد تركتَ أمير المؤمنين بها — للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادَرتَ فيها بهيم الليل وهو ضحىً — يشُلّه وسطها صبحٌ من اللـهب
حتى كأن جلابيب الدجى رَغِبت — عن لونها وكأن الشمس لم تَغِب
لو يعلم الكفر كم من أعصر كَمَنَت — له العواقب بين السُّمر والقُضُب
تدبير معتصمٍ باللـه مُنتقِم — لله مرتقِبٍ في اللـه مُرتَغِب
رمى بك اللـه برجيها فهدّمها — ولو رمى بك غيرُ اللـه لم يُصِب
لبَّيت صوتاً زِبطرياً هَرَقْتَ له — كأس الكرى ورُضابَ الخُرَّدِ العُرُب
أجبته معلناً بالسيف منصلتاً — ولو أجبت بغير السيف لم تُجِب
حتى تركتَ عمود الشرك منعفرا — ولم تُعرّج على الأوتاد والطُّنُب
ولّى وقد ألجم الخطِّيُّ منطِقَه — بسكتة تحتها الأحشاء في صخب
والحرب قائمةٌ في مأزقٍ لَجِجٍ — تجثو القيام به صُغراً على الرُّكَب[1].

ليس من المبالغة القول إن حرب عمورية كانت أخطر حرب يشنها العباسيون ضد البيزنطيين، وإن النصر الذي أحرزه المعتصم فيها كان بلا نظير في العصر العباسي، فكما وصفه الشاعر أبو تمام - بحق - بأنه" فتح الفتوح"[2].

لم يكن يهدف المعتصم من وراء هذه الحرب إلا إلى تأديب الامبراطور ثيوفيل وتلقينه درسًا قاسيًا جزاء عدوان غاشم لم يكن ما يبرره(زبطرة_ ملطية). وبمجرد أن حقق المعتصم هذا الهدف انسحب إلى بلاده دون أن يحتفظ بأي جزء من الأراضي التي استولي عليها خلال غزوه.

كان المعتصم عازمًا على السير إلى القسطنطينية لمحاصرتها برًا وبحرًا حتى يتم فتحها وكان ذلك بعد فتحه لعمورية، ولكنه لم يتمكن من ذلك لعلمه بالمؤامرة التي دبرها العباس بن المأمون، ومناصرة عجيف بن عنبسة الذي أغضبه سوء تصريف

[1] الخلافة العباسية قيامها وازدهارها وعوامل انهيارها، الدكتورعبد الرحمن سالم، ص 155_ 156.
[2] العِقد الثمين في تاريخ المسلمين، د/ عُبادة كُحيلة، ص 210_211، والخلافة العباسية والحركات الاستقلالية بالمشرق، محمد عبد الحميد الرفاعى، ص42.

القواد الترك تجاهه، فسخط على المعتصم تقريبه لهم، وأقنع العباس بالسعي للخلافة، وبث الدعاية له سرًا في الجيش ودبر مؤامرة اشترك فيها قواد عرب آخرون وحتى بعض الأتراك وأجل التنفيذ إلى ما بعد فتح عمورية وعند توزيع الغنائم[1].

لكن المؤامرة اكتشفت، فنكل المعتصم بالمتآمرين أشد تنكيل، فقبض على العباس ومُتَّبعيه وسجنهم[2].

مؤامرة العباس بن المأمون - لو صحت - حدثت أثناء عودة المعتصم إلى دار الخلافة حتى يستطيع قتله وخلعه من الخلافة.

تعد معركة عمورية خاتمة المعارك العظيمة المظفرة التي خاضها العباسيون ضد الروم، وخاصة في خلافة المهدي والرشيد والمأمون.وبعد هذه المعركة بدأ ينحسر دور الخلافة في النضال الإسلامي البيزنطي ليضطلع به في الأساس حكام منطقة الثغور[3].

وفاة المعتصم

لما حضرته الوفاة جعل يقول: ذهبت الحيل ليست حيلة حتى مات. و ذكر عنه أنه قال: لو علمت أن عمري قصير ما فعلت ما فعلت. وقيل أنه دفن بُسرَّ من رأى.

كانت خلافته ثماني سنين، وثمانية أشهر، وهو ثامن الخلفاء، وهو ثامن من ولد العباس.مات عن ثمانية وأربعين سنة، وله ثمانية بنين و بنات[4].

---

[1] العصر العباسي الأول (دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي)، الدكتور عبد العزيز الدّوري، ص 197، ومروج الذهب، المسعودي ج 4ص60، تاريخ العرب العام، للمستشرق ل. أ. سيد يوُ. نقله إلى العربية عادل زعيتر، ص188.

[2] تاريخ الإسلام، الذهبي، ج 16 ص 14، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري.

[3] دروس التاريخ الإسلامي وأحوال الدول العربية، الشيخ يحيي الدين الخياط، نقحها وزاد عليها السيد محمد الباقر، ج4 ص52، و البداية والنهاية، ابن كثير، ج9 ص311، تاريخ الموصل، أبو زكريا الأزدي(ت 334)، ص 427، تاريخ الدولة العباسية، محمد أحمد إبراهيم، ص 133.

[4] تَجاربُ الأمم وتعاقبُ الهمم، لابن مسكويه، ج4ص 87، تحقيق سيد كسروي حسن، و المعارف، الدينوري، ص 221.

احتجم المعتصم في أول يوم من المحرم سنة 227هـ فأصيب عقب ذلك بعلته التي قضت عليه يوم الخميس لثماني ليالٍ مضت من شهر ربيع الأول من تلك السنة ورثاه محمد بن عبد الملك الزيات فقال:

قــد قلــت إذ غيبــوك واصــطفقت عليـــــكَ أيـــــد بـــــالتراب والطـــــين

اذهـــب فـــنعم الحفـــيظ كنـــت عـــلي الـــدنيا ونعـــم الظهـــير للـــدين

لا جـــبر اللــــه أمـــة فقـــدت مثلـــــك إلا بمثـــــل هـــــارون[1].

قيل(كانت وفاة المعتصم في السبع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، ولـه ثمانٍ وأربعـون سنة.وصلى عليه الواثق ولده.ودفن بالجوسق، وكان المعتصم - رحمه اللـه - شديد البيـاض ـ حـسن الوجه ـ أصهب الشعر ـ عظيم اللحية[2].

[1] محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية(الدولة العباسية)، الشيخ الخضري بك، ص 277، تحقيق الشيخ محمد العثماني، و تاريخ الخلفاء، السيوطي(ت 911هـ)، ص 226، تاريخ الموصل، سليمان صائغ الموصلي، ص79.

[2] كنز الدُّرر وجامع الغرر(الدَّرة الَّسنية في أخبار الدولة العباسية)، المؤلف أبو بكر بن عبد اللـه بن أيبـك، جـ 5 ص 221، و الخـراج والـنظم المالية للدولة الإسلامية، محمد ضياء الدين الريس، ص458.

الفصل الخامس

الخلافة العباسية في القاهرة

واستمرت مصر خلال العصر العباسي تحكم من خلال الولاة المعينين من قبل الخلافة العباسية، وثمة ما يجب ملاحظته هنا، فقد كان ولاة مصر في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين من العرب تمشياً مع سياسة الدولة التي كانت عربية في سياستها وسيادتها، فقد كان الإشراف السياسي والإداري والحربي والقيادات العليا للعرب دون سواهم من الشعوب المحكومة، ولما كان العباسيون قد أشركوا غير العرب في الحكم فقد العرب امتيازهم.

المماليك في العربية هم من سبوا دون أبائهم أو أماتهم، وكان المصدر الرئيسي لاستيرادهم هو الأسر في الحروب أو الشراء في أسواق النخاسة وشهد العصر العباسي في مصر وجود عدد من الولاة من عناصر غير عربية، فقد كان عنبسة بن اسحاق الضبي آخر الولاة العرب في العصر العباسي (238 - 242 هجرية)، وترتب عليه أن الوالي الذي كان يقوم بإمامة المسلمين في الصلاة أصبح ينيب عنه من يؤم المسلمين في الصلاة حيث لم يكن هؤلاء الولاة غير العرب يحسنون العربية.

وكانت فكرة تجنيد العبيد قد بدأت منذ عهد المأمون وأصبحت في عهود ضعف الدولة العباسية القوام الوحيد للجيش والمنبع الأساسي للسلطة؛ أما مماليك مصر فقد تمّ استقدامهم على يدالسلاطين الأيوبيين وهم في الغالب شراكسة بيض، يتم تعليمهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن وفنون القتال منذ الصغر. تولى المماليك حكم مصر عام 1250 بعد انقراض السلطنة الأيوبية

كذلك نلاحظ كثرة تغيير الولاة في مصر في العصر العباسي، فقد شهدت مصر منذ قيام العباسيين وحتى دخول الفاطميين اثنين وثمانين والياً تولى بعضهم مرتين.

رُوّع المسلمون بسقوط بغداد حاضرة الخلافة العباسية في (30 من المحرم 656 هـ = 6 من فبراير 1258م) في أيدي المغول الوثنيين بقيادة هولاكو، بعد أن قتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسي هو وأهله، واستباحوا المدينة التليدة، فقتلوا السواد

الأعظم من أهلها الـذين قُـدروا بنحـو مليـون قتيـل، وأضرمـوا النـيران في المدينـة، وهـدموا المـساجد والقصور، وخربوا المكتبات وأتلفوا ما بها من كتب إما بإحراقها أو رميها في "دجلة"، وأصـبحت المدينـة بعد أن كانت درة الدنيا، وزهرة عواصم العالم، أثرًا بعد عين.

وشعر المسلمون بعد مقتل الخليفة المستعصم، وسقوط الخلافة العباسـية التـي ظلـت تحكـم معظم أنحاء العالم الإسلامي خمسة قرون بأن العالم على وشك الانتهاء، وأن الساعة آتيـة قريبـا، وذلـك لهول المصيبة التي وقعت بهم، وإحساسهم بأنهم أصبحوا بدون خليفة، وهو أمر لم يعتادوه منذ وفـاة النبي صلى اللـه عليه وسلم، وصاروا يؤولون كل ظاهرة عـلى أنهـا تعبـير عـن سـخط اللـه وغـضبه، واتخذوها دليلاً على ما سيحل بالعالم، من سوء لخلوه من خليفة.

ويعد المؤرخ الكبير ابن الأثير سقوط الخلافة كارثة لم يحل مثلها بالعالم من قبـل، ويقـول: فلـو قال قائل منذ خلق اللـه سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن: لم يبتلَّ العالم بمثلها لكان صادقًا، فإن التـواريخ لم تتضمن ما يقابلها ولا ما يدانيها.

وتداعت الأحداث سريعًا، وتعذر إحياء الخلافة العباسية مـرة أخـرى في بغـداد التـي أصـبحت قاعدة للمغول الوثنيين، ثم اجتاحت جحافلهم الشام، فسقطت حلب بعد مقاومة عنيفة، واستـسلمت دمشق، فدخلها المغول دون مقاومة.

ظهور التتار في عهد الخلافة العباسية

التتار شعب بدوي يعيش على أطراف صحراء غوبي بـأطراف بـلاد الـصين وهـم سـكان بـراري، ومشهورون بالشر والغدر، حياتهم رعوية، ونظامهم قـبلي، يطيعـون رؤسـاءهم طاعـة كبـيرة، ويحبـون الحرب والسلب ويعبدون الكواكب، ويسجدون للشمس أثناء شروقها، ويأكلون لحوم جميع الحيوانات حتى الكلاب، وتنتشر عندهم الإباحية، وتعرف ديانتهم القديمة بالشامانية، يقـدمون الأضـاحي لـبعض الحيوانات الشريرة ويقدسون أرواح الأجداد.

والتتار هم أصل القبائل المتفرعة عـنهم جميعًـا مـن مغـول وتـرك وسـلاجفة وغيرهم وقد يكون سيطرة قبيلة المغول على التتار في مرحلة من مراحل تاريخها هو

الذي جعل اسم المغول يطلق على الجميع. وهناك من يقول: إن التتار والمغول أخوان، وقد سيطر المغول مع الفرعين عندما قام جنكيز خان يدك الدول. وعلى كلٍّ، فإن كلمة تتار اليوم تطلق على القبائل الموجودة في روسيا وسيبريا وشبه جزيرة القرم. على حين تطلق كلمة المغول على القبائل الموجودة في الصين وأفغانستان. وكان المغول هم المسيطرون أيام جنكيز خان واسمهم يعم القبائل جميعها، والتتار هم الذين سيطروا أيام تيمورلنك وشمل أسمهم القبائل كلها.

جنكيز خان

جنكيز خانكان جنكيز خان ذا همة عالية وكان قومه متفرقين مغلوبين من منافسيهم من التتر، فعمل على لم شعثهم فنجح في ذلك فحارب جميع القبائل التركية وانتصر عليهم جميعًا، بعد حروب شديدة، وكون مملكة واسعة مسكونة بتلك الأمم التي لا يعلم عددها إلا الله، وعاصمة ملكه مدينة قراقروم.

ثم فكر في وضع قانون لهذه الأمة العظيمة، يكون لهم دينًا يسيرون على مقتضاه، فوضع لهم (اليساق) أو (إلياسة)، وهي كتابهم الذي يرجعون إليه في معاملاتهم وأحكامهم، وكانت عندهم كالقرآن عند المسلمين.

أسباب اتجاه التتار إلى البلاد الإسلامية

يقول المؤرخون: إن الخلاف الذي قام بين الخليفة الناصر وخوارزمشاه علاء الدين تكش، جعل الخليفة يستدعي التتر للخروج إلى مملكة خوارزمشاه كي ينشغل بهم عن مراده أن تكون السلطنة له.

لم يكن الخليفة يقصد ما تبع فعلته من أحداث، كان كل ما يريد هو ألا يعود من جديد نفوذ لغير دولة الخلافة، ولم يكن الخليفة كذلك يظن أن التتار بهذه القوة، وأن خوارزمشاه بهذا الضعف.

والحقيقة أن جنكيز خان لم يكن يرى أن ذلك سبب كاف للهجوم على دولة خوارزمشاه، وكان هناك وفاق بينه وبين خوارزمشاه، حتى كانت سنة 615هـ لما سافر تجار من بلاد جنكيز خان حتى وصلوا إلى بلدة بثغر خوارزمشاه بساحل

سيمون، وبها والٍ من قبل خوارزمشاه، فلما ورد عليه هؤلاء التجار وكانوا زهاء 400 نفس ومعهم أموال جسيمة، طمع ذلك الوالي في أخذ أموالهم، فأرسل قاصدًا إلى خوارزمشاه يخبره أن جواسيس جنكيز خان قد قاموا في زي تجار، فأمره بقتلهم وأخذ أموالهم، ففعل.

فلما بلغ ذلك جنكيز خان أرسل إلى خوارزمشاه أن يبعث إليه الوالي الذي فعل هذه الفعلة ليقتص منه، ولكن خوارزمشاه قتل الرسول مما دعا جنكيز خان للخروج لمحاربته.

وبدأ خوارزمشاه بالعدوان وهجم على بلاد عدوه فلقي هناك جموعًا قليلة، إذ كانوا يحاربون أحد الأمراء، فقتل من وجد من الأطفال وسبي النساء، وعاد التتار وعلموا وهم في الطريق بالخبر فجد والسير فأدركوا خوارزمشاه ولم يغادر ديارهم بعد، فوقعت بينهما معركة رهيبة، كادت تفنيهما لما صبروا، وغادر كل صاحبه يائسًا من الحرب لما ناله، ورجع خوارزمشاه إلى بخارى وبدأ يستعد للقتال، فحصن بخارى وسمرقند، وسار يجمع الجند من خوارزم وخراسان.

زحفت جيوش جنكيز خان الجرارة وعبر نهر سيحون وسار حتى أتى بخارى، وكان بها عشرون ألفًا من الجنود الخوارزمية، وخوارزمشاه غائب للاستعداد، فهربوا وتركوا المدينة بلا حامية.

وفي 4 من ذي الحجة سنة 616هـ دخل التتار بخارى وأمر جنكيزخان التجار أن يأتوا بما استلبوه من تجارة، وأخرج رؤساء البلد منها وانتهبت الأموال وتقاسم الجند من بقي من الناس، وأصبحت بخارى تلك المدينة العظيمة خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وكذلك فعلوا بسمرقند في محرم سنة 620هـ.

في طلب خوارزمشاه

ثم اختار جنكيز خان عشرين ألفًا من أشداء جنوده، وأمرهم أن يطلبوا خوارزمشاه أين كان، ولو تعلق بالسماء ففعلوا وكلما هموا أن يوقعوا به هرب منهم، وقد أصابه الهلع والرعب، حتى وصل إلى قلعة له في البحر، فلما نزل هو وأصحابه

في السفن يئس التتر من اللحاق به فعادوا عنه، وكان ذلك آخر العهد به حيث توفي في جزيـرة ببحـر الخزر سنة 62هـ

فلما عادوا استولوا على كل قرية يمرون بها (مازندران، الري، همذان، قزوين) حتـى وصـلوا إلى البلاد الشمالية وهي دشت القفجاق وفيها أمم تركية كثيرة فأمعنوا فيهم قتلاً وسبيًا فتفرقوا في جميـع الأقطار وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصرية فاشترى مـنهم الـصالح نجـم الـدين أيوب مماليكه البحرية ملوك مصر بعد الدولـة الأيوبيـة، ومـنهم المعـز أيبـك والمظفـر قطـز والمنـصور قلاوون وغيرهم.

ثم دخل التتر بلاد الروس ثم بلغار لكن البلغار انتصروا علـيهم، وقتلـوا كثـيرًا مـن التـتر أواخـر سنة 620هـ

استطاعت هذه الفئة القليلة التي خرجت تطلب خوارزمشاه أن تثير الرعب والنهب والخراب، ثم أرسل جنكيز جيوشه تستولي على البلدان الواحدة تلو الأخرى فتم له مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تبتدئ شرقًا من بلاد الصين وتنتهي غربًا إلى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس وجنوبًا ببلاد الهند وشمالاً بالبحر الشمالي، كل ذلك تم له في مدة قصيرة.

ولما أحس بقرب منيته قسَّم الممالك الجنكيزية إلى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعـة كـما سـيأتي بيانه.

وفاة جنكيز خان

كان التتار يفسدون في الأرض والخليفة الناصر مشغول عـن ذلـك بلهـوه وعبثـه، ظالمًـا للنـاس وسلب الأموال، وتوفي جنكيز خان سنة 624هـ فكان قبيح السيرة، وبقـي في أواخـر أيامـه ثـلاث سـنين معطلاً عن الحركة، وقد ذهبت إحدى عينيه، والأخرى يبصر بها إبصارًا ضعيفًا حتى وافته المنية.

معركة عين جالوت

لم يوقف زحفهم المدمر سوى انتـصار المـسلمين في معركـة عـين جـالوت في (26 رمـضان سـنة 658هـ = 3 سبتمبر 1260م).

وتعد هذه المعركة من أهم المعارك في تاريخ العالم الإسلامي، بل في تاريخ العالم، إذ أوقفت زحف المغول، وأنزلت بهم هزيمة مدوية أحالت دون تقدمهم إلى مصر وكانوا على مقربة منها، ومنعت زحفهم إلى ما وراءها من بلاد العالم الإسلامي، وأنقذت معالم الحضارة الإسلامية في تلك البلاد من الدمار وأصبحت شاهدة على ما بلغته من مجد وتفوق.

وكان من نتائج هذا النصر المجيد أن أصبح أمر إعادة الخلافة العباسية ممكنًا، فما إن علم السلطان قطز بطل معركة عين جالوت، حين قدم دمشق بوجود أمير عباسي يدعى "أبا العباس أحمد" حتى استدعاه، وأمر بإرساله إلى مصر، تمهيدًا لإعادته إلى بغداد، وإحياء الخلافة العباسية.

ولما تولى بيبرس الحكم بعد مقتل قطز أرسل في طلب الأمير أبي العباس أحمد، الذي كان قد بايعه قطز في دمشق، لكنه لم يحضر، وسبقه إلى القاهرة أمير آخر من أبناء البيت العباسي اسمه "أبو القاسم أحمد" واستعد السلطان الظاهر بيبرس لاستقباله فخرج للقائه ومعه كبار رجال الدولة والأعيان والعلماء، ولما وقع نظر السلطان على هذا الأمير العباسي ترجل عن فرسه إجلالا له، وعانقه، وركب معه يتبعهما الجيش حتى وصلا إلى القلعة، وهناك بالغ السلطان في إكرامه والتأدب معه، فلم يجلس على مرتبة ولا فوق كرسي بحضرة هذا الأمير العباسي.

وفي يوم الإثنين (13 رجب 659 هـ = 19 من يونيو 1260 م) عقد السلطان مجلسا بالديوان الكبير بالقلعة حضره القضاة والعلماء والأمراء، وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، وكبار رجال الدولة، وفي هذا المجلس شهد العرب الذين قدموا مع الأمير العباسي بصحة نسبه، وأقر هذه الشهادة قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة، ثم قام بعد ذلك الظاهر بيبرس وبايعه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، وأخذ الأموال بحقها، وصرفها في مستحقتها، ثم قام الحاضرون بمبايعة الخليفة الذي تلقب باسم الخليفة المستنصر بالله.

ولما تمت البيعة قلد الخليفة المستنصر السلطان بيبرس البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار، وكتب السلطان إلى النواب والحكام في سائر الولايات التابعة لمصر بأخذ البيعة للخليفة المستنصر، والدعاء له في خطبة الجمعة على المنابر والدعاء للسلطان من بعده، وأن تنقش السكة باسمهما.

شرع السلطان بيبرس في تجهيز الخليفة، وإمداده بكل ما يحتاجه من جند وسلاح ومال، في سبيل إعادة الخلافة العباسية، وإقامتها في بغداد، وخرج السلطان مع الخليفة إلى دمشق، فبلغها في (ذي القعدة 659 هـ = 1261م)، وكان في عزمه أن يمد الخليفة بعشرة آلاف جندي وفارس حتى يتمكن من استعادة بغداد من أيدي المغول، لكن السلطان بيبرس تراجع عن وعده، وأحجم عن المضي في هذا المشروع بعد أن وسوس له أحد أمرائه وخوّفه من مغبة نجاح الخليفة في استرداد بغداد لينازع بعد ذلك السلطان الحكم، فاكتفى بإمداده بقوات قليلة لم تكن كافية لتحقيق النصر على المغول، فانهزم الخليفة، وقُتل هو ومعظم من كان معه، في المعركة التي وقعت بالقرب من الأنبار في (المحرم 660 هـ = ديسمبر 1261م).

تهيأت الأحداث لإحياء الخلافة العباسية مرة أخرى، فأرسل بيبرس في استدعاء الأمير "أبي العباس أحمد" الذي سبق أن بايعه قطز، وكان قد نجا ونحو خمسين فارسًا من الهزيمة التي لحقت بالخليفة السابق، فوصل إلى القاهرة في (ربيع الآخر 660 هـ = مارس 1262م) واحتفل بيبرس بقدومه، وأنزله البرج الكبير بقلعة الجبل، وعقد له في (8 من المحرم 661 هـ = 21 نوفمبر 1262م) مجلسًا عامًا بالديوان الكبير بالقلعة، حيث قرئ نسبه على الحاضرين، بعدما ثبت ذلك عند قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز، ولقب بالحاكم بأمر الله،

وبايعه السلطان على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان، وقلّد أمور البلاد والعباد، ثم قام الحاضرون بمبايعة الخليفة الجديد، وخُطب له على المنابر في مصر والشام وبهذا الإجراء الذي تم في هذا اليوم أُحييت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة، غير أن الظاهر بيبرس، لم يفكر في إعداد هذا الخليفة الثاني لاسترجاع بغداد وإحياء الخلافة بها، وإنما استبقاه في القاهرة

ليكون على مقربة منه وتحت عينه، وجعل سلطته محدودة، لا تتعدى ذكر اسمه في الخطبة في مصر والأمصار التابعة لها، واستمرت الخلافة العباسية بمصر إلى أن فتحها العثمانيون على يد السلطان "سليم الأول".

وجدير بالذكر أن الخلافة العباسية لم تكسب في إحيائها كثيراً، بعد أن صار الخلفاء العباسيون في مصر يفوضون السلاطين المماليك في إدارة شئون البلاد العامة دون تدخل منهم، واقتصر دورهم على حضور حفلات السلطنة وولاية العهد، وتهنئة السلاطين بالشهور والأعياد.

ومنذ أن أقيمت الخلافة العباسية في القاهرة تمتع السلاطين المماليك بمكانة ممتازة بين ملوك العالم الإسلامي؛ باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها، كما حظيت القاهرة بشهرة دينية علمية واسعة بعد أن صارت حاضرة الخلافة العباسية الجديدة.

الفصل السادس

سقوط بغداد ونهاية الخلافة العباسية

خلافة الظاهر بأمر الـلـه بن الناصر

(من شوال 622هـ حتى رجب 623هـ)

كان الظاهر بأمر الـلـه عادلاً محسنًا قالوا إنه أعاد سـنة العُمَـرين، وكانـت تأتيـه الأخبـار عـن الناس والأحوال على عادة من قبله فيردها ويقول: أي غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيـوتهم، فـلا يكتب أحد لنا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا، فقيل له: إن العامة يفسدها ذلـك ويعظـم شرهـا، قـال إنـا ندعو الـلـه أن يصلحهم، ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعيـة، فجـدد مـن العـدل مـا كان دارسًا، وأذكر من الإحسان ما كان منسيًّا حتى توفاه الـلـه.

خلافة المستنصر بالـلـه بن الظاهر

المستنصر بالـلـه يضع ببغداد المدرسة المستنـصرية للمـذاهب الأربعـةبويع المستنـصر بالـلــه بالخلافة من رجب 623 حتى جمادى الآخرة 640هـ بعد وفاة أبيه الظاهر بأمر الـلـه، فنشر العدل بين الرعية، وبذل الإنصاف في القضايا، وقرب أهـل العلـم والـدين، وبنـى المـساجد والمـدارس، وقـد وضـع ببغداد المدرسة المستنصرية للمذاهب الأربعـة، وجعـل فيهـا دار حـديث وحمامًـا ودار طـب، وجمـع الجيوش لنصرة الإسلام، وأحبه الناس، وكان له ذا شجاعة وإقدام، وقد هزم جنود التتار في الوقت الـذي خافهم البشر، وكان أخ شجاع أيضًا صاحب همة عالية يقال له الخفاجي، فكان يقول: لئن وُلّيت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون، وآخذ البلاد من أيدي التتار وأستأصلهم. غير أنه لم يتول، وإنمـا تـولى المستعـصم بعد أبيه المستنصر.

وكان المستنصر جميل الصورة حسن السريرة جيد السيرة، كثير الصدقات والـبر والصلات محسنًا إلى الرعية بكل ما يقدر عليه. وكان يبني الربُط والقنـاطر والخانـات والقناطر في الطرقات من سـائر الجهـات، وقـد عمـل بكـل محلـة مـن محـال بغـداد دار ضيافة للفقراء، لا سيما في شهر رمـضان. وقـد أوقـف كتبًـا نفيـسة عـلى المدرسـة

المستنصرية، توفي المستنصر في العاشر من جمادي الآخرة من عام 640 فكان عمره ثلاثًا وخمسين سنة.

آخر خلفاء العباسيين ببغداد

خلافة أبي أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر

بويع المستعصم بالله بالخلافة في جمادى الآخرة 640هـ حتى قتل بين يدي هولاكو خان في محرم 656هـ

ففي آبائه سبعة عشر خليفة لم يغنوا عنه من الله شيئًا. وبقتله انتهت الخلافة العباسية ببغداد.

كان خيرًا متدينًا عفيف اللسان والفَرْج وكان يتقن تلاوة القرآن حفظًا وتجويدًا، خرج له الشرف الدمياطي 40 حديثًا، وأجيز له بالحديث، وأجاز جماعة بالحديث عنه، إلا أنه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش.

وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي صاحب التوجه الشيعي الناقم على الدولة العباسية وقيل إنه يهودي الأصل، وهو الذي كان يوافي التتار بأخبار المسلمين ويمنع أخبارهم من الوصول إلى المستعصم.

دخول التتار بغداد

دخول التتار بغداديقول ابن كثير في وصف كيفية دخول التتار بغداد: ثم دخلت سنة 656هـ فيها أخذت التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها، حتى الخليفة، وانقضت دولة بني العباس منها، استهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار، هولاكوخان، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفًا على نفسه من التتار ومصانعة لهم قبحهم الله تعالى، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئًا، كما ورد في الأثر "لا يغني حذر من قدر"، وكما قال تعالى: {إِنَّ أَجَلَ الله إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ} [نوح: 4].

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك فزعًا شديدًا، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب: إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره، أذهب من ذوي العقول عقولهم. فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرت الستائر على دار الخلافة.

وكان قدوم هولاكو خان بجنوده كلها -وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل- إلى بغداد في ثاني عشر المحرم من هذه السنة، وهو شديد الحنق على الخليفة؛ بسبب ما كان تقدم من الأمر الذي قدره الله وقضاه وأنفذه وأمضاه، وهو أن هولاكو لما كان أول بروزه من همدان متوجهًا إلى العراق أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سَنِيَّة؛ ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم، فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أيبك وغيره، وقالوا: إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال، وأشار بأن يبعث بشيء يسير، فأرسل شيئًا من الهدايا فاحتقرها هولاكو خان، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور، وسليمان شاه، فلم يبعثهما إليه، ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية الشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، ولا يبلغون عشرة آلاف فارس وهم بقية الجيش، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم، حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله.

وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي، وذلك أنه لما كان في السنة الماضية كان بين أهل السنة والرافضة حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة، حتى نهبت دور قرابات الوزير، فاشتد حنقه على ذلك، فكان هذا مما أهاجه على أن دبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد وإلى هذه الأوقات، ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه

وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكو خان، لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورءوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو خان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسًا، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة، فيقال إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خواجة نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئًا كثيرًا من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة.

وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو ألا يصالح الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عامًا أو عامين، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك!! وحسَّنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله، ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان نصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وانتخب هولاكو نصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة، هوَّن عليه الوزير ذلك فقتلوه رفسًا، وهو في جوالق لئلاً يقع على الأرض شيء من دمه، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل بل خنق، ويقال: بل أغرق، فالله أعلم. فباءوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاده، ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقني الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما

بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانًا، بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم.

وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبًا من مائة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكي لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعًا منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتيين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشًا للتتار بعدما كان وزيرًا للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا، وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر وعفى قبره، وكان عمره يومئذ 46 سنة وأربعة أشهر، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله 25 سنة، ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون سنة، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم، وأسر من دار الخلافة من

الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل والـلـه أعلم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.
وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، وكان عدو الوزير، وقتل أولاده الثلاثة: عبد الـلـه، وعبد الرحمن، وعبد الكريم، وأكابر الدولة واحدًا بعد واحد، منهم الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك، وشهاب الدين سليمان شاه، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد، وكان الرجل يستدعي به من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب به إلى مقبرة الخلال، تجاه المنظرة فيذبح كما يذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه، وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين على ابن النيار، وقتل الخطباء والأئمة، وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد، وأراد الوزير ابن العلقمي -قبحه الـلـه ولعنه- أن يعطل المساجد والمدارس والربط ببغداد ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض، وأن يبني للرافضة مدرسة هائلة ينشرون عملهم وعلمهم بها وعليها، فلم يقدره الـلـه تعالى من ذلك، بل أزال نعمته عنه وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة، وأتبعه بولده، فاجتمعا -والـلـه أعلم- بالدرك الأسفل من النار.

ولما انقضى الأمراء المقدر وانقضت الأربعون يومًا بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقني والمقابر، وكأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضًا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى، الـلـه لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، وكان رحيل السلطان المسلط هولاكو خان عن بغداد في جمادى

الأولى من هذه السنة إلى مقر ملكه، أما الوزير ابن العلقمي فلم يمهله اللــه ولا أهملـه، بـل أخـذه أخذ عزيز مقتدر، في مستهل جمادى الآخرة عن ثلاث وستين سنة، وكان عنده فضيلة في الإنشاء ولديـه فضيلة في الأدب، ولكنه كان شيعيًّا جلدًا رافضيًا خبيثًـا، فـمات جهـدًا وغـمًّا وحزنًـا ونـدمًا، وإلى حيـث ألقت رحلها أم قشعم، فولى الوزارة ولده عز الدين بن الفضل محمد، فألحقه اللـه بأبيه في بقية هـذا العام، ولله الحمد والمنة.

وذكر أبو شامة وشيخنا أبو عبد اللـه الذهبي وقطب الدين اليونيني أنه أصاب الناس في هذه السنة بالشام وباء شديد، وذكروا أن سبب ذلك من فساد الهواء والجـو، فـسد مـن كـثرة القـتلى بـبلاد العراق وانتشر حتى تعدى إلى بلاد الشام، فاللـه أعلم.

الفصل السابع

العصر العباسي وخصائصه

العصر العباسي وليد ظروف سياسية واجتماعية بعيدة في التاريخ , يرجع بعضها إل ما قبل الإسلام , وهذا عرض موجز لها , لتبيان أثرها على العصر العباسي نفسه.

تنازع زعامة حلف قريش ودار الندوة بنو هاشم وبنو أمية , منذ عبد الدار وعبد مناف . وكانت صلاحية رئاسة دار الندوة تؤول إلى هؤلاء أو أولئك أو توزع بينهم حسماً للخلاف . حتى جاء الإسلام – وكان الزعيم أبو سفيان من بني أمية – فقضى على تلك الزعامة , ودعا إلى وحدة الأطراف , ليسهموا في بناء دولة واحدة . ولكن النزاع استؤنف بعد الني فآلت الخلافة إلى غير بيتي هاشم وأمية وولاهم معظم الولايات . فلما كانت خلافة علي استبعد أولئك الولاة , وكان ما كان من أمر الصراع بين علي ومعاوية , واغتيال علي , وخلافة الحسن , ثم تسلم الأمويين زمام الأمور , وبناء الدولة الأموية التي بلغت الصين وشمال أوربا وغربها .

لم تهدأ ا لثورات والحركات المناوئة , طوال العهد الأموي . وكان في رأس الحركات , حزب أبناء علي , والخوارج , والفرس الذين هدم العرب أركان دولتهم بعد أن استعمرت جزءاً من أرضهم أجيالاً .

على أن أخطر الجميع الفرس , فقد نظموا أنفسهم ووضعوا الخطط المتعددة واستغلوا أحقادها ضد بني أمية .

أدرك الفرس من أبناء علي , إذا بلغوا السلطة , كان حكمهم عربياً صرفاً , وأن العباسيين طامعون في السلطة , ولكن القوى الشعبية في أيدي أبناء علي , فدفعوا بالعباسيين إلى المقدمة, وهم يدركون أن هؤلاء غير قادرين على الاستمرار إلا إذا استندوا إلى الفرس . وهكذا استبد أبناء علي وولي أبو العباس الخلافة , يسيره الفرس , ويحكمون فعلياً باسمه , ويقضون ع لى المناوئين , وخاصة العلويين الذين تحولوا إلى المعارضة والمطالبة بالخلافة , فقضى الفرس على الكثيرين منهم , ولعل

أقسى مجزرة ما حدث في الموصل , فقد استباحها جيش من الفرس والزنج ثلاثة أيام, وقتل فيها نصف مليون عربي .

لما كان عهد أبي جعفر استبعد الفرس , فحاولوا اغتياله أكثر من مرة , ولم يفلحوا وأعدوا العدة للاستقلال بفارس , بقيادة أبي مسلم , فاحتال عليه أبو جعفر وقتله , والحادثة مشهورة في كتب التاريخ .

وقد اغتال الفرس الهادي والمهدي من بعد أبي جعفر , واستطاعوا السيطرة ثانية على السلطة إبان الفترة الأولى من عهد هارون الرشيد , الذي كان شبه معتقل في قصره, فقد وضعوا دونه الحجاب والحرس , إذا كان في القصر ألف جندي فارسي , بحجة حمايته وعشرون ألف في بغداد وقرابة نصف مليون جندي غير بعيد منها .

فلما حج الرشيد عاد إلى الرقة ليستقر فيها , ريثما أعد العدة للقضاء على البرامكة. ولكن الفرس سيطروا ثانية إذا دعموا المأمون ضد الأمين , وقد قتل في المعركة ولم يتخلص المأمون من سيطرتهم إلا بعد زمن , حين قضى على عدد من زعمائهم وبينهم و زيره الفضل بن سهل .

شاء المعتصم أن يخلص من هذا الصراع فاستعان بالترك , الذين جروا على الدولة مآسي لا تحصى بينها اغتيال المتوكل .

وانتهت هذه المرحلة بسيطرة البويهيين على الخلافة , عصر الدويلات , وظلت الحال كذلك حتى انهارت الخلافة العباسية نهائياً .

الفرس والشعوبية :

منذ عهد أبي جعفر اتضح الصراع : كان بين العرب والفرس , ولعل من أخطاء الحركة العلوية أنها كانت كلما أقصى الفرس عن الحكم , تعاونت معهم , فاستغلوها ليبلغوا مقاصدهم من السيطرة على الخلافة , ثم قضوا على زعمائها . وأوضح مثال على ذلك قتلهم زعماء الحركة الإسماعيلية , بعد أن كانوا من دعاماتها , ولم يهرب من زعمائها إلا ثلاثة , رحلوا متخفين , اثنان إلى اليمن, والثالث إلى المغرب , وقد أسس الدولة الفاطمية . قد يسأل سائل : (لم لم يتسلم الفرس الحكم

مباشرة ؟ لقد فكر بعضهم في ذلك , ولكن الغلبة كانت لرأي القائلين بالحكم من وراء ستار , خوف تأليب العرب عليهم .

ومنذ ذلك العهد دعيت الحركة الفارسية بالشعوبية , نسبة إلى زعمها أن العرب أدنى الشعوب حضارة ومعرفة .

قام للشعوب دعاة , لعل من أبرزهم ابن المقفع , كانت الحركة الفارسية تستقدم الأذكياء , وتعلمهم العربية ليثبتوا أنهم قادرون على التفوق على العرب في لغتهم ذاتها.

وطرح مفكروهم قضايا كثيرة , هدفوا منها إلى إلهاء المفكرين والشعب عن القضايا الأساسية , وأسهموا بذلك في زعزعة الركائز الفكرية والعقائد , فنجمت الفرق المتعددة , السياسية والدينية .

ولم يستثنوا الدين من خطتهم , فقد عملوا على خلق التشكيك , باسم حرية الرأي التي بلغت الأوج , تلك المرحلة .

وفطنوا إلى الخلق العربي , فجعلوه مجال جدل ليقضوا على الروابط الخلقية وزعزعة الشخصية العربية في بنيتها , واستقدموا بدعاً , من أسوئها الشذوذ ا لخلقي الذي انبثق منه الغزل المذكر . وإن يكن من أخذ به قلة .

لعل مما ساعد الفرس على بذر التفرقة وتشويه الخلق والشخصية , جو الترف الشامل , وخاصة في العاصمة مركز النشاط السياسي والفكري والاجتماعي والاقتصادي. فلقد تسلم العباسيون الحكم والدولة العربية تحكم معظم العالم المعروف حتىذلك العهد فتدفقت الأموال على مركز هذه البلاد الشاسعة , وأثرى الناس فانصرفوا إما إلى العلم , وإما إلى البذبخ والترف في الملبس والمأكل والشراب .

وابتنوا القصور , وأقاموا الحدائق حولها , واقتنوا الجواري والعبيد , وتفننوا في الطرب , وولعوا بالعزف , وتهادوا المغنيات والمغنيين , وأحلوا بعضهم مقام رفيعاً من مجالسهم وتبارى الأمراء والقادة في ذلك اللون من العيش , وجارى بعضهم بعضاً في اعتقال النفيس من التحف . وكان في مقدمة الباذخين البرامكة , فكانوا قدوة

يحذو حذورها الآخرون ؛ وانعكس أثر هذه الحياة على العامة , فصار بسطاء الحال يقلدونها, حتى كانت سبباً في فقر بعضهم .

الحريات :

وتمتع الناس بحرية مطلقة في الفكر والعيش , إلا من قيود ضرورية كانت المناقشات علنية حول الدين والخلق والمعارف , حتى صار المانوي يجادل المسلم في حلقات الدراسة , أو الجوامع , أو على صفحات الكتب , وبلغ من حرية الرأي أن تباينت الشروح التي وذعت للمبادئ الدينية تبايناً شديداً .

وغدت الخمر جزءاً أساسياً من مجالس الأمراء والقادة , يتغنى بها الشعراء , ويغني لها المغنون , ولكن بعض القيود ظلت تفرض على شرابها , وليس صحيحاً ما ورد في كتاب المرحوم الأستاذ رئيف خوري , وما أخذه عنه عدد من مؤلفي الكتب المدرسية , من قيام حانات عامة يرتادها الناس , وتغني فيها القينات , وترقص الراقصات ومن يرجع إلى شعر أبي نواس يدرك ما كان وصحبه يلقون في البحث عن خمارة سرية . وليس صحيحاً كذلك ما قيل عن هارون الرشيد وفسوقه وشرابه ومنادمته أبا نواس . ومن يرجع إلى ديوان أبي النواس , يدرك أنه لم يمدحه إلا نادراً وبرجاء من الأمين . وما قيل عنه , إن هو إلا إشاعات أطلقها الفرس لتشويه سمعته, واستند إليها كثيرون دون تمحيص .

التجارة :

بلغت التجارة , هذه المرحلة , مبلغاً عظيماً , وكانت البلاد العربية , مركزها , تتنقل القوافل والسفن من موانئها وحواضرها إلى كل أطراف العالم المعروف , وتعود إليها بنتائج تلك البلاد . وكان موانئ البصرة والخليج العربي , والمغرب والأندلس محط أنظار التجار قاطبة . وما ساعد على ازدهار التجارة أن العرب كانوا مسيطرين على البحار وطرق القوافل , وأنهم عملوا على حياتها بوسائل حديثة بالقياس إلى ذلك العصر.

الصناعة :

أما الصناعة التي كان ينظر إليها العرب قديماً نظرة احتقار , فقد أخذوا بها ونقلوا ما عرف قبلهم عن أخلاط المعادن , وحرفة النسيج , وصنع أدوات الحرب , ووسائل البناء وما إليها , فاتقنوا كل ذلك وطوروه وبرعوا فيه . ولعل تقدمهم في علم الكيمياء سهل عليهم ذلك , فهم أول من وضع علم الكيمياء في طريقه العلمية , إذ حولوه من معارف حول أخلاط المعادن , إلى علم معادلات ورموز .

الزراعة :

كذلك شأن الزراعة , فقد استصلح العرب الأرض وشقوا الترع , وفتحوا الأقنية وعنوا بالينابيع واستغلوا مياهها في الري , حتى تحولت بعض البوادي إلى جنات ورياض , فكثرت الغلال , وحملتها القوافل والسفن إلى أقاصي الأرض .

نشأت من هذا التطور طبقتان , تتميز إحداهما بالثراء الفاحش , والثانية بالعوز وقامت فئات عملية وخاصة في الموانئ , اعتمدت عليها بعض الحركات السياسية وخاصة القرامطة .

العلم :

ما لا ريب فيه أن تطور العلم ساعد على ذلك . نقل العرب عن غيرهم كل ما أثر من العلوم , في الطب والفلك والحساب والفيزياء والكيمياء , وما إليها , وأبدعوا علم الجبر , وخطوا للكيمياء طريقها العلمية , واستخدموا الصفر في الحساب فأحدثوا تطوراً ضخماً في هذا العلم . وطوروا العلوم جميعاً , وأقاموا لها المدارس , وافتتحوا المختبرات لكل طالب علم مجاناً , ووضعوا الكتب المطولة , حتى بلغوا في ذلك كله ما لم يبلغه أحد من قبل , والحق , أن الحضارة العربية آنذاك كانت الحضارة الوحيدة المزدهرة , بينما كانت شعوب أوربا عامة تعاني وضعاً بدائياً , وكانت الحضارات السابقة قد توقفت عن النمو منذ عهد بعيد , وتجمدت على معطيات معينة , نقلها العرب وأكملوها وتخطوها.

وافتتح بعض الخلفاء دوراً للترجمة , تعني بنقل تراث الشعوب وكانوا يبذلون للمترجمين المكافآت الضخمة , حتى قيل إن المأمون كان يمنح المترجم ثقل ما ترجم ذهباً.

وترجمت الفلسفة اليونانية , وصححت الترجمة أكثر من مرة , حتى استوفى العرب كل ما وضع الفلاسفة اليونان , وشرحوه ولكنهم لم يقفوا عند حدوده , فأبدعوا فلسفة عربية خاصة , قد تكون استقت بعض أصولها عن اليونان , أو تأثرت ببعض المعطيات الفلسفية الهندية , ولكنها غدت مستقلة بعد ذاك . وحالها حال الفلسفة في كل عصر , تأخذ عما سبقها , لتستقل بمعانيها وغاياتها .

أما الأخذ عن الفرس أو الهند أو غيرهم – عدا اليونان – فأمر مشكوك فيه . ذلك أن ما ترجم عن اليونان معروف حتى اليوم , وهو مذكور في الكتب والمخطوطات جميعاً ولم تشر المصادر جميعاً إلى ما أخذ عن غيرها , إلا النادر النادر , وخاصة عن الفرس , حتى كليلة ودمنة , غير منقولة , فقد وضعها ابن المقفع ونسبها إلى الهند لغايات سياسية , غير خافية , على من يبحث بحثاً واقعياً عن الأمر . ولو فرضنا أنها منقولة فهي هندية لا فارسية , حسب زعم ابن المقفع .

لا شك أن لاختلاط العرب بغيرهم من الشعوب أثر بالغاً ولكنه أثر لم تحمله الكتب , بل التفاعل غير المباشر . وإلا فليدلنا أخصام هذا الرأي على المؤلفات المنقولة .

ولم يعن العرب بنقل الشعر . كانوا يشعرون أن شعرهم أسمى من شعر الأعاجم , ولعل السبب أن الشعر المترجم يفقد الكثير من خواصه , فإذا قرؤوه وجدوه أضعف من الشعر العربي . وقد يكون احتفال الشعر الأعجمي , وخاصة اليوناني , بالأساطير الدينية سبباً في عدم نقله .

ولا بد من الإشارة إلى تعدد الفرق الكلامية والدينية . وقد بلغت اثنتين وسبعين فرقة – حسب بعض المصادر – وقد تأثرت هذه الفرق بعلوم العصر , والفلسفة واختلاط العرب بالأعاجم , وليس صحيحاً أن علم الكلام نشأ نتيجة

الترجمات , فقد بدأ بقيام فرقة الخوارج , وتكوين فرق للرد عليهم , كفرقة الحسن البصري , وتلميذه واصل بن عطاء , منشيء المعتزلة .

الأدب واللغة:

أثرت الأحداث السياسية والتطورات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعلمية على الأدب واللغة , فقد كان لاختلاط العرب بالأعاجم أثر سيء على اللغة إذ انتشر اللحن في الخواطر , مما حمل علماء اللغة على وضع التصانيف في القواعد , فنشأت مدرستان : البصرية والكوفية , تفرعت عنهما فروع كثيرة , خلفت مؤلفات في مناهجها لا حصر لها .

ووضعت المعاجم ليسترشد بها من شاء الإطلاع , ولتحصر الأخطاء ضمن حدود ضيقة , ولتحفظ أسس اللغات من التشويه والعبث .

ووضعت معظم شروح القرآن الكريم والحديث الشريف . ودونت الأشعار بعد أن ظلت طويلاً محمولة على ألسنة الرواة . بدأ التدوين أواخر العهد الأموي , ولكن نطاقه كان ضيقاً فغدا شاملاً في العصر العباسي .

وأخذ معظم المؤلفين والشعراء بالتعبير البسيط والألفاظ السهلة ذهاباً من المذهب القائل بضرورة تناسب اللغة والتعبير مع مقتضيات المجتمع ومتطلبات العصر . وذهب بعضهم إلى تعميم العلم نفسه , ووضعه في صيغ مبسطة , ليكون ملك العامة لا الخاصة الذين كانوا يلحدون على استبقاء العلم والفلسفة , في تعبيرها وصيغها على مستوى إدراك العلماء وحدهم . وقد ظهر أثر ذلك في فكر بعض الفلاسفة أنفسهم , الذين قالوا أن الحقائق الكبرى لا يرقى إليها فهم العامة , فإذا عرضت عليهم كفروا , وكفر عارضها .

واتخذت الطريقة الشامية طريقها إلى التعبير , حتى غدت أحد مرتكزاته الأساسية , وكانت من قبل لفتات عفوية , في الأدب الجاهلي والأموي . غير أن بعض الشعراء والكتاب جعلوها هدفاً , فإذا التكلف يشيع في نثرهم وشعرهم ,

وليس أدل على ذلك من مقامات الهمذاني التي حفلت بألوان البيان والبديع المقصودة المتكلفة .

وتطور النثر تطوراً كبيراًُ فبعد أن كاد يكون مقصوراً على الخطب والرسائل , مع ما فيها من قصر وإيجاز , غدا وسيلة للتعبير الأولي , لما اقتضاه انتشار العلم واتساع آفاق المعرفة , وتنوع أساليب الحياة . وازدهار الصناعة والتجارة والزراعة , فوضعت الكتب المطولة والتصانيف الضخمة , في اللغة , والأدب , والنقد , والفلسفة , والعلم , والدين .

ولعل من بين ما يعني طالب الأدب أن يعرف , أن دعائم النقد الأدبي وضعت في هذا العصر , فقد كثر النقاد بتنوع الأدب وأساليبه , وتعددت مذاهبهم , ولكنها يمكن إجمالها في مذهبين : تفضيل المعاني على المباني , أو تفضيل المباني على المعاني ,

بين النقاد : الجاحظ , ابن قتيبة , الآمدي , الجرجانيان , وابن سلام وغيرهم .

وظهرت القصة الأدبية والفلسفية , كليلة ودمنة , والبخلاء , ورسالة الغفران , وسلامان وأسال , ورسالة الطير , وحي بن يقظان , وظهرت كتب الأخبار العديدة , ككتاب الأغاني , وسير الأولين , وما إليها .

أما الشعر فظهرت حوله نزعتان ما لبثت إحداهما حتى أخلت مكانها نهائياً إلى الأخرى . وهما نزعة إبقاء القديم على قدمه , ونزعة التجديد .

تتلخص نزعة القديم بالتمسك بمذهب الشعر الجاهلي القائم على الوقوف على الأطلال وذكر الأحبة في مطالع القصائد , وتعدد الموضوعات , ووحدة البيت , والتعبير المباشر , المجرد عن جهد الخيال والصور الفنية , والواقعية ا لحسية المادية المطلقة , ثم الوزن الواحد , والقافية الواحدة , التي كانت ا لأساس في تكوين البيت , فإن ضعفت اعتبرت القصيدة كلها ضعيفة .

أما نزعة التجديد , فتقضي بالانصراف عن الوقوف على الأطلاق لأنه لم يعد يتناسب مع معطيات العصر , وهذا ما حدا بأبي نواس على التهجم المستمر على الأعاريب وهم سكان البادية لا العرب عامة , كما فسر بعضهم الكلمة خطأ ,

واستند إيها لتوكيد شعوبيته . لقد رأى أبو نواس والمجددون أن زمن النزول والارتحال مضى , وإذا كانت الحياة القبلية تفسح لظهور شعر الوقوف على الأطلال , فإن العصر الحضاري يرفضه ومع ذلك لم يسلم الشعر العباسي من مطالع وصفية أو غزلية لا تتصل بموضوعاته , وهذا كثير لدى معظم الشعراء , وهو يتنافى مع القول بعد تعدد الموضوعات , ووحدة القصيدة لا البيت , اللذين جرى عليهما معظم شعراء العصر . ولابد من الإشارة إلى أن وحدة القصيدة والموضوع عرفت لدى الغزلين من الأمويين , وخاصة عمر . وقد عني المجددون بالخيال الواقعي , ضمن حدود صياغة الصور لتجسيد الموصوفات ببعث الحياة والحركة في الجوامد والمعنويات, مما أتاح ظهور الطريقة الشامية على نطاق واسع . ولئن لم يبتعد الشعراء عن الواقعية , فإنها لم تعد حسية مادية .

ويجدر التنبيه إلى أن معظم الشعراء احتفظوا بمبدأ التوازن الواحد والقافية الواحدة . ولم يخالفه إلا شعراء الموشحات والأسماط . مع العلم أن الأسماط والطرديات عرفت قبل العصر العباسي .

ولقد زعم بعضهم أن التجديد ناشيء عن الحركة الشعوبية , وهو زعم مستغرب إذا عرفنا أن من أئمة المجددين أبا تمام والبحتري , وأنهما ركزا دعائم الطريقة الشامية فإليهما تنسب . والشاعران عربيا النزعة كما يؤكد شعرهما وحياتهما. كذلك من الداعين إلى التجديد الجاحظ , بل قال بالتعميم , وهو العربي الذي ناضل الشعوبية وكان أقسى خصومها , ثم إن التجديد من طبيعة التطور , يرافق دائماً كل تطور سياسي أو اجتماعي .

على أن أطرف ما يقرأ المرأ في هذا المجال ما زعم من أمر كلاسيكية الشعر الجاهلي والأموي , ورومانطيقية الشعر العباسي . يقول الزاعم : إن الأدب الجاهلي كلاسيكي لأنه منعكس عن بيئة تؤمن بالأصنام , شأنه شأن الأدب الإغريقي والروماني .

تبحث عن أثر الإيمان بالأصنام في الشعر الجاهلي فلا تجد له انعكاساً ما عدا بيتاً أو بيتين . بينما أدب الإغريق والرومان حافل بالأساطير الدينية , والاعتقاد بتعدد الآلهة . ولعل من المفيد ذكر علاقة الأصنام بالجاهليين .

كان الجاهليون إما مسيحيين أو يهوداً أو من أتباع دين إبراهيم الذين يحجون إلى الكعبة التي أنشأ , ويؤمنون بإله واحد . أما الأصنام فهي تماثيل لله , يتعبونه عبرها. ولذلك كانت أسماؤها المختلفة ترمز إلى معنى واحد هو الله . ولهذا جمعت الأصنام في الكعبة بعد قيام حلف قريش , وهناك هدمها النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وإليك بيتاً للنابغة يدل على صحة الرأي :

فلا وحق الذي مسحت كعبته وما هريق على الأنصاب من جسد

النابغة وثني , وقد قال مسحت كعبته – أي الله – ولم يقل مسحت كعبة الأصنام. أما إهراق الدماء فعلى أقدام الأصنام تقرباً لله .

وينسب الزاعم الأدب الأموي إلى الكلاسيكية لأنه جاري الجاهلي . أما العباسي فرومنطيقي لأنه أدب الإيمان . وتعجب لهذا القول ! أكان العباسيون أكثر إيماناً من أهل صدر الإسلام ؟ أم لم يؤثر إيمان هؤلاء في أدبهم ولم ينعكس عليه , وقد استمرت حقيبته أكثر من مائة وثلاثين عاماً ؟

يبدو أن الزاعم لا يدرك حقيقة معنى الكلاسيكية – وسيرد شرحها مع مسرحيات شوقي – ولا الرومنطيقية وسيرد شرحها مع الشعراء الرومنطيقيين .

الشعر العربي عامة , غنائي , ولم تظهر فيه بوادر غير غنائية , إلا في الربع الأول من القرن العشرين .

ضمن حدود الغنائية حدثت تطورات , تناولت الشكر وتنوع الموضوعات , وبعض المعاني , مما اقتضاه عصر الحضارة , ولئن اعتبر بعض النقاد الغربيين جوانب من الشعر العربي مقدمة للرومانطيقية مستندين إلى الصلات بين العرب والغرب عن طريق إسبانياً , فإن ثمة فروقاً كبرى بين الرومنطيقية الحقيقية , والشعر العباسي

والأندلسي. ولعل وجدانية الشعر العربي واتصاله بالطبيعية وما ظهر عليه من مسحة أسى , خاصة في الموشحات , قد جعلت بعضهم يظن أن ذلك يعني الرومنطيقية .

إن ذاتية الرومنطيقي ضد المجتمع , وهروب منه , مما لم يتوفر في الشعر العربي فالشاعر العربي مغرق في اجتماعياته رغم تعبيره عما في وجدانه من أحاسيس فثمة تواصل دائم بين ذاتية الشاعر ونظرته إلى المجتمع ؛ قد يرفض مساوئه ليصلحه , ولكنه لا يزدريه ويهرب منه . كذلك موقف المتنبي وابن الرومي وغيرهما . إنهم يشيرون إلى موطن الفساد , ولكنهم لا يقفون حياله موقف الرومنطيقي الذي يعتبر الإنسان قد فسد في أعماقه , نتيجة الاجتماع .

أما الطبيعية , فالعربي وصاف طبيعة منذ الجاهلية . إقرأ : " أصاح ترى برقاً.." لامرئ القيس . وقد يقوم تفاعل بين الشاعر والطبيعة , ولكن الانعكاس يظل ضمن الظواهر وعلى السطح وهذا موقف ابن الرومي وابن زيدون . هما يعيشان الطبيعة ويتأثرون بألونها وظلالها ويؤثران فيها , ويستعينان بها على تجسيد موصوفات أخرى ولكنها ليست ملجأ يهربان إليه من فساد المجتمع وحقارته , كما هي حال الرومنطيقي إنها لديه خلاص وطريق إلى اللـه وعودة على البراءة .

أما مسحه الأسي , فناجمة عن حب , أو شوق , أو حنين , أو فراق , وليست نابعة من الشعور أن كل ما يحيط بالمرء فاسد , ولا سبيل إلى الخلاص إلا باللجوء إلى الطبيعة واللـه , كحال الرومنطيقي . لقد دعيت هذه المسحة " بمرض العصر " إذا كانت شاملة في الأدب الرومنطيقي إبان نشوئه , مما لم يعرفه الأدب العربي .

أما الفكرة الدينية في الأدب الرومنطيقي , فقد فهمها الزاعم خطأ . فالنزعة الدينية تتلخص في الخلاص بالمسيح – وهي مبدأ مسيحي – نجد أثر ذلك في " الشهداء " لشاتوبريان , و" بول وفرجيني " لبرنارد دوسان بيير , والباب الضيق لأندرية جيد , ولم يعرف الأدب العربي ذلك , أما الصوفية فتختلف أصلاً عن هذا الاتجاه .

كذلك الخيال , إنه لدى الرومنطيقي , وسيلة خلاص , في توهم عوالم لا تتصل بالواقع , من مثل ذلك توهم فوزي المعلوف الانعتاق بالشعر ؛ أما خيال

العربي العباسي فظل في إطار إبداع الصور الفنية لتجسيد موصوفاته , أو مشاعره وأفكاره .

الحركة العلمية

أذكى الإسلام جذوة المعرفة فى نفوس العرب إذ دفعهم دفعاً قوياً إلى العلم والتعليم ، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العلوم اللغوية والدينية توضع أصولها ، وحتى أخذ العرب يلمون بما لدي الأمم المفتوحة من ثقافات متباينة ، وقد مضوا في هذا العصر يتقصونها وينقونها بكل مواردها إلى لغتهم ، ونهض التعليم حينئذ نهضة واسعة ، وعادة كأن الناشىء يبدأ بالتعليم فى الكتاتيب حيث يتعلم مبادئ القراءة والكتابة وبعض كان الناشئ يبدأ بالتعليم فى الكتاتيب حيث يتعلم مبادئ القراءة والكتابة وبعض سور القرآن الكريم وشيئا من الحساب وبعض الاشعار والامثال ، وكان بض معلمي هذه الكتاتيب يعلمون الناشئة أيضاً السنن والفرائض والنحو والعروض . وكانوا يؤثرون فى تعليم البنات تحفيظهن القرآن الكريم وخاصة سورة النور ويورد الجاحظ وابن قتيبة أسماء طائفة مشهور من معلمي الكتاتيب من مثل أبي البيداء الرياحي اللغوي ومحمد بن السكن المحدث وأبي عبد الرحمن السلمي المقري وأبى صالح الإخباري . وخص الحاجظ هؤلاء المعلمين برسالة ملأها بنوادرهم ، مما كان سبباً في أن تدور شخصية معلم الكتاب بين الشخصيات المضحكة فى الأدب العربي ، وممن كثر التندير عليه فى هذا العصر منهم علقمة ابن أبي علقمة النحوى الذي كان يتقعر فى كلامه مكثراً فيه من الغريب الشاذ وكان يعني فى مكتبة بتعليم الناشئة العربية والنحو والعروض ومات فى خلافة المنصور وقد ألف بعض الأدباء رسالة تجميع نوادره .

وكان للناشئة ألواح من الخشب العادي أو من الآبنوس يكتبون فيها دروسهم وكلما فرغوا من دروس محوه منها وأثبتوا مكانه درساً آخر . وكان معلموهم يؤدبونهم بالجلد والضرب والحبس ، وفي أخبار إبراهيم الموصلي أنه (أسلم إلى الكتاب فكان لا يتعلم شيئا ، وكان لا يزال يضرب ويحبس ولا ينجع ذلك فيه ،

فهرب إلى الموصل وهناك تعلم الغناء) ويذكر الجاحظ أنه كان لأعشى بنى سليم ابن رآه مسنا كان يدع الكتاب ويلعب بالكلاب ، فكتب أبوة إلى معلمه :

ترك الصلاة لأ كلب يلهو بها طلب الهراش مع الغواة الرجس فاذا خلوت فضعه بملامة أو عظة موعظة الأديب الأكيس وإذا هممت بضربة فبدوة وإذا ضربت بها ثلاثاً فاحبس وكان هؤلاء المعلمون يتقاضونمن الناشئة أجورا زهيدة ، لا تتجاوز أحيانا بعض رعفان من الخبز كانت تختلف أحجامها وأنواعها بأختلاف أحوال آبائهم غني وفقراً ، حتى لقد ضربت برغفان المعلم الأمثال على شدة الاختلاف والتفاوت .

وكان بجانب معلمي أولاد العامة فى الكتاتيب معلمون لأبناء الخاصة ، كان منهم اللغوي والإخبارى والفقية والمحدث والمقري ، وكانوا أحسن حالا من معلمي أبناء العامة ، على أن الجاحظ يقول فى جمهورهم : (يكون الرجل نحويا عروضيا وقساماً فرضيا وحسن الكتاب جيد الحساب حافظاً للقرآن رواية للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما) . وهذا إنما يصدق على من كان منهم يعلم أبناء الطبقة الوسطى ، وأما من كان يعلم أبناء الخلفاء والوزراء والبيت العباسي والقواد والسراة فقد كان تفرض لهم رواتب كبيرة ، جعلتهم يعيشون فى خفض من العيش وسعة من الرزق ، نذكر من بينهم المفضل الضبي معلم المهدي وله أختار مجموعته الشعرية الملقبة بالمفضليات ، والكسائي معلم الرشيد وأبنيه الأمين والمأمون ، وقطرب مؤدب الأمين وأبناء أبي دلف العجلي قائد المامون المشهور ، وعلى بن المبارك الأحمر أحد مؤدبي الأمين ويقال إنه أعطاة يوماً ثلاثمائة ألف درهم ، ومنهم اليزيدي يحيي بن المبارك مؤدب أبناء يزيد بن المنصور الحميرى خال المهدي ومن أجل ذلك لقب باليزيدي ، ومنهم الفراء معلم أبناء المأمون ، وأبو عبيد القاسم بن سلام مؤدب أبناء هرثمة قائد الرشيد والمأمون .

وامتازت فى هذا العصر البصرة بسوق باديتها المعرف باسم المربد ، وكان منهلاً لشباب البصرة يغدون علية ويرحون للقاء الفصحاء من الأعراب والتحديث أليهم تمريناً لألسنتهم وتربية لأذواقهم ومحاولة لاكتساب السليقة العربية المصفاة من شوائب العجمة وكانوا يكتبون ما يسمعونه منهم من طرائف الشعر ، على نحو ما

يحدثنا الرواة عن أبي نواس وأنه كان يغدو على المربد بألواحه للقاء الأعراب . وكان من شباب الشعراء من يرحل إلى البادية ليأخذ اللغة والشعر من ينابيعها الأصيلة على نحو ما هو معروف عن بشار . وكانت المساجد ساحات العلم الكبري ، فلم تكن بيوتاً للعبادة فحسب ، بل كانت أيضاً معاهد لتعليم الشباب حيث يتحلقون حول الأساتذة ، يكتبون ما يلقونه أو يملونه ، وكان الأستاذ يستند عادة إلى أسطوانة فى المسجد ، ثم يأخذ فى إلقاء محاضرته أو إملائها ، وفى الحلقات الكبيرة كان يردد مستمل كلامة حتي يسمعه ويكتبه البعيدون عنه فى الحلقة . وكان لكل فرع من المعرفة حلقته أو حلقاته الخاصة ، فلحقة لفقية وحلقة لمحدث وحلقة لقصاص أو لمفسر وحلقة للغوي وحلقة لنحوي وحلقة لمتكلم ، وكانت حلقة الفقهاء من أكبر الحلقات إذ كان يقصدهم طلابب الفقة ومن يريدون أن يتولوا منصب القضاء أو الحسبة ، وكذلك كانت حلقة المتكلمين لما يجري فيها من مناظرات ومحاورات بينهم أنفسهم وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل . وكان يتحلق كثيرون فى حلقات الغويين والنحاة ، ويقال انه كان يحضر حلقة ابن الأعرابي الكوفى زهاء مائة شخص، كثيراً ما كانت تدور فى تلك الحلقات هي الاخري مناظرات بين أصحابها على نحو ما يروي عن الاخفش من أنه تعرض للكسائي فى حلقة وسألة عن مائة ميألة محاوراً له ومناقشاً مناقشات مستفيضة. وكانت هناك حلقات للشعراء ينشدون فيها أشعارهم.

وهذه الحلقات الكثيرة التي لم يكن يشترط للحضور فيها أي شرط سوي الرغبة فى السماع والتي كانت مباحة لأي وارد كي يأخذ منها ما يريد من زاد المعرفة هيأت لظاهرتين كبيرتين ، وأما أولادهما فكثرة العلماء المتخصصين فى كل علم وفن ، حتي ليروى أن النضر بن شميل تلميذ الخليل بن احمد حين عزم على الخروج من البصرة إلى خراسان شيعه نحو ثلاثة ألاف شخص بين محدث ونحوي ولغوى وعروضى وأخبارى ، ولا بد أنه كان وراء هذا العدد الضخم كثيرون تخلفوا عن توديعه وتشييعه . وأذا كانت البصرة قد اشتملت عل هذا العدد الضخم كثيرون تخلفوا عن توديعة وتشييعه . وإذا كانت البصرة قد أشتملت على هذا العدد الفير من العلماء فإنه مما

لا شك فيه أن بغداد كانت تشمل منهم على أضعاف له مضاعفة وتلك هي الظاهرة الأولى ، أما الظاهرة الثانية فهى نشوء طائفة من العلماء والأدباء الذين نوعوا معارفهم تنويعاً واسعا إذ لم يكتفوا بالآختلاف إلى حلقة واحدة ، بل مضوا يختلفون إلى جميع الحلقات آخذين بطرف من كل لون من ألوان المعرفة حتى أصبحوا يشبهون الصحفيين المعاصرين الذين يستطيعون أن يتحدثوا حديثاً شائقاً فى كل صور المعرفة والثقافة . وكان يطلق على هذه الطائفة فى البصرة اسم المسجديين ، وكان لهم حلقات خاصة بهم فى المساجد ، يسوقون فيها فنوناً من الجدال والحوار فى أى شي يعن لهم ، وقد عرض الجاحظ في كتاب البخلاء صورة من جدالهم تنالوا فيها الاقتصاد فى النفقة والتمثير للمال . وكانت لهم سوق نافقة فى مجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم ، إذ كانوا يستطيعون أن يطرفوهم بالأحاديث الطلية ويرحوا عنهم فى ساعات صفوهم وغضبهم بما يوردون على سمعهم من طرائف الأخبار والمعارف . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن ظهور هذه الطائفة وما حظيت به فى المجتمع العباسي هو الذي حعل الجاحظ وغيرة يحولون كتبهم الأدبية إلى دوائر معارف واسعة، بل لقد استقر فى الأذهان أن الأدب هو الأخذ من كل علم وفن بطوف .

وإذا كان الخلفاء ووزراؤهم قد أغدقوا على هذه الطائفة كثيرا ، فإنهم لم يحرموا طائفة العلماء المتخصصين ، بل كثيراً ما كانوا يضفون عليهم عطاياهم الجزيلة، وجاراهم فى ذلك الولاة وكبار القواد ، وكان أول من سن ذلك وجعله تقليداً للدولة المهدي . فإنه أكثر من مكافآته للعلماء كثرة جعلتهم يشدون إلية الرجال من كل بلدة ، واحتذاه فى ذلك ابنه الرشيد ، ريقال أنه وصل الأصمعي يوماً بمائة ألف درهم وكان من الحظوظين لدي البرامكة ، ويروى أن جعفراً البرمكي وصله بخمسمائة ألف . وكان المأمون سحابة منهاة على العلماء والمتكلمين ، وقد أعطي النضر بن شميل وهو لا يزال أميراً بمرو خمسين ألف درهم . ويروي أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وولية على خراسان وصل أبا عبيد القاسم بن سلام بألف دينار ثم عاد فوثله بثلاثين ألفا ، وأجري عليه أبنه عبد اللــه عشرة آلاف درهم فى كل شهر.

وليس من شك فى أن هذا الصنيع كان من أهم الأسباب في اذدهار الحركة العملية بالمساجد ، إذ كان من يبزغ نجمه فى حلقاتها لا يلبث أن يستدعى إلى دار الخلافة أو دار الولاية أو دور الوزراء ، فاذا العطايا تسبغ عليه وإذا الرواتب تفرض له شهرياً . وحقا كان بين علماء الفقة والحديث من لا يبغون بعلمهم وتعليمهم سوى الثواب من اللــه ، ولعله من أجل ذلك شاع بينهم التكسب من الحرف أو التجارة كأبي حنيفة وكان بزازا ، غير أن الكثرة وخاصة من علماء اللغة وأصحاب العلوم الدنيوية كانوا يتخذون علمهم حرفة لهم ومتجراً ، بل لقد كان متجراً رابحا .

وكان من أهم الأسباب فى بلوغ الحركة العلمية غايتها من النهضة الواسعة استخدام الورق ، إذ أخذ يعم منذ مفتتح هذا العصر وكانوا قبل ذلك يكتبون فى الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردي . لم يلبث الفضل بن يحيي البرمكي أن أنشأ فى عهد الرشيد مصنعاً ببغداد للورق ، ففشت الكتابة فيه لخلقه وغلبت على الكتابة فى الجلود والقراطيس . وكان الإملاء حينئذ أعلى مراتب التعليم ولكن لم تليث أن ظهرت المصنفات الكثيرة واحتيج معها إلى النسخ ، فاتسعت صنعة الوراقة ، وهى تحل فى هذا العصر محل الطباعة فى عصرنا الحديث ، وقد مضى العلماء حينئذ يفيدون منها ، فاتخذوا لأنفسهم وراقين ينتقلون عنهم كتبهم ويذيعونها فى الناس مثل دماذ أبي غسان وراق أبي عبيدة . وكان مما دفع لرواج الوراقة تنافس كثيرين على اقتناء الكتب واتخاذ المكتبات ، وقد أقامت الدولة منذ عصر الرشيد مكتبة ضخمة هي دار الحكمة وعنيت فيها أشد العناية بالكتب المترجمة التي تحمل كنوز الثقافات الأجنبية ، ولا ريب فى أن هذه المكتبة كانت جامعة كبري لطلاب العلم والمعرفة .

وقد أخذ كثيرون من الافراد يعنون باقتناء المكتبات ، وكانوا يوظفون فيها يعض الوراقين للنسخ ، من ذلك مكتبة إسحق بن سليمان العباسي وكانت تمتلئ بالكتب والأسفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطير والمحابر . وأضخم منها وأعظم مكتبة يحيى بن خالد البرمكي ويقال إنه لم يكن فى مكتبته كتاب إلا وله ثلاث نسخ ، وربما فاق هذه المكتبة عظماً وضخماً مكتبة الواقدى المؤرخ المشهور المتوفي سنه

207 وكانت تشمل على سمائة صندوق مملوءة بالكتب وكان له مملو كان يكتبان له ليلاً ونهاراً .

ولعل فى ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن الكتب أصبحت مادة أساسية للمعرفة ،أذ كانت تسجل أمهات العلم وأصوله بما لعله يفضل تلقية وأخذه عن العلماء ، وفى ذلك يقول الجاحظ : (وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يعد فقيها ولا يجعل قاضيا فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ويحفظ كتاب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال وبالحري أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكما (قاضيا) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان)

ولم تكن الكتب تعد لهذا التحصيل السريع فى الفقة وحده ، بل كانت تعد لذلك فى جميع فروع العلم والمعرفة ، فطبيعي أن يقبل عليها الناس إقبالا شديداً لما تجمع لهم فى كل فن وكل علم من مادته الغريزة المنظمة المرتبة ، بل لقد أصبحت الأداة العلمية التى تسوق لهم المعرفة وألوان الثقافة سوقاً وهم يكبون على هذه الداة أو هذه الوسيلة السهلة منفقين عليها كل ما يستطيعون من أموال مؤمنين بأن (من لم تكن نفقته التي تخرج فى الكتب ألذ عنده من أنفاق عشاق القيان والمستهترين بالبنيان لم يبلغ فى العلم مبلغاً رضياً ، وليس ينتفع بإنفاقة حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله)

وأنشأ بعض الوراقين لهم دكاكين كبيرة ملئوها بالكتب يتجرون فيها ، وكان بعض الشباب يغدو إلى هذه الدكاكين لا ليشتري منها فحسب ، بل ليقرأ فيها ما لذ وطاب من صنوف الأداب نظير أجر بسيط يتقاضاه منه صاحبها . وبلغ من عناية الوراقين بعملهم أن موه بعضهم خطواطه بالذهب ، ويذكر الجاحظ أن الزنادقة كانوا يتأنقون فى كتبهم تأنقا شديداً وكان بعض السراة يطلب هذه الأناقة المسرفة حتى فى كتب الهزل والفكاهة.

ولم تكن الكتب والمساجد كل ما هيأ لاذدهار الحركة العلمية حينئذ ، فقد هيأ لها أيضاً مجالس الخلفاء والوزراء والسراة ، أذ تحولوا بها إلى ما يشبه ندوات علمية

يتناظر فيها العلماء من كل صنف ، على نحو ما يروى من مناظرة الكساني الكوفى واليزيدي البصرى بين يدي المهدي وما يروي من مناظرة الكسائي وسيبويه بين الرشيد أو بين يدي يحيي بن خالد البرمكي ندوات كبيرة للمتكلمين والمتفلسفين من كل نحلة يتجادلون فيها ويتحاورون فى كل ما يعرض لهم من مسائل ، وفى ذلك يقول المسعودي : (كان يحيي بن خالد البرمكي ذا بحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من اهل النحل فقال لهم يحي وقد اجتمعوا عنده : قد أكثرتم الكلام في الكمون والظهور والقدم والحدوث والأثبات والنفى والحركة والسكون والممارسة والميادينه والوجود والعدم والجواهر والطفرة والجسام والاعراض والتعديل والتجويد والكمية والكيف والمضاف والإمامة أنص هى أم اختيار وسائر ما توردونه من الكلام فى الأصول والفروع فقالوا الآن فى العشق على غير منازعة ، وليورد كل منكم ما سنح له فيه وخطر بباله) ويورد المسعودي أطرافاً من كلامهم وحوارهم فى العشق تصور كيف كانوا يفرعون الأفكار ويستنبطونها ويشعبونها فى الموضوعات المختلفة التى كانت تمس مسائل الفلسفة وعلم الكلام ومذاهب الشيعة والسنة فى الامامة .

وكان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدال والناظرة ، وكان مثقفاً ثقافة واسعة عميقة بالعلوم الدينية واللغوية وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، فمضى يحول مجالسة فى دار الخلافة بغداد إلى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة وفى ذلك يقول يحيي بن أكثم : (أمرني المأمون أن جمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسال عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم) ويمضى ابن أكثم فيقول : أنه لما انتهى ذلك المجلس طلب إلى المامون أن أنوع مجالسه بحيث تكون لكل طائفة من العلماء مجلس .

ويعرض طيفور فى كتابه بغداد كثيراً من هذه المجالس وما طرح فيها من موضوعات مختلفة للجدل والمناظرة . ويصور المسعودي ما عاد على الحركة العلمية من هذه الندوات التي غدت كانها مجمع علمي كبير ، فيقول : (قرب المأمون إليه كثيراً من الجدليين والنظارين كابي الهديل العلاف وأبي إسحق إبراهيم بن سيار

النظام وغيرهما ممن وافقهما وخالفهما (يريد من المعتزلة وغيرهم) وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الادباء وأقدمهم من الامصار وأجري عليهم الأرزاق (الرواتب) فرغب الناس فى صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ، ووضع كل فريق منهم كتبا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله) .

وقد كفلت الحرية العقلية فى هذا المجلس أو هذا المجمع إلى أبعد غاية ممكنة ، بحيث كان كل رأي يعرض للمناقشة العقلية الخالصة حتى آراء الزنادقة .

ومما لاشك فيه أن المجتمع كان يرتبط حينئذ بالإسلام ارتباطاً وثيقا فى جميع شئونه الروحية والاجتماعية ، ولكن كأنما أصبح سلطان العقول فى هذا العصر ، فإذا كل شئ يناقش فى حرية ، وأذا كل شيء يعرض على بساط البحث والجدل .

وكان وراء المجلس الكبير يحيي بن خالد البرمكي مجالس صغري ما يزال يجتمع فيها العلماء ويتجادلون ويتناظرون ، ومن ذلك مجلس أيوب بن جعفر ابن أبي جعفر المنصور ، وقد اجتمع فيه يوماً النظام وأبو شمر المتكلم ، وكانت فى أبي جعفر المنصور ، وقد اجتمع فية اجتمع فيه يوماً النظام وأبو شمر المتكلم ، وكانت فى أبي شمر رزانه لا يحرك يدية ولا منكبيه إذا جادل أو ناظر ، فاضطره النظام بما أورد علية من الحجج وأثقل علية من البلاهين فى مسألة ناظره فيها ان يحرك يدية أون يحبو إلية حبوا يريد أن يسكته بيده بعد أن أعجزه أن يسكته بالأدلة العقلية ، ومن ذلك مجلس أزدي بالبصرة وفية يقول صاحب الاغاني : (كان بالبصرة سته من أصحاب الكلام: عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشار الاعمي وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبي العوجاء ورجل من الأزد ، فكانوا يجتمعون فى مجلس الأزدي ويختصمون عنده) ويتحدث صاحب النجوم الزهرة عن مجلس آخر فى نفس البلدة ، فيقول : (كان يجتمع بالبصرة عشرة فى مجلس لا يعرف مثلهم : الخليل بن أحمد صاحب العروض سنى ، والسيد ابن محمد الحميرى الشاعر رافضى وصالح بن عبد القدوس ثنوي ، وسفيان بن مجاشع صفري ، ويشار بن برد خليع ماجن ، وحماد عجرد زنديق ، وابن رأس الجالوت الشاعر يهودي ، وابن نظير النصراني متكلم ،

وعمرو بن أخت الموبذ مجوسى ، وابن سنان الحراني الشاعر صابئي ، فتتناشد الجماعة أشعار وأخباراً)

وواضح من هذين النصين كيف كان يلتقى أصحاب الملل والنحل والأهواء المختلفة فى المجالس ، وكيف يثيرون كثيراً من المسائل التي تتصل بأهوائهم ونحلهم ومللهم ويتحاورون فيها حواراً طويلا . وكانت هناك مجالس أخري للمتفلسفة والمتكلمين ، ويقال إن مجلس يوحنا بن ماسويه (كان أعمر مجلس ببغداد لمتطبب أو متكلم أو متفلسف إذ كان يجتمع فية كل صنف من أصناف اهل الادب وكان تلاميذة يقرءون علية فى هذا المجلس كتب المنطق لأرسطاليس وكتب جالينوس فى الطب . وعلى شاكلة مجلسة مجلس حنين بن اسحق ، ويقال إن المأمون رسم له على كتاب ينقلة إلى العربية أن يأخذ وزنه ذهبا . وكانت لابن أبي دؤاد المعتتزلى مستشار المأمون والمعتصم والواثق ندوة كبيرة يحضرها من كبار المترجمين والأطباء سلمويه وابن ماسوية وبختيشوع بن جبريل .

ويخيل إى الانسان كأنما كانت أزواد المعرفة والثقافة ملقاة فى كل مكان بأمصار العراق وهى حقا كانت مطروحة فى الطرقات معرضة لكل الأيدي ، فأبواب المساجد مفتوحة على مصاريعها لكل الواردين ومثلها دكاكين الوراقين ولا مصاريف تطلب للتعليم ، والتعليم مجانا من حق الجميع . وكان لذلك آثار بعيدة ، فان جمهور العلماء والشعراء لهذا العصر كانوا من أبناء العامة ، ويكفى أن نعرف ان أعلام الشعر حينئذ وهو بشار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام كانوا جميعا من الطبقة الدنيا فى الشعب فبشار كان أبوه طيانا يضرب اللبن ، وابو نواس كانت أمه غازلة للصوف ومن هذا الغزل كانت تعولة ، وأبوه عطاراً أو خماراً ، ومن ورائهم من الشعراءكان جمهورهم من أبناء العامة ، وكذلك كان العلماء فى جميع فروع العلم ، بل كان منهم من يجمع بين علمه وحرفته التي نشأ فيها مثل أبي أحمد التمار وشعيب القلال الذي كان يصنع فعلا القلال، وهما من المتكلمين .

وأبعد من ذلك وأعمق أن بين أيدينا من النصوص ما يدل على أن أكثر العامة كانوا يصيبون حظوظاً مختلفة من الثقافة ، أذ لم يكن بينهم وبينها أي حاجب ولا أى

حاجز ، بل لقد كانوا يروحون ويغدون عليها فى المساجد ودكاكين الوراقين ، فنهل كل ملا نزع الية من ينابيع المعرفة ومن خير ما يصور ذلك أن نري الجاحظ يقول : (سألت بعض العطارين من أصحابنا المعتزلة) وكأن العطارين كانوا أقساماً منهم من يتبع المعتزلة ومنهم من يتبع غيرهم ولا بد أن كان مثلهم بقية التجار وأصحاب الحرف ، فهم يناصرون هذا المذهب أو ذاك ، وهم يناصرون هذا الأستاذ أتباعة لا من أوساط المثقفين فحسب ، بل من العامة أيضاً ، وبذلك نفهم قول صاحب النجوم الزهراء عن نظام ونشاطة فى الدعوة للآرائه الاعتزالية ببغداد إذ يقول : (وفى سنه 220 ظهر إبراهيم النظام وقرر مذهب الفلاسفة وتكلم فى القدر ، فتبعه خلق) . ونري الجاحظ فى رسالته (الرد على النصاري) ينكر العامة تعرضهم لمناقشة الملحدين فى آرائهم الفاسدة لعدم إحاطتهم الدقيقة بتلك الأراء وما ينقضها نقضاً من الادلة ، ويقول : (ومن البلاء أن كل أنسان من المسلمين يري أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد) ويهمنا ما تدل عليه شكواه من أن كل مسلم لعصرة أصاب حظاً من طريق المتكلمين فى حجاج أصحاب الملل والنحل الفاسدة ، وبالمثل كانت العامة تصيب حظوظاً من الثقافة فى جميع الأوساط حتى فى أوساط العامة والأدباء كان جمهورها من أبناء هؤلاء العامة قادت الحركتين العلمية والأدبية قيادة خصبة باهرة ، إذ استطاعت أن تسيغ كل ما نقل إلى العربية من ثقافات متبانية وأن تضيف إليها من عقولها وقلوبها ما دعم حضارتنا العربية دعماً ، وبما أحدثوا من علوم وبما كتبوا من آثار عقلية رائعة وآيات شعرية خالدة .

علوم الأوائل : نقل ومشاركة

كان من أهم الأسباب التى دفعت إلى ازدهار الحركتين العلمية والادبية لهذا العصر الاتصال الحصب المثمر بين الثقافة العربية الخالصة وبين ثقافات الأمم المغلوبة المستعربة وما طوي فيها من معارف وعلوم وكأن هذا الاتصال يأخذ منذ عصر بنى أمية طريقين : طريق المشافهة مع المستعمرين وطريق النقل والترجمة وقد ظل الطريق الثاني ضيقاً زمن الأمويين ، إذ لا يعدو ما يذكر من أنه ترجمت لخالد بن يزيد بن معاوية بعض كتب في الصنعة والطب والنجوم وأن عمر بن عبد العزيز أمر بترجمة

كتيب فى الطب لأهرن بن أعين وأن كتاباً فى تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية ترجم لهشام بـن عبـد الملك . وقد مضت بيئات المستعمرين العلمية تمارس نشاطها حينئذ ، وكانت تمثلها الأديرة وما بها مـن حلقات علمية من المدارس متنـاثرة في جنديـسا بـور القريبـة مـن البـصرة وفى نـصيبين وحـران والرهـا وأنطاكية والإسكندرية ، وكانت تغلب عليها جميعاً الثقافة اليونانية ، وكـما كـان يغلـب عليهـا جميعـاً الثقافة اليونانية ، كما كان يغلب عليها السريان المسيحيين ، وكانوا قد نشطوا منذ القرن الرابع الميلادي فى ترجمة الاثار اليونانية ، واستمر نشاطهم في هذه الترجمة محتدما حتى القرن التاسـع ، ومـن أشـهر مترجميهم قبل الإسلام يوحنا فيلوبونس الإسكندري المعروف باسم يحيي النحوي وكان يعيش فى القرن السادس الميلادي ونقل عن اليونانية كتباً كثيرة في المنطق والطب والطبيعيات . ومن أبرزهم فى العـصر الأموي سويرس سيبوخت أسقف دير قنسرين ويعقوب الرهاوى ، وله مصنف مهم فى النحو السرياني .

وكان لمن خلفوهم فى العصر العباسي اليـد الطـولى فى ترجمـة المـصنفات اليونانيـة مـن لغتهـا الأصلية التي كان كثير منهم يحذقها ومن لغتهم السرسانية إلى اللغة العربية . وكان من أهم مراكـزهم مدرسة جنديسابور القريبـة مـن البـصرة ، ولعلهـا لـذلك سـبقت الكوفـة فى التعريـف عـلى الفلـسفة اليونانية . وكان كثير من مصنفات اليونانين قد ترجم إلى الفارسـية ، فـأدلي الفـرس بـدلوهم لا فى نقـل ثقافتهم فحسب ، بل أيضاً فى نقل بعض الآثار اليونانية على نحو ما هو معروف من نقـل ابـن المقفـع لمنطق أرسطو ، وقد نقل ثقافتهم فحسب بل ايـضاً فى نقـل بعـض الاثـار اليونانيـة عـلى نحـو مـا هـو معروف من نقل ابن المقفع لمنطق انطق ارسطو ، وقد نقل كلية ودمنـة الهنـدي الأصـل إلى العربيـة ، وفى ذلك إشارة إلى ما كان فى الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية ، وفى ذلك إشـارة إلى ما كان فى الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية بواسـطة نقلـتهم وسـنري عـما قليـل أن قوماً من مستعربى الهند شاركوا فى هذا النقل .

ونري الخلفاء العباسين منذ فاتحة العصر يعنون بهذا النقل عناية شديدة وينفقون علية الأموال الطائلة وكأنهم لا يريدون به أن يقف عند حد أو عند غاية ، يتقدمهم فى ذلك المنصور وفية يقول المسعودي : (كان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكأن معه نوبخت المجوسي وأسلم على يديه – وهو أبو هؤلاء النوبخيتة – وأبراهيم الفزازي المنجم وعلى بن عيسى الإسطر لإبي المنجم وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية ومنها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند وترجمت له كتب أرسطاليس من المنطقيات وغيرها ، وترجم كتاب المحبسي لبطليموس من المنطقيات وغيرها وترجم له كتاب المحبسطي لبطليموس وكتاب الأرثماطيقي وكتاب أقليدس .

واهتمام المنصور بالتنجيم يقترن بنوبخت الفارسي ويظهر أنه كان منجماً كبيراً ،أذ ينسب له وضع بعض الجداول الفلكية ، وكذلك كان صاحباه ولثانيهما وهو على بن عيسى رسالة فى الاسطرلاب – وهو آلة فلكية لرصد الكواكب – وقد نشرها لويس شيخو ولم يكتف المنصور بما كان عند الفرس من علم الفلك والتنجيم ، فقل نقل له كتاب السند هند وكتاب المحبسطى اليونانى لبطليموس وهما فى علم الهيئة والنجوم وحركات الأفلاك والكواكب . ومعنى ذلك أن العرب أستمدوا فى هذا العلم من الفرس والهند واليونان ولا بد أنهم استمدوا فيه أيضا من الصابئة ورثة الكلدانيين فى الفلك والتنجيم .

وصور نالينو أثر كتاب السند هند فى علم الفلك العربي وكيف وصل إلى العرب ونتقل إلى العربية فقال : إن وفداً من الهند وفد على أبي جعفر المنصور سنة 154 وفيهم رجل ماهر فى المعرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته وخصوصا على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه (بسراهمسبهطسد هانت) ألفة سنه 628م أو 6 ، 7 هـ الفلكي الرياضي (برهمكبت) فكلف المنصور ذلك الهندي باملاء مختصر الكتاب ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية وبأستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلا فى حساب حركات الكواكب وما يتعلق به الأعمال . وتولى ذلك الفزازى وعمل منه زيحا أشتهر بين علماء العرب على الجزء

الأخير من اسم الكتاب السابق وهو (سد هانت) ثم حرفوه قليلا وسموه السند هند)

ويذكر نالينو ممن أخذوا عن هذا العالم الهندي يعقوب بن طارق وكان رياضياً ممتازا وله مؤلفات قيمة فى الفلك .

ويذكر المسعودي أنه ترجم للمنصور بجانب المحبسطي كتب أرسطاليس من المنطقيات وغيرها وكتاب الأرثماطيقى فى الحساب وكتاب أقليدس وهو فى علم الأشكال الهندسية أمهاتها ومركباتها ، وجميع تلك الكتب يونانية . ولم يذكر المسعودي عناية المنصور بنقل الكتب يونانية . ولم يذكر المسعودي عناية المنصور بنقل الكتب الطبية إلى العربية ، ومعروف أنه استدعي فى سنة 148 للهجرة جورجيس بن جبريل بن بختيشوع كبير الأطباء فى بمارستان جنديسابور ورئيس مدرسته ليكون بجانبه وقد نقل كتباً كثيرة من اليونانية إلى العربية وأغلب الظن أنها كانت فى جمهورها كتبا طبية . وكان جورجيس من السريان النساطرة ، وتعاقبت من بعده أجيال من أبنائة وأحفاده تخدم الطب والترجمة . وممن لمع اسمهم لعهد المنصور فى ترجمة كتب الطب اليوناني أبو يحيي البطريق المتوفى سنه 180 إذ عني بنقل طائفة من كتب أبقراط وجالينوس .

وتنشيط الترجمة فى عصر الرشيد ووزرائه البرامكة نشاطاً واسعاً ، وكان مما اذكي جدوتها حينئذ إنشاء دار الحكمة أو خزانة الحكمة وتوظيف طائفة كبيرة من المترجمين بها وجلب الكتب إليها من بلاد الروم ، وكان يقوم على هذا العمل الضخم يوحنا بن ماسوية وكان طبيباً نسطوريا من مدرسة حنديسابور ، وفيه يقول ابنم جلجل : قلدة الرشيد ترجمة الكتب القديمة الطبية ، مما وجد بأنقرة وعمورية و ببلاد الروم حين سباها المسلمون ، وضعة أميناً على الترجمة ، ووضع له كتابا حذاقا يكتبون بين يديه) وقد عاش ابم ماسويه طويلا إذ توفى سنة 243 وله مؤلفات كثيرة فى الطب الرشيد إذ تضاف إلية كتب مختلفة فى الطب وكتاب المدخل إلى صناعة المنطق.

وللبرامكة فضل عظيم فى اذكاء الترجمة حينئذ ، فقد شجعوا بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية واليونانية والفارسية والهندية ، من

ذلك طلب يحيي بن خالد بكتاب المبسطى لبطليموس ، فقد ندب له أبا حسان وسلماً صاحب بيت الحكمة ، فاتقناه واجتهدا فى تصحيحه بعد أن أحضر النقلة المحودين ، فاختبرا نقلهم وأخذ بأفصحه وأصحه . وقد عنوا عناية واسعة بترجمة التراث الفارسى ونري جيلاً كبيراً ينهض فى عصرهم والعصر الذي تلاهم بهذه الترجمة نذكر من بينهم آل نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذي أكثر من ترجمة كتب الفلك ، وآل نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذي أكثر من ترجمة كتب الفلك ، ,آل سهل وعلى نحو ما صنع يحيي بن خالد بكتاب المحبسطي لبطليموس فقد ندب له أبا حسان وسلماً صاحب بيت الحكمة ، فاتقناه واجتهدوا فى تصحيحه بعد أن أحضر النقلة المجودين ، فاختبرا نقلهم وأخذ بأفصحه وأصحه . قد عنوا عناية واسعة بترجمة التراث الفارسي ونري جيلا كبيرا ينهض فى عصرهم والعصر الذي تلاهم بهذه الترجمة نذكر من بينهم آل نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذي أكثر من ترجمة كتب الفلك، وآل سهل وعلى رأسهم الفضل وكان يترجم للمأمون فى حداثته بعض الكتب الفارسية ويعجب بترجمته . ومن أبرز المترجمين للتراث الفارسي حينئذ محمد بن جهم البرمكى وزادويه بن شاهويه وبهرام بن مردانشاه وموسي بن عيسى الكسروى وعم بن الفرخان وسلم صاحب خزانة الحكمة ويسهل بن هرون أحد خزنتها المشهورين . ومن أنفس ما نقلوه أمثال خرد فى صنوف الأداب ومكارم الأخلاق وكتاب هزار أفسانه وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة . وقد نقل أبان بن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة إلى الشعر وأهداه إلى جعفر بن يحيي البرمكى ، ويقال إنه نظمة فى أربعة عشر ألف بيت ، وأيضاً فإنه نقل إلى الشعر العربي سيرة وأردشير وسيرة أنو شروان . وعلى نحو ما دفع البرامكة إلى ترجمته التراث الفارسي واليوناني دفعوا أيضاً إلى الانتفاع بالتراث الهندي وترجمته ، يقول الجاحظ : (اجتلب يحيي بن خالد البرمكى أطباء الهند فى نقل بعض الكنوز الهند مثل منكة وبازيكر وقلبرقل وسندباذ وفلان وفلان) وقد عملوا فى البمارستان الكبير ببغداد وسرعان ما استعربوا وشاركواهم وغيرهم من مستعربة الهند فى نقل بعض الكنوز الهندية وخاصة فى الطب والعقاقير وشمل نقلهم السندباد وكتباً كثيرة فى الخرافات والأسمار مما تولع بع العامة .

وتبلغ هذه الموجة الحاة للترجمة أبعد غايتها فى عهد المأمون على ملك الروم كتب إلية بسأله الإذن فى أنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فاخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه إلية أمرهم بنقله ، فنقل ، وقد قيل أن يوحنا بن ماسوية ممن نفذ إلى بلد الروم) ويقول ابن نباته فى ترجمته لسهل بن هرون : (جعله المأمون كاتباً على خزائن الحكمة وهى كتب الفلاسفة التى نقلت للمأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المامون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إلية يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر علية أحد ، فأرسلها إلية ، واغتبط بها المأمون ، جعل سهل بن هرون جازنا لها

ونحن نقف قليلا عند هؤلاء المترجمين بتلك المؤسسة الكبيرة ، وأولهم الحجاج ابن مطر وقد اشتهر بتحريره لكتاب الأصول فى الهندسة لأوقليدس وكتاب المحبسطى لبطليموس . وأما يحيي بن البطريق فكان يجيد اللاتينية واليونانية جميعاً وقد ترجم لأفلاطون قصة طماوس وترجم لأرسططاليس مختصراً فى النفس وكتبه فى الآثار العلوية وفى الحيوان وفى العالم وكتاب أرسطو إلى الإسكندر المعروف باسم سر الاسرار وهو مما نحل على أرسطو ويشتمل على مزيج من القصص وبعض القواعد الاساسية وفى الصحة والتغذية وترجم أيضا كتاب الترياق لجالينوس . وقد مضى التعريف بيوحنا بن ماسويه ، أما سلم وسهل بن هرون فلم يكونا ممن ينقلبون عن اليونانية ، وأنما كانا ممن يراجعان النقل عنها وينقحان فيه وهما من أنبه المترجمين عن الفارسية كما أسلفنا . وممن أخذ اسمه يلمع منذ عهد المأمون فى الترجمة حنين بن أسحق ، وكان دقيقا فى ترجمته حتى قالوا إن المأمون رسم له أن يأخذ وزن ما يترجمه ذهباً وقد عاش إلية سنه 264 ومكانه لذلك كتاب العصر العباسي الثاني .

ومن كبار المترجمين سوي من سميناهم عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصى المتوفى حول سنة 220 للهجرة وقد أشتهر بترجمتة لكتاب الاغاليط لأرسطاليس وشرح يحيى النحوي (يوحنا فيلوبونوس) على كتاب السماع

الطبيعى له أيضاً . وترجم كتاباً نسب إلية خطأ وهو كتاب الربوبية أو أوثولوجيا أرسطو ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلاطون الإسكندي المتوفى سنه 270 للميلاد ومن أجل ذلك يفيض الكتاب بنزعة أفلاطونية محدثة قوية .

وقد جعل المأمون الإشراف على مرصدة الكبير لحيي بن أبي منصور وألحق به طائفة من نايهي الفلكيين مثل على بن عيسى الاسطولابي ومحمد بن موسي الخوارزمى والعباس بن سعيد الجوهرى . ولم يلبث هذا المرصد أن تحول إلى المدرسة رياضية فلكية كبيرة تخرج فيها غير فلكي مثل بنى موسى بن شاكر . وقد أفادت هذه المدرسة من الابحاث الفلكية الرياضية والجغرافية التى سبقها إليها الهنود والفرس واليونان وأضافت إلى ذلك إضافات جديدة باهرة ، وإذ وضعت لحركات الأفلاك زيجات وجداول أكثر دقة مما كان لدى الأقدمين وأدخلت تحسينات على خريطة بطليموس ، وأستطاعت أن تقيس درجتين من درجات محيط الأرض على أساس كروبتها ، وإلى مباحث فلكية وجغرافية ورياضية كثيرة .

ومحمد بن موسي الخوارزمى هو أكبر العلماء الرياضيين والفلكيين الذين قاموا على أبحاث هذا المرصد ، وهو يعد بحق منشى عثر جديد فى التاريخ العالمي للرياضيات إذ اكتشف علم الجبر وقواعدة وأعطاه اسمه الذى شاع من بعده فى العالم كله ، وقد أضاف إلية أبحاثاً مبتكرة فى أرقام الحساب الهندية وفى حساب المثلثات وفى الجغرافية وفى الأزياج أو الجداول الفلكية ، يقول ألدومبيلى: (وله فى هذا المجال اعظم تاثير أولا فى المجال أعظم تأثير ، أولاً فى الشعوب الإسلامية ثم بعد ذلك فى الشعوب الغربية المسيحية وحسابة المفقود نصه العربي مع وجود ترجمة لاتينية له من القرن الثاني عشر الميلادي كان أعظم الفضل فى تعريف العرب واللاتين من بعدهم بنظام العدد الهندي ، وكتابه المشهور المختصر فى حساب الجبر والمقابلة لم يؤد فقط إلى وضع لفظ علم الجبر وإعطائه مدلوله الحالي . بل إنه افتتح عصراً جديداً في الرياضيات ...وألف أيضاً كتباً في الهندسة . ووضع جداول خاصة بحساب المثلثات والسطوح الفلكية)

وقد نشر علـى مـصطفى مـشرفه ومحمـد مـرسى أحمـد كتابـه الجـبر والمقابلـة وهـو يـذكر فى مقدمته تشجيع المأمون له منوها به ويظهر انه نجح في صنع الجـداول الفلكيـة نجاحـا رائعـا ويقـول نالينو إنه (تصطنع زيجا سماه السند هند الـصغير جمـع فيـه بـين المـذاهب الهنـد والفـرس ، وجعـل أساسة على السند هند ، وخالفه في التعاديل والميل ، فجعل تعادلية على مذاهب الفرس وجعـل ميـل الشمس فيه على مذهب بطليموس .

والخوارزمي – بدون ريب – يفتتح افتتاحاً رائعاً سلسلة الرياضيين والفلكيين والجغـرافيين مـن علماء العرب العظام وقد نبغ في هذا العصر كثيرون في الطب وعلم العقاقير على نحو ما تـشهد بـذلك كتب طبقات الأطباء وما تزخر به من سـيول الرسـائل والكتـب في الأمـراض وطـرق علاجهـا والعقـاقير وتركيبها . وقد أستطاع يوحنا ابن ماسويه – بما كـان يعكـف عليـة مـن علـم التـشريح ، ولـه في طـب العيون رسالة مهمة سـماها (دغـل العـين) وقـد دوت شـهرتها في عـصره وبعـد عـصره وترجمـت إلى اللاتينية .

وقد مضى العرب يعنون – منذ خالد بن يزيد بن معاوية – بعلم الـصنعة (الكيميـاء) وظلـوا يزدادون فيه علماً حتى ظهر لهذا العصر جابر بن حيان ، وهو ابن صـيدلي كـوفى ، فـأرسى هـذا العلـم على دعائم التجربة وخلف فيه كثيرا من النظريات في الاكسير وخواصه ، وصور ذلك فى أكثر مـن مائـة رسالة ، ترجمت منها طائفة كبيرة إلى اللاتينية وأفاد منها الأوربيون فوائد جلي مما كان له أكبر الـثر فى نهضة الأبحاث الكيميائية بديارهم . وقد تشكك في شخصية جابر ومصنفاته بعض الباحثين ، وهو شك بدأه بعض القدماء حتى لنرى ابن النديم يـرد علـيهم ردا طـويلا ، وهـو – دون نـزاع – المؤسـس الأول لعلم الكيمياء عند العرب ، كما أن الخوارزمى المؤسس الأول للعلوم الرياضة والفلكية والجغرافية وكما أن يوحنا بن ماسوية المؤسس الاول للأبحاث الطبية العربية .

وكان مما عنوا بنقله إلى العربية كتب الموسيقى لأوقليـدس وغـيرة ، وكـان لهـا تأثير بعيد فى نهضة الغناء والتلحين وقد استطاع الخليل بن أحمد أن ينفذ مما تـرجم

منها إلى وضع على العروض العربي ، وايضاً فإنه ألف كتاباً بديعاً في علم الإيقاع اتخذه إسحق الموصلى قدوته فى كتبه الموسيقية .

وكل هذه السيول من الترجمة كانت تجري معها سيول أخري من التراث اليونان والفرس والهند ، حتى ليكاد الإنسان يظن أنه لم يبق شىء من هذا التراث لم ينتقل إلى العربية ، سواء منه ما تصل بالعلوم أو ما اتصل بالصناعات أو ما اتصل بالعجائب والأسمار والخرافات ، أو ما اتصل بالصناعات او ما اتصل بالملل والنحل . وكانت كل هذه السيول تتجمع فى دكاكين الوراقين ، ويطلب كل منها ما يجد فيه متاعه .

وكانت الفلسفة اليونانية والمعارف العلمية أعظم ما حملت هذه السيول ، وقد مضى العقل العربي يسيغهما ويتثلهما ويضيف إليهما إضافات باهرة ، والمتكلمون - وعلى رأسهم المعتزلة – هم أهم من تعمقوا الفلسفة بجميع شعبها ودقائقها ، ولقد عرضوها على بساط البحث ، واستطاعوا أ ينفذوا إلى كثير من النظريات والأفكار والآراء التى لم يسبقهم إليها سابق .

وعلى هذا النحو أصبح العقل العربي في العصر العباسي الأول عقلا متفلسفاً كما أصبح عقلا علمياً ، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضا من حيث أسهامه فيها وإضافاته الجديدة حتى ليضيف علوماً لأول مرة في تاريخ الحضارة الإنسانية على نحو ما أضاف الخوارزمى على الجبر وكان هذا العقل قد أظهر نضجه العلمي وأحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثاني ، مما نراه متجلياً في العلوم اللغوية والدينية ومباحث التاريخ وعلم الكلام .

التجديد في الموضوعات القديمة :

ظل العباسيون ينظمون في الموضوعات القديمة من المديح وغير المديح مما كان ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون وبذلك أبقوا للشعر العربي على شخصيته الموروثة ,وقد مضوا يدعمونها دعماً بما لاءموا بينها وبين حياتهم العقلية الخصبة وأذاقهم المتحضرة المرهقة , فإذا هي تتجدد من جميع أطرافها تجدداً لا يقوم على التفاصل بين صورة هذه الموضوعات الجديدة وصورتها القديمة , بل يقوم على التواصل الوثيق .

وأول موضوع نقف عنده المديح , ومعروف أن الشاعر الجاهلي والإسلامي كان يرسم في ممدوحه المثالية الخلقية الرفيعة التي تقدرها الجماعة , وإذا كان مؤثراً في حياة عصره السياسية كأن يكون خليفة أو والياً عرض لأعماله , وللأحداث التي شارك فيها , أما إذا كان بطلاً يقود الجيوش ضد أعداء الأمة العربية فإنه يصور بطولته وما خاضه من معارك حربية . وقد اضطرمت هذه الغايات للمدحة في العصر العباسي , إذ نرى الشعراء يعيدون ويبدئون في تصوير المثل الخلقية صوراً حية ناطقة , ويعدو الحصر استنبطوه من معان طريفة في السماح والكرم والحلم والحزم والمروءة والعفة وشرف النفس وعلو الهمة والشجاعة والبأس , وقد جسموه في الممدوحين تجسيماً قوياً , حتى لتصبح كأنها تماثل قائمة نصب أعين الناس كي يتحذوها ويحزوها لأنفسهم مجامع الحمد والثناء . وبذلك ظلت المدحة تبث في الأمة التربية الخلقية القوية حافزه لها على الفضائل والمكارم الرشيدة . والذي لا ريب فيه أنها تحمل خصالنا وخصائصنا النفسية , وقد أشعل الشعراء العباسيون جذوتها في النفوس بما رفدوها به من عقولهم الخصبة وأخيلتهم البارعة . وقد مضى الشعراء في مديح الخلفاء والولاة يضيفون إلى هذه المثالية مثالية الحكم وما ينبغي أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة التي لا تصلح حياة الأمة بدونها , وبذلك كانوا صوتاً قوياً لها , صوتاً ما بني يهتف في آذان الحكام بما ينبغي أن يكون عليه في سلوكهم وسياستهم من مثل قول مروان بن أبي حفصة في مطلع قصيدة للمهدي :

أحيا أميـر المؤمنين محمد   سنن النبي : حرامـها وحلالها

وفيه يقول الحسين بن مطير :

يعف ويستحي إذا كان خالياً   كما عف واستحيا بحيث رقيب

ويقول أبو العتاهية في هارون الرشيد :

ورع يراعـى اللـه في حفـظ أمـة   يـدافع عنهـا الـشر غـير رقـود

تجافى عن الدنيا وأيقن أنها مفارقة ليست بدار خلود

وفيه يقول منصور النمري :

بورك هرون من إمام بطاعة الله ذي اعتصام

له إلى ذي الجلال قربى ليست لعدل ولا إمام

وقد يكون الخليفة سيء السلوك مثل الأمين , ولكن الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية الكريمة للخلفاء , لأنهم لا يمدحون من حيث هو , وإنما يمدحونه خليفة للمسلمين وموضع آمالهم , وكأنما يريدون أن يرفعوا أمام عينه الشعارات التي تطلبها الأمة في خليفته وراعيها , لعله يثوب إلى طريق الرشاد . وقد نمت من هذا المديح فروع الشعر السياسي , الذي يقف فيه الشاعر مدافعاً عن حق حزب من الأحزاب في الحكم والخلافة , وهو نمو بدأ منذ وقعة صفين , وهيأ لظهور أحزاب الخوارج والشيعة , ومعروف أن حركة الأولين خمدت في هذا العصر , أما حركة الشيعة فظلت مضطرمة وسنعرض لشرائعها وأشعارهم السياسية في الفصل السادس , وأيضاً لمن كانوا يشايعون العباسيين .

ولم يصور الشعراء مثاليتنا الخلقية العامة في مدائحهم وكذلك مثاليتنا السياسية فحسب , بل صوروا أيضاً الأحداث التي وقعت في عصور الخلفاء وخاصة الفتن والثورات الداخلية وحروب أعداء الدولة من الروم والترك , وبذلك قامت قصيدة المدح في هذا العصر مقام الصحافة الحديثة , فهي تسجل الأحداث التي عاصره الشاعر والأعمال الكبرى التي ينهض بها الخلفاء , مما يعطيها قيمة بعيدة إذا تصبح وثائق تاريخية , ومن أجل ذلك كنا نرى الطبري في تاريخه يتوقف من حين إلى حين لينشد ما نظمه بعض الشعراء في الحادث الذي يرويه وليجلوه جلاءً تاماً على لسان هؤلاء الشعراء الذين عاصروه , وبذلك أعدوا من بعض الوجوه ليتحول المديح إلى تاريخ , وكان من أوائل من نفذ إلى ذلك السيد الحميري , فإنه حول أخبار علي بن أبي طالب ومناقبه إلمدائح بديعة, وفي ترجمته بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني من ذلك طرائف كثيرة .

وربما كان أهم ما سجلته صحف المديح في هذا العصر صور الأبطال الذين كانوا يقودون جيوش الأمة المظفرة ضد أعدائها من الترك والبيزنطيين , فقد أشادت إشادة رائعة بكل معركة خاضوا غمارها وكل حصن اقتحموه , حتى كادت لا تترك موقعة ولا بطلاً دون تصوير يضرم في النفس العربية الاستبسال والمضاء وجلاد الأعداء جلاداً عنيفاً وكل كاتب في هذه الصحف أو قل كل شاعر يتفنن في رسم بطولة القائد الذي يمدحه رسماً يشعل الحماية في نفوس جنوده ونفوس الشباب العربي ومن ورائهم فإذا هم يترامون على منازلة أعدائهم ترامي الفراش على النار يريدون أن يسحقوهم سحقاً . وكان الرشيد والمأمون والمعتصم يقودون بأنفسهم الجيوش التي كانت تمحق البيزنطيين محقاً فتغني الشعراء بانتصاراتهم غناء يسكب الفرحة في كل نفس , ولعل من أروعه غناء أشجع شاعر البرامكة بفتح الرشيد لهرقلة في آسيا الصغرى واكتساحه لجيش نقفور أمبراطور بيزنطة , وأكثر منه روعة غناء أبي تمام بفتح المعتصم لأنقرة وحرقه لعمورية في بائيته المشهورة , وهي إلى أن تكون ملحمة أقرب منها إلى أن تكون قصيدة . وتكتظ كتب الأدب ودواوين الشعراء بتصويرهم لبسالة جميع القواد , لا الذين أسهموا في حروب البيزنطيين فحسب , بل أيضاً في حروب الترك وبابك الخرمي وغيره من الثائرين في شرقي الدولة. ولم يكتف الشعراء بهذا التصوير فقد عنوا بتسجيل كل ما يستطيعون من تفاصيل عن المعارك الحربية , وبذلك لم تعد قصائدهم مديحاً فحسب بل أصبحت أيضاً تاريخاً , وهو تاريخ كتب شعراء , تاريخ أبطالنا وأمجادهم الحربية , وكان هؤلاء الأبطال ومن ورائهم الخلفاء يرصدون الجوائز الضخمة للشعراء كي يرسموا هذه البطولات ورسموا حقاً رسماً باهراً سنرى مقتطفات منه في تضاعيف تراجمهم , ويكفي أن نسوق قطعة من تصوير على بن جبلة لبطولة أبي دلف العجلي قائد المأمون المشهور , إذ يقول من قصيدة طويلة يصف فيها بعض وقائعه :

المنايا في مقانبه

وزحوف في صواهله

قدته والموت مكتمن

فرمت جيلوه منه يد

زرته والخيل عابسة

فأبحث الخيل عقوته

صاغك اللـه أبا دلف

كل من في الأرض من عرب

مستعير منك مكرمة

والعطايا في ذرا حجرة

كصياح الحشر في أمره

في مذاكيه ومشتجره

طوت المنشور من بطره

تحمل البؤسى إلى عقره

وقريت الطير من جزره

صيغه في الخلق في خيره

بين باديه إلى حضره

يكتسيها يوم مفتخره

وكانت المدحة قديمة تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى بها وما يلبث الشاعر أن يستطرد في وصف الصحراء ناعتاً ما يركبه من بعير أو فرس وما يراه فيها من حيوان وحشي , وقد يعرض لوصف مشهد الصيد , وكثيراً ما يضمنها بجانب ذلك حكماً توسع مدارك السامع وتبصره بأطراف من سنن الحياة , وكل ذلك استبقاه شاعر المدحة في العصر العباسي , ولكن مع إضافات كثيرة , حتى يتلائم بينه وبين عصره , وتتسع الإضافة أحياناً وتضيق أحاناً ولكنها دائماً تعبر عن الذخائر العقلية والخيالية للشاعر العباسي , وقد تعجب لاستبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية , غير أنهم اتخذوها رمزاً , أما

الأطلال فلحبهم الدائر , وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان في الحياة , وقد استغلوا ما كان يصحب الأطلاق من حنين لذكريات حبهم ومعاهده لا يزال يترقرق في أشعارهم من مثل قول مسلم بن الوليد:

هلا بكيت ظعائنا وحمولا

فإذا زجرت القلب زاد وجيبه

وإذا كتمت جوى الأسى بعث الهوى

واها لأيام الصبا وزمانه

ترك الفؤاد فراقهم مخبولاً

وإذا حبست الدمع زاد همولاً

نفساً يكون على الضمير دليلاً

لو كان أمتع بالمقام قليلاً

وحاول بعض الشعراء أن يترك الحديث عن الأطلال المهجورة إلى قصور الحاضرة المأنوسة , وحينئذ كان لا يسترسل في وصف حنينه , على شاكلة أشجع إذ يستهل إحدى قصائده بقوله :

قصر عليه تحية وسلام نشرت عليه جمالها الأيام

على نحو ما استبقوا الأطلال وما يتصل بها من حنين يبعث بنفوسهم استبقوا رحلة الصحراء وتفننوا في وصف وعوثة طرقها ورياحها الحارة , التي تكاد تتوقد توقداً على شاكلة قوم مسلم :

ومجهل كاطراد السيف محتجز

تمشي الرياح به حسرى مولهة

عن الأداء مسجور الصياخيد

حيرى تلوذ بأطراف الجلاميد

فالرياح من شدة الحر وما يجري في قلبها من الفزع تلجأ إلى أطراف الصخور السمتعلية فوق الآكام , كأنها تريد الفرار من هذا الجحيم المطبق , وقد داروا حول وصف الحيوان الوحشي محاولين أن يستنبطوا بعض الصور الطريفة من مثل قول بشار في بائيته , يصور ما نال أتن الوحش من حرقة العطش الشديد :

غدت عانة تشكو بأبصارها الصدى

إلى الجأب إلا أنها لا تخاطبه

وهي صورة تخفق بالحياة إذ مث العطش في غور أحداقها , حتى لتهم بالكلام شاكية لحمارها , ولكن أني لها ذلك وهي عجماء لا تبين . وكان الشاعر القديم يكثر من وصف نحول بعيره وذوقه لطول الطرق الوعرة وما يصيبها من شدة الكلال والإعياء , حتى ليشبهها بالأقواس والأهلة ضموراً وهزالاً , وردد الشاعر العباسي هذا المعنى طويلاً محاولاً الخلوص إلى بعض الأفكار المستحدثة , من مثل قول أب الشيص مخاطباً أحد ممدوحيه وواصفاً نحول نوقه ونحول راكبيها :

أكل الوجيف لحومها ولحومهم

ولقد أتتك على الزمان سواخطاً

فأترك أنقاضاً على أنقاض

فرجعن عنك وهن عنه رواض

وتحول الشاعر العباسي في أحيان كثيرة من وصف الصحراء ومسالكها وسمومها وحيوانها إلى وصف الرياض في الحاضرة ومناظرها البهيجة في الفربيع , ومن خير ما يصور ذلك قصيدة ابي تمام في مديح المعتصم التي يستهلها بقوله :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر

وغدا الثرى في حليه يتكسر

وقد ضى يتحدث في إسهاب عن جمال الطبيعة في الربيع , وكأنه يتخذ منه رماً لعصر المعتـصم . واتخذوا أحياناً من وصف السفن ورحلتها في الأنهار صورة مقابلة لرحلة البعير في الصحراء , مثل قول بشار في إحدى مدائحه للمهدي :

وعذراء لا تجري بلحم ولا دم

إذا ظعنت فيها الفلول تشخصت

تلاعب تيار البحور وربما

قليلة شكوى الأين ملجمة الدبر

بفرسانها لا في وعوث ولا وعر

رأيت نفوس القوم من جريها تجري

وجعلتهم موجه المجون الحادة في العصر يصفون في مقدمات مدائحهم الخمر أحياناً , واستهل ذلك بشار وتوسع فيه مسلم وأبو نواس وأبو العتاهية سعة شديدة . وعنوا على نحو مـا عنـى الـشاعر القديم ببث الحكم في قصائدهم , وكم قد ترجم كثير من الحكم الفارسية والهندية واليونانية فأفـادوا من ذلك كله ونثروه في تضاعيف مدائحهم, مضيفين إليه كثيراً من تـأملاتهم في الحيـاة والطبـاع , ومـن مثل قول أبي تمام في فضل المحسود ونقص الحسود :

وإذا أراد اللـه نشر فضيلة

لولا اشتعال النار فيما جاورت

طويت أتاح لها لسان حسود

ما كان يعرف طيب عرف العود

وهو كثير الحكم في مدائحه وقد صب فيها كثيراً من شكوى الـزمن وخطوبـه , بحيث يعد مقدمه قوية لابن الرومي والمتنبي , وهو يمزج شواه بمغالبة عاتية للـدهر ونوازله وبذلك كانت مدائحه تـسكب القـوة في نفـس كـل عـربي , لا بمـا يـصور مـن

بسالة الأبطال والقواد في الحروب فحسب , بل أيضاً بما يودعها من فتوة عارمة على شاكلة قوله :

أعاذلتي ما أخشن الليل مركباً

ذريني وأهوال الزمان أفانها

ألم تعلمي أن الزماع على السرى

دعيني على أخلاقي الصم للتي

فإن الحسام الهندواني إنما

وأخشن منه في الملمات راكبه

فأهواله العظمى تليها رغائبه

أخو النجح عند النائبات وصاحبه

هي الوفر أو سرب ترن نوادبه

خشونته ما لم تفلل مضاربه

وعلى هذا النحو ازدهرت المدحة على لسان الشاعر العباسي لا بما رسم فيها من مثاليتنا الخلقية وسجل من الأحداث وصور البطولات العربية فحسب , بل أيضاً بما تمثل من العناصر القديمة وأذاع فيها من ملكاته وما أضافه إليها من عناصر جديدة استمدها من بيئته الحضارية , ومن نفسيته وملكاته العقلية . ودفعتهم دقتهم الذهنية إلى أن يلائموا بين مدائحهم وممدوحيهم فإذا مدحوا الخلفاء نوهوا بتقواهم وعدلهم في الرعية , وإذا مدحوا القواد أطالوا في وصف شجاعتهم وإذا مدحوا الوزراء تحدثوا عن حسن سياستهم , وكذلك صنعوا بالفقهاء والقضاة والمغنيين , فلكل أوصافه التي تخصه وهي أوصاف طلبوا فيها وفي كل مدائحهم الفكر الدقيق والتعبير الرشيق .

وإذا تركنا المديح إلى الهجاء وجدنا معالم التطور فيه أعمق وأوسع منها في المديح الخالص إذا كان يتصل بحياة الشعب والعامة اتصالاً لعله أدق من اتصال المديح, وهي حياة لم يعد أساسه العصبيات القبلية كما كان الشأن في العصر الأموي

, ومن أجل ذلك ضعف فن النقائض لقيامه عليها إلا أسراباً قليلة كانت تظهر من حين إلى آخر , ولكن إذا كان هذا الفن ضعف , فإن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء وقد عمت فيه روح جديدة إذا أخذوا يريشونه سهاماً مضمية . ويخيل إلى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مثلبة خلقية أو نفسية في شخص إلا صوروها , وكأنما يريدون أن يطهروا المجتمع منها , ولم يتورعوا أحياناً عن هجاء الخلفاء والوزراء , كلما رأوهم ينحرفون عن الجادة على نحو ما هو مشهور عن دعبل . وبذلك يصبح الهجاء الصحيفة التربوية المقابلة للمديح , فالمديح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية , والهجاء يرسم المساوي الفردية والاجتماعية التي ينبغي أن يتخلص منها المجتمع الرشيد . وقد تبارى الشعراء في رسم معانيه , تارة يخزون وخزن الإبر , وتارة يطعنون طعنات قاتلة , ومن ذلك قول بشار في هجاء ابن قزعة بشحه :

فلا تبخلا بخل ابن قزعة إنه

إذا جئته للعرف أغلق بابه

مخافة أن يرجى نداه حزين

فلم تلقه إلا وأنت كمين

وقول أبي تمام صوراً غيرة شخص لا في موضع الغيرة من نسائه , وإنما في الغيرة على طعامه ورغفانه حتى لكأن كسر رغيفه كسر عظم من عظامه , بل لكأنه فتك به أشد الفتك , يقول :

صدق أليته إن قال مجتهداً

قد كان يعجبني لو أن غيرته

إن رمت قتلته فافتك بخبزته

لا والرغيف فذاك البر من قسمه

على جراذقه كانت على حرمه

فإن موقعها من لحمه ودمه

وأهم ليقة غمس فيها الشعراء هجاءهم ليقة الاستخفاف والتهوين والتحقير , وقد استمد منها حماد عجرد كثيرا حين استطار الهجاء بينه وبين بشار من مثل قوله :

وأعمى يشبه القرد

دنيء لم يرح يوماً

ولم يحضر مع الخضا

ولم يخش له ذم

إذا ما عمى القرد

إلى مجد ولم يغد

ر في خير ولم يبد

ولم يرج له حمد

ويقال إن بشار حين سمع هذه الأبيات بكى من شدة إيلامها لنفسه , فقال له فانن أتبكي من هجاء حماد ؟ فقال : واللـه ما أبكي من هجائه , ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه , فيصفني ولا أصفه . وأتاه من باب جديد ألهمته به الحضارة وما يأخذ به أهل الحاضرة أنفسهم من النظافة والتعطر , فوصفه بالقذارة والدنس في أبيات لعلها كانت أشد إيلاماً وأوجع وخزاً لنفسه من الأبيات السابقة , إذ يقول :

نهاره أخبث من ليله

وليس بالمقلع عن غيه

ما خلق اللـه شبيهاً له

واللـه ما الخنزير في نتنه

بل ريحه أطيب من ريحه

ووجهه أحسن من وجهه

وعوده أكرم من عوده

ويومه أخبث من أمسه

حتى يوارى في ثرى رمسه

من جنه طراً ومن إنسه

بربعه في النتن أو خمسه

ومسه ألين من مسه

ونفسه أنبل من نفسه

وجنسه أكرم من جنسه

يقول الجاحظ : " وأنا - حفظك اللـه تعالى – استطرف وضعه الخنزير بهذا المكان في هذا الموضع حين يقول : (وعوده أكرم من وعوده) وأي عود للخنزير قبحه اللـه تعالى وقبح من يشتهي أكله " . وحماد يضيف إلى قذارة الجسد قذارة الخلق , ومع أن بشار كان في الذروة الرفيعة من صنع الشعر ونظمه وكان حماد في السفح البعيد فإن حماداً كان يستعلى عليه في الهجاء . ولما أعياه أمره جاءه من باب ضيق , محاولاً أن يضع أغلال أولى الأمر في يديه , إذ أدعى عليه أنه زنديق يؤمن بإلهي النور والظلمة كما يؤمن المجوس قائلاً في أبيات :

يا ابن نهيا رأس على ثقيل

أدع غيري إلى عبادة ربيـ

واحتمال الرءوس خطب جليل

ـن فإني بواحد مشغول

ومكر به حماد فأشاع الأبيات لبشار في الناس وجعل فيها مكان (فإني بواحد مشغول) : (فإني عن واحد مشغول) ليثبت عليه الزندقة والكفر . يقول أبو الفرج: فما زالت الأبيات تدور في أيدي الناس حتى انتهت إلى بشار , فاضطرب منها وتغير وجزع وقال : عرضي للقتل , واللـه ما قلت إلا (فإني بواحد مشغول) فغيرها حتى يشهرني في الناس بما يهلكني " , وكان جميعاً زنديقين مستترين , وكأنما خافا أن

يفتضحا ويحاكمهما المهدي . ونرى بشاراً يلطخ بالتهمة زنديقاً ثالثاً هو عمارة بن حربية وله يقول :

لو كنت زنديقاً – عمار – حبوتني

لكني وحدت ربي مخلصاً

أو كنت أعبد غير رب محمد

فجفوتني بغضاً لكل موحد

ويكثر في هجاء بشار وغيره هتك الأعراض , وربما كان لشيوع المجون والفحش أثر في ذلك . وتشيع في كثير من قطع الهجاء روح السخرية المريرة , وقد تشيع روح الفكاهة المضحكة , على نحو ما يلقانا في هجاء أبي العتاهية لعبد الله بن معن وقد جعل منه فتاة تتزين لتلفت إليها الرجال . ودفعت بشار شعوبيته الذميمة ليهجو العرب بأشعار تعد وصمة في جبينه , وعلى نحو ما لاءموا بين مدائحهم وممدوحيهم لاءموا بين أهاجيهم ومهجويهم , فإذا كانوا قضاة وصفوفهم بالظلم , وإذا كانوا مغنيين وصفوهم برداءة الصوت ودمامة المنظر , ولعل من الطريف أن تجد شاعراً يهجو محمد بن يسير بما يدعى من معرفة السحر والشعيذة والعزائم عن الجن والشياطين .

وظلت للفخر حيويته القديمة , وإن كان قد ضعف فيه الفخر القبلي , على أن أسراباً بقيت منه عند نفر من الشعراء , وفي مقدمتهم أبو نواس إذا كان يتعصب لمواليه من بني سعد العشيرة القحطانية , وينظم في ذلك أشعاراً كثيرة , ومثله كان دعبل وقد رد على مذهبه الكميت التي تشيع في للنزاريين على القحطانيين رداً عنيفاً , مما جعل أبا سعد المخزومي يهاجيه طويلاً , وحاول شاعر يسمى ابن قنبر أن يدفع مسلم بن الوليد للاشتباك في معركة حامية من معارك الهجاء القبلي , ولكن مسلماً أخرسه . وكان بشار يتعصب في عصر بني أمية لمواليه القيسيين تعصباً حاداً , حتى إذا نجحت الثورة العباسية أظهر ما كان يستره من كره الإسلام والعرب , وأخذ يعنف بهم عنفاً شديداً مصوراً البغض الذي كان يحرق كبده , والجديد حقاً في الفخر لهذا

العصر أن كثراً من الشعراء صدروا في فخرهم عن شعور طاغ بالمروءة والكرامة والشيم الرفيعة من مثل قول عوف بن محلم الخزاعي :

وإني لذو حلم على أن سورتي

وإني لأجزى بالكرامة أهلها

إذا هزني قوم حميت بها عرضي

وبالحقد حقداً في الشدائد والخفض

وقول بكر بن النطاح :

ومن يفتقر منا يعيش بحسامه

وإنا لنلهو بالسيوف كما لهت

ومن يفتقر من سار الناس يسأل

فتاة بعقد أو سخاب قرنفل

ونشط الشعراء في الرثاء نشاطاً واسعاً , إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلا وأبنوه تأبيناً رائعاً , وقد صوروا في القواد بطولتهم ومحنة الأمة والجيوش في وفاتهم, وكيف ملأ موتهم القلوب حسرة وفزعاً . وحقاً رثاؤهم لهم يفيض بالحزن واللوعة , ولكنه مع ذلك يكتظ بالحماسة والقوة وتمجيد بطولتهم تمجيداً يضرم الحمية في نفوس الشباب للدفاع عن العرين حتى الموت , دفاعاً يقوم على البأس والبسالة والاستطالة , وكان يحدث أن يخر بطل صريعاً في بعض الميادين , حينئذ ينظم فيه الشعراء مراثي حماسية تؤجج لهيب الحفيظة في القلوب وتدفع إلى الاستشهاد تحت ظلال الرماح ذباً عن حرمات الوطن , ومن خير ما يمثل ذلك مراثي أبي تمام في محمد بن حميد الطوسي الطائي , فإنه أوقع ببابك وجنوده لعهد المأمون وقائع ملأته هو وعسكره فزعاً ورعباً , ولكن حدث في آخر وقعة أن اندفع ابن حميد في مضيق حرج , والتفت به جنود بابك فظل قائماً يدافعهم ويقاومهم لا يتزحزح عن موضعه , حتى إذا أحيط به لم يستسلم ولم يلق السلاح , بل قاتل حتى قتل عزيزاً كريماً . وحزنت الأمة حزناً عميقاً لموته , وانبرى أبو تمام يرثيه مراثي رائعة تصور جلده في القتال

وصبره في النضال حتى الموت الزؤام , على نحو ما يلقانا في مرثيته العينية , التي استهلها استهلالاً بديعاً بقوله :

أصم بك الناعي وإن كان أسمعاً

وأصبح مغني الجود بعدك بلقعا

وفيها يقول :

فتى كلما ارتاد الشجاع من الردى

فإن ترم عن عمر تدانى به المدى

فما كنت إلا السيف لاقى ضريبه

مفراً غداة المأزق ارتاد مصرعاً

فخانك حتى لم تجد فيه منزعاً

فقطعها ثم أثنى فتقطعا

ومن الأبطال الذين بكاهم الشعراء منصور بن زياد وقد أبلى لعهد الرشيد في القضاء على ثورة بالقيروان , ووافاه القدر , فرثاه عبد اللـه بن أيوب التيمي بقصيدة بديعة يقول في تضاعيفها :

أما القبول فإنهن أوانس

والناس مأتمهم عليه واحد

عجباً لأربع أذرع في خمسة

بجوار قبرك والديار قبور

في كل دار رنة وزفير

في جوفها جبل أشم كبير

ولعل بطلا لم تذرف دموع الشعراء عليه كما ذرفت على يزيد بن مزيد الذي فتك بخوارج الموصل فتكة لم تقم لهم بعدها قائمة , وسنلتقي في تراجم الشعر بمراث له مختلفة وفي تأبينه يقول منصور النمري :

وإن تك أفنته الليالي وأوشكت

فإن ذله ذكراً سيفني اللياليا

وواضح ما في هذه الأشعار من دقة التفكير وبعد الخيال , ويلقانا ذلك دائماً في تأبينهاتهم إذا كانوا يتنافسون في استنباط المعاني النادرة ومن طريف ما لمسلم ابن الوليد من هذه المعاني قوله في رثاء شخص :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه

فطيب تراب القبر دل على القبر

وكان الشاعر القديم كثيراً ما يفزع إلى العزاء بالأمم السالفة والقرون الخالية وأن الموت كأس دائر يتجرع غصصه جميع الناس , فردد ذلك الشاعر العباسي في مراثيه , وأخذ يضيف إليه من فكره الخصب تأملات في حقائق الموت وسنن الوجود من مثل قول ابن مناذر في تأبين عبد المجيد الثقفي :

كل حي لاقى الحمام فمودى

لا نهاب المنون شيئاً ولا تر

يقدح الدهر في شماريخ رضوى

ولقد تترك الحوادث والأيا

يفعل الـلـه ما يشاء فيمضى

فكأنا الموت ركب محثـ

مالحي مؤمل من خلود

عى على والد ولا مولود

ويحط الصخور من هبود

م وهيا في الصخرة الجلمود

ما لفعل الإله من مردود

ـون سراع لمنهل مورود

وشاع في العصر بكاء الرفقاء والأصدقاء , بكاء يفجر الحزن في النفس , لما يصور من شقاء الأصدقاء بمو رفاقهم وكيف يطلون بنار الفراق المحرقة , من مثل قول بشار في ندب أحد أصدقائه من الزنادقة :

أشرب على تلف الأحبة إننا

ويلي عليه وويلتي من بينه

قد ذقت ألفته وذقت فراقه

جزر المنية ظاعنين وخفضاً

كان المحب وكنت حباً فانقضى

فوجدت ذا عسلاً وذا جمر الغضا

وكان إخوتهم وأبنائهم يموتون تحت أعينهم , فتدور بهم الأرض ويبكون بدموع غزار , وينفسون عن أنفسهم بأبيات تصور الحزن المقيم في قلوبهم لا يبرح , من مثل قول العتبى في ابن له اختطفه الموت بعد أبناء آخرين , وقد مات في ريعان شبابه :

وقاسمني دهري بني بشطره

ألا ليت أمي لم تلدني وليتني

وكنت به أكنى فأصبحت كلما

فلما تقضى شطره عاث في شطري

سبقتك إذا كنا إلى غاية نجري

كنيت به فاضت دموعي على نحري

وعلى نحو ما تفجعوا على أبنائهم وإخوتهم تفجعوا على زوجاتهم تفجعاً كله عطف وبر ورحمة , ولابن الزيات مراث مختلفة لزوجته , توضح من بعض الوجوه ثراء الفكر العباسي بالخواطر وقدرته على تحليلها وتمثيل أحزانه وحزن طفله الذي افتقد عطف الأم وحنانها , من مثل قوله :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه

رأى كل أم وابنها غير أمه

وبات وحيداً في الفراش تجنه

فلا تلحياني إن بكيت فإنما

وهبني عزمت الصبر عنها لأنني

ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبه

بعيد الكرى عيناه تبتدران

يبيتان تحت الليل ينتجيان

بلابل قلب دائم الخفقان

أداوي بهذا الدمع ما تريان

جليد فمن بالصبر لابن ثمان

ولا يأتسى بالناس في الحدثان

وظلت المآتم قائمة على قتلى الشيعة في العصر والعصور السابقة منذ قتل علي بن أبي طالب , فهم ينوحون عليهم نواحاً حاراً , ودموعهم لا ترقأ ولا تجف , وستعرض لذلك في الفصل السادس . وبكى الشعراء البرامكة طويلاً حين نكبهم الرشيد , من مثل قول سلم الخاسر :

خوت أنجم الجدوى وشلت يد الندى

هوت أنجم كانت لأبناء برمك

وغاضت بحار الجود بعد البرامك

بها يعرف الحادي طريق المسالك

وظهرت ضروب جديدة في الرثاء لم تكن معروفة قبل هذا العصر , من ذلك رثاء المدن حين تنزل بها كوارث النهب والحرق , وكان الجيش الذي أحاط ببغداد قبل مقتل الأمين رماها بالمجانيق فاندلعت فيها النيران واحترقت بعض الأحياء , وعم فيها نهب الأموال وقتل الأبرياء , مما جعل كثيرين من الشعراء يبكونها وقد غمرهم الحزن والأسى , ومن مثل قول بعضهم :

ألا ابك الإحراق وهدم منازل

وإبراز ربات الخدور حواسراً

كأن لم تكن بغداد أحسن منظراً

وقتل وإنهاب اللـهى والذخائر

خرجن بلا خمر ولا بمآزر

وملهى رأته عين لاه وناظر

ومن ضروب الرثاء الجديدة مراثي الطير الصادح من مثل القمرى والحيوانات المستأنسة وقد جعل القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف كاتب المأمون ذلك وده , كما يقول أبو الفرج الأصبهاني , فاستغرق أكثر شعره فيه , من مثل قوله يرثي شاه :

عين إبكي لعنزنا السوداء

كالعروس الأدماء يوم الجلاء

وكان لابن الزيات فرس أشهب لم ير مثله فراهة وحسناً , فوصفت للمعتصم فراهته , فطلبه منه , فلم يستطع رد طلبه , حتى إذا بان عنه رثاه بقصيدة طويلة يقول فيها :

كيف العزاء وقد مضى لسبيله

منع الرقاد جوى تضمنه الحشا

عنا فودعنا الأحم الأشهب

وهوى أكابده وهم منصب

ومن المراثي الجديدة الموضوع مرثية محمد بن يسير لبستان له عاثت فيه شاة أفلتت لأحد جيرانه ودخلت البيت , فعاثت ببعض صحفه وقراطيسه , وفيها يندب روعة هذا البستان قبل أن تعبث به ضارعاً إلى ربه بالشكوى من هذه الشاة وأن ينزل بها عقاب أليم .

وقد أكثر الشعراء في العصر من العتاب والاعتذار متخذين لهما مسالك دقيقة تدل أوضح الدلالة على رهافة الحس وخصب الذهن من مثل قول أبي دلف معاتباً :

ومن لي بالعين التي كنت مرة

إلى بها في سالف الدهر تنظر

التصنيع في الحياة الفنية

غمر العقل العربي في أثناء هذه العصور بهذا الذوق من التصنيع فعمد إلى وسائل يصعب بها تناوله للآراء والأفكار على نحو ما كان المهبلى يصعب على نفسه في تناوله لطعامه بملاعقه وعمت هذه الروح في صنع التعقيد ولعل مما يصور ذلك ما يروى من مهارة بديع الزمان وانه كان يستطيع ان يكتب كتاباً يقرأ فيه جوابه او كتاباً يقرأ من أخره إلى أوله او كتابا اذا قرى أوله الى أخره كان كتابا فان عكست سطوره مخالفة كان جواباً او كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة او دال ينفصل عنها او خالياً من الألف واللام او من الحروف العواطل او أول سطوره كلها ميم وأخرها جيم أو كتاباً اذا قري معرجاً وسرد معرجا كان شعراً وإذا فسر على وجه كان مدحاً وإذا فسر على وجه كان ذماً .

ويظهر أن ذلك يعد عند كتاب العصر الأفق الأعلى في البلاغة والفصاحة فانطلق الشعراء ينظمون قصائد كل ألفاظها من الحروف المعجمة او من الحروف المهملة او من الحروف المهموزة او مما لا تنطبق معه الشفتان وكان الشعر يستحيل الى عمل لغوى فإذا الشعراء يصنعون صنيع الحروف ولكن لا تتكون أبيات من الشعر

إلا إذا أردنا بهذا الشعر الإفصاح عن صعوبات في التعبير وطرق الأداء ونحن ينبغي ان نعرف ان الشعراء كانوا يعجبون بهذه التعقيدات إعجابا شديداً فالثعالبي يذكر لنا أن الصاحب ابن عباد صنع قصيدة من الألف هي أكثر الحروف دخولا في المنظوم والمنثور فتداولها الرواة و عجبوا منها فصنع الصاحب قصائد كل منها خالية من حروف الهجاء وحتى موسيقي الشعر والنثر لم تسلم من هذا التكليف والتعقيد في الأداء فنحن نجد المعرى فى لزومياته وفصوله وغاياته يتقيد في قوافيه وأسجاعه بحرفين او ثلاثة كان الوسيلة الواحدة لا تكفى للتعبير في الأدب بل يحسن ان تتعدد كما تعددت ملاعق المهلبي ولم يصنع المرعى ذلك بمجموعة صغيرة من القصائد والرسائل بل طبقة في ديوان ضخم من الشعر وكتاب ضخم ايضاً من النثر ولعل مما يتصل بهذه الجوانب من التصعيب في الأداء ما شاع في هذه العصور من الإلغاز والاحاجي وقد روى صاحب اليتيمة طرفاً من هذه الجانب عند بديع الزمان وابن العميد ويقول صاحب سر الفصاحة " قد كان شيخاً ابو العلا يستحسن هذا الفن ويستعمله في شعره كثيراً .

وليس من الشك ان في مثل هذه الألغاز لا تضيف طرافة إلى الشعر إلا أن يقصد به إلى التعقيد وان يتخذ هذا التعقيد احدي غاياته وكأني بالحضارة العربية ضلت طريقها الطبيعي في التعبير فذهبت تسعين بألوان الطعام يوضع بعضها وراء البعض او بالملاعق تتعدد في أثناء تناول الطعام او بهذه الرسائل المتولية في التعبير الفني وكأنها تبحث عن طريق جديد تعبر به غير أنها لم تقع الا على هذه الضروب من التكلف والتصنيع فتشبث بها وقد خيل إليها أنها تستطيع ان تطرف بها حياة الناس وأفكارهم ومن المهم ان نعرف ان الناس كانوا يطلبون هذه الضروب من الشعراء لا ن حياتهم هم انفسهم تعقدت وأصبحوا لا يعجبون الا بما يتماشي مع حياتهم واستيحاب لهم الشعراء فكل يحاول بدوره ان يعقد الفن وان يقع من هذا التعقيد على طرفة جديدة يطرفهم بها حتى ينال إعجابهم واستحسانهم

التصنيع في شعر مسلم ونماذجه

ولد مسلم بن الوليد في الكرنة حوالي سنة 140 للهجرة وكان أبوه من موالى الأنصار إذا كان مولى لا سعده بن زرارة الخزرجي واغلب الظن انه كان فارسياً ويقال أنه حائكاً وعنى على ما يظهر بتربية أبنائه وتوجيهم الى حلقات الدرس والأدب في بلدتهم ونبغ له ابنان هما سلمان ومسلم ويظهر أن سلمان ويظهر أن سلمان كان اكبرهما وكان مكفوفاً ويقال أنه كان يلزم بشار بن برد ولذلك اتهم بالزندقة ونراه هو واخاه في بغداد لعهد الرشيد يطرقان أبواب البرامكة وكبار رجال الدولة وقادتها العظام من مثل يزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد فكانوا يبرونهما ويجزلون لهما في العطاء ولم يعرف مسلم بزندقة كما عرف أخوه وإنما عرف باقباله على اللهو والطرب فكان يجتمع بابى نواس وطبقته مثل ابي الشيص ويقبل معهم على الخمر والمجرن ويقال انه كان إذا كسب مالا جمع أصحابه في بيته ياكل معهم ويشرب حتى اذا لم يبق من كسبه مالا جمع أصحابه في بيته يأكل معهم ويشرب حتى اذا لم يبق من منه سوى قوت شهر ظهر في الناس واختياره منزله للهوه وطربه يدل على انه كان فيه شيئا من التوقر وهو على كل حال لم يهبط الى عبث ابي نواس والحسين بن الضحاك الخليع واضربهما فقج كان يعرف لنفسه حقها من الكرامة وكان يحتفظ يغير قليل من الوقار وكان فيه فضل من حياء ولعل ذلك ما صرفه أول الأمر عن الخلفاء فكان من دونهم ولا يطمع في مديحهم وما زال هذا شانه حتى أشهر في الأوساط الأدبية ومدح منصور بن يزيد الحميرى ، فوصل بينه وبين هرون الرشيد وأصبح من شعرائه ويقال إنه لما انشده لاميته المشهورة فيه وقد بلغ قوله

هل العيش الا تروح مع الصبا وتغدو صريع الكاس والأعين النجل

قال له أنت صريع الغواني فسمي بذلك حتى صار لا يعرف الا به وتدلنا أخباره على ان الرشيد كا يعجب به وفي رأينا ان مصدر هذ الإعجاب لم يكن مديحه فحسب فقد وجده يشيد بقائده يزيد بن مزيد الشيباني حين قضى على ثورة اخوارج في عهده وكان ذلك سنة تسع وسبعين ومائة وبلغ من هذه الاشادة كل مبلغ حتى جعله عز الخلاقة .

وصادف ذلك هوى في نفس الرشيد لانه كان قد اخذ يفكر على ما يظهر غب أعلاه كفة العرب في شئون الحكم ومقاليده وكان يري الشعراء مزدحمين على أبواب يحي البرمكي ولديه الفضل وجعفر وغريهم من الفرس فكان ذلك يقض مضحعه ويستال بينه وبين نفسها العرب وكيف ارنغ منهم امام هؤلاء الذين استبدوا وبي وملأهم الشعراء طرقات بغداد ثناء فلما نظم مسلم مدائحه في يزيد نفس عن نفسه وجدلها روحا على قلبه ويروى الرواة انه أرسل يوماً الى يزيد فأتاه لابسا سلاحه مستعداً لأمر ان أراده فلما راه ضحك وقال له : يا يزيد اخبرني من الذي يقو فيك فقال لا اعرفه فعجب الرشيد وقال له : سوءة لك من سيد قوم يمدح بمثل هذا الشعر ولا يعرف قائله وقد ابلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله وهو مسلم بين الوليد وانصرف يزيد فدعا به وصله وتوالت عليه عطاياه ووالى مسلم مدائحه مثل داوود بن يزيد المهبلى وزيد بن مسلم الحنفي والحسن ابن عمران الطائى ومنصور بن يزيد الحميري وابنه محمد وظل وفياً للبرامكة ولكن يزيد بن مزيد غلب عليهم كما غلب معه هؤلاء العرب الخلص ونراه يمدح الأمين حتى إذا تحولت ازمة الخلافة الى أخيه المأمون لزم الفضل بن سهل وزيره وكانت قد تقدمت به السن فعطف عليه الفضل وولاة بريد جرجان وقيل مظالمها ولم يلبث هناك ان لبي نداء ربه سنة ثمان ومائتين

وأكثر شعر مسلم في مديح من سميناهم وله غزليات وخمريات قليلة وهاجي ابن قنبر الشاعر ولكن لا على طريقة الهجاء عند حماد عجرد بشار ولكن على طريقة الشعراء الأمويين ومازال به حتى أفحمه وكف عن مناقضته ويقال انه هجاء يزيد بن مزيد وربما ند ذلك منه حين تاخر عن عطائه ووصل ذلك الى مسامع الرشيد فاحضره وهدده وقال له لئن بلغني انك هجرته لا نزعن لسانك من فكيك فانتهي ولم يعد ونعم بعطاياه وعطايا الخليفة معاً حتى اذا توفى رثاه رثاء حاراً

ومسلم في شعره يعتمد اعتماداً شديداً على الإطار التقليدي وما يتربط به من جزالة الأسلوب ومتانته ورصانته وصناعته وقوته حتى فى غزله وخمرياته فانه لا يهبط ابداً على نحو ما يهبط ابو نواس وابو العتاهية الى الأساليب اليومية وحقاً مر بنا في الفصل السابق انه له قصيدتين من وزن مولد ، ولعله جاري فيهما أصحاب

مذهبه الصنعة وتجديدتهم في البحور الشعرية ، وهما عل كل حال شذوذ في عمله ، أما بعدهما فشعره يغلب أن يكون من الأوزان الطويلة حتى تتلاءم مع ما يريد من جسرس قوي ، ومن ضخامة البناء في اللفظ والتعبير ، وهو من هذه الناحية يعد في طليعة من دفعوا الشعراء في هذا الاتجاه ، فقد كان الشعر العربي عند أبي نواس وأبي العتاهية على وشك أن يزايل هذا الأسلوب إلى الأسلوب الشعبي اليومي ، فأمسك به مسلم دون هذه الغاية ورده في قوة إلى جزالته القديمة وجعلها مقوماً أساسياً من مقوماته ، بل جعلها المقوم الأساسي الأول بين هذه المقومات ، وعم هذه الذوق لا عند خلفائه من أصحاب مذهب التصنيع مل أبي تمام بل أيضاً عند أصحاب مذهب الصنعة وكبارهم خاصة ، مثل البحتري ، ولا تظن أن هذا الأسلوب الجزل القويم لم يكن يكلف مسلما مشقة ، بل لقد كان يكلفه عناء أي اصفطاء اللفظ والملائمة بين اللفظة واللفظة في الجرس ، حتى يتم له ما يريد من ضخامة البناء وروعته ، وهو بناء يقام على أعمدة ، هي الأبيات ، وكل بيت كسابقة في الضبط والإحكام ، وكل قصيدة ، بل كل مقطوعة كمثيلتها في هذا النمط الذي لا يتفاوت نسيجه ، ومن أجل ذلك يختلف اختلافاً بيناً من أبي نواس وأبي العتاهية ، فشعرهما فيه القوى والضعف وفيه المتين والمهلهل ، لسبب بسيط وهو أنهما من ذوق أصحاب الصنعة ، لا يبعدان حين النظم في التكلف ، بل كثيراً ما يقولان الشعر بديهة وارتجالاً في غير ترو ، أما مسلم فصاحب روية ، لا يرتجل ولا يقول الشعر عفواً ، فالشعر عنده صناعة مجهدة ، لابد فيها من التريث والتمهل ، ولا بد فيها من الصقل والتجويد ، ولعل ذلك ما جعل ديوانه صغيراً بالقياس إلى دواوين معاصريه من أمثال بشار وأبي نواس .

وهذا البناء الضخم عنده لا تكفي ضخامته وحدها في رأيه ، فلابد أن يضاف إليه الزخرف الجديد الذي كان يأتي على قلة في الشعر القديم ، وأكثر منه بشار وخلفاؤه ، ولكنهم لم يتخذوه مذهباً ، أما مسلم فقد رأي أن يطبقه على شعره ، واقرأ له القصيدة الأولى في ديوانه وهي في مديح يزيد بن مزيد ، ستراه يستهل غزلها على هذا النحو :

أجــــررت حبــــل خليـــع في الـــصبا غـــزل وشمـــــــرت همـــم العـــــذال في العـــذل

هـــاج البكـــاء عـــلى العـــين الطمـــوح هـــوى مفـــــرق بـــين تـــوديـــــع ومحتمـــــل

كـــــيف الـــســـلو لقـــــلب راح متـــبلاً يـــــهذي بـــصاحب قلـــب غـــير مختبـــل

والجهد واضح في الأبيات سواء من حيث لاختيار الألفاظ أو من حيث إضافة زخـارف الجنـاس والطباق فهو يجانس بين العذال والعذل ، وهو يطابق بين المختبل وغير المختبل وفي البيت الثاني طباق دقيق بين الهوى المقسم بين التوديع والاحتمال او الارتجال . فإن.التوديع يتضمن الإقامة القليلة ، وهى عكس الارتجال ، ونمضي معه الى المديح فتراه كله على هذا الطراز .

وأنت تراه يعتمد على النحت وقوة البناء كما يعتمد على الزخرف والتصنيع حتى يـصبغ هـذا الديباج المتين بالألوان والأطياف . وانظر في البيت الأول تراه يستعير الشهاب للـسيف ويجعلـه شـهاب الموت ، وهو شهاب اسقط منه على فوارس الأعداء الشعل فتحرقهم حرقاً لا يبقـي ولا يـذر وحـاول في البيت الثاني بلون أخر هو لون الجناس فجناس بين فتر وافترار ، وادخـل في ذلـك ضربـاً مـن المـشاكلة ، فيزيد مبتسماً وتفتر الحرب عن أنيابها القاتلة الغلاظ ولم يكتف بذلك في البيت فقـد أضـاف فيـه لونـاً جديداً هو لون الطباق ، فطابق بين تغير الوجه وعبوسه وابتسام يزيد وكل ذلك ليحقـق لنموذجـه مـا يستطيع من زخارف فيه بين مهج ورهج ، ثم بين اجل وأمل ويروى انه اجتمع بابي العتاهية فقال له : " والـلـه لو كنت لاارضي ان أقول مثل قولك:

الحمد والنعمة لك

والملك لا شريك لك

لبيك إن الملك لك

لقلت في اليوم عشرة آلاف بيت ولكنى أقول :

موف على منهج في يوم ذى رهج كأنه اجل يسعي إلى أمل

فهو يحس احساساً دقيقاً بأنه يتناول حرفته بطريقة أخرى ليست هي طريقة الصانعين من أمثال أبي العتاهية ، إنما هي طريقة المصنعين التي ابتدأها والتي تجعل الشعر نحتاً وصقلا وزخرفة وتنقيماً ونتقل مع مسلم إلى بيته الرابع فنرى فيه طباقاً واضحاً بين الاستعجال والمهل وطباقً دقيقاً بين النميل او الأخذ بالرفق والأخذ مع الإعياء ويصوغ في البيت الخامس صياغة جديدو بيت زهير في مديح هرم بن سنان .

قد جعل المبتغون الخير في هرم والسائلون إلى أبوابه طرقا

ويستمر فيتحدث عن قري يزيد وضيافته وكرمه ويجنح الى المشاكلة فيزيد له ضربان من القرى ضرب في المسلم كقرى الاجواد وضرب أخر في الحرب ، اذ يقرى الموت أرواح الشجعان ونراه في البيت السابع يطرق قارئه بصورة بارعة اذ جعل يزيد يزيد يكسو السيوف بدماء أعدائه ويتوج القنا والرماح برؤوسهم و ينتهي مسلم اخيراً إلى فكرة عربية قديمة طالما رددها الشعراء من عهد بشر بن ابي خازم والنابغة ، وهي فكرة الطير تتبع الممدوح في لحلة وترحاله لما تصيبه من جثث أعدائه ويجور مسلم الفكرة هذا التحوير الطريف ، اذ يجعل الطير تتعود من صاحبة عادة تثق به فيها وهي لذلك ما تزال تتبعه وتلاحقه من موضع الى موضع .

ولعلك لاحظت أثناء قراءة أبياته السالفة دقة تفكيره ، وهي دقة كانت تفتح له ابواباً من المعاني الخفية ، التي تروع السامع بغرابتها وطرافتها من مثل قوله في الغزل.

تطور النثر

كان العصر العباسي الأول عصراً خطيراً حقاً في تطور النثر العربي ، إذ تحولت إلية الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وكل معارف الشعوب التى أظلتها الدولى العباسية ، بحيث تدخل جميع ذلك في تركيبة وأئتلف مع نسيجه وتولد منه جديد تلو جديد .

وتم هذا التحول – كما مر بنا فى الفصل الثالث – عن طريق النقل والترجمة ، وهو طريق عني به الخلفاء العباسيون – ووزراءهم وخاصة البرامكة – إلى أبعد حد ممكن ،كما عني به أفراد مختلفون مثل ابن المقفع وآل نويخت .

وطريق ثان لعله كـان أوسـع مجـرى ، هـو تعريـب الـشعوب الـشرق الاوسـط وانتقـالهم إلى العربية بكل ما ورثوه وثقفوه من فنون المعرفة . ولم ينتقلوا بمعارفهم فقط ، بل انتقلوا أيضاً بعاداتهم وتقاليدهم وطرائقهم فى المعيشة مما هيأ لتفاعل واسع بين العرب والشعوب المستعربة ، بل مـما هيـأ لظهور المدينة العربية فى تلك الأقاليم التي دانت بالإسلام ، وهـى مدنيـة قوامهـا مـزيج مـن التعـاليم الإسلامية الروحية والخلقية ومن الادب العـربي بـشعره ونـثره ومـن صـور الحيـاة العقليـة والماديـة في المحيط العربي الجديد .

وعلى سنن من طبائع الحياة أخذ النثر يتطور واسعاً ، إذ حمـل خلاصـة هـذه المدينـة وملئـت أوانية بشرابها الجديد الذي أختلفت ألوانه باختلاف ينابيعة الكثيرة ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع . وقد أظهر النثر العربي مرونة واسعة إذ استطاع أن يحتوى كل هذه الينابيع وأن يتسع لها صدره ، بل لقد غدا كمجرى نهر كبير ترفده جداول من ثقافـات متنوعـة تنوعـا لا يكـاد يحمـد أو يحـصى ، وكـل جداول يذوب فى النهر بمجرد دخوله فيه ، إذ يتحول عربيا ، ويتحول معـه كـل مـا يحمـل مـن سـيول المعارف ، حتى الفلسفة والعلوم فإنهما لم يستعصيا على هـذا التحـول ، إذ سرعـان مـا صبا فى قوالـب عربية ملائمة .

وكان ذلك إيذانا بتعدد شـعب النـثر العـربي وفروعـه ، فقـد أصـبح فيـه النـثر العلمـي والنـثر الفلسفى ، وأصبح فيه أيضاً النثر التاريخي ، على شاكلة ما كان عند الأمم القديمـة ، وحتـى النـثر الأدبي الخالص أخذ يتأثر بملكات اللغات الأجنبية وخاصة اللغة لقصص كليلـة ودمنـة الهنـدي الاصـل ونقلـة لكثير من آداب الفرس الاجتماعية والاخلاقية ونظمهم فى السياسة والحكـم ، مـما كـان أعمـق الأثـر فى الرسائل الديوانية وفى نشوء الرسائل الأدبية التى تعني بالكتابة فى موضوع محدود ، مما نـسمية اليـوم باسم المقالات ، إذ يعالج الكاتب موضوعاً فى طائفة من الصحف .

ولم يقف النثر العربي عند حمل المضامين العلمية والفلسفية الجديدة التي جاءتـه من لدن الاجانب ، فقد انـبرت العبقريـة العربيـة في هـذا العـصر تـضع العلـوم اللغويـة والشرعية ، وهو وضع كـان واسـع الأثـر في تمهيـد اللغـة وتيـسيرها وجعلهـا لغـة علميـة

محددة الألفاظ والاصطلاحات التي ترسم المعاني رسما دقيقاً . وقد مضت هذه اللغة تركض ركضاً لا مجال العلوم الإسلامية والعربية الخالصة فحسب ، بل أيضاً فى مجال العلوم الطبيعية والكونية ، فإذا لنا علماء كماويون ورياضيون مختلفون ، ولهم مصنفاتهم ومباحثهم المبتكرة .

وعلى نحو ما أثمرت العقلية العربية في المجال العلمي أثمرت في المجال الفلسفى وخاصة فى بيئات المتكلمين ، إذ مدوا مباحثهم في العقائد الإيمانية إلى كل شعب الفلسفة ، وأستطاعوا – وخاصة المعتزلة منهم – بانظارهم العقلية أن يدلوا في جميع هذه الشعب بآراء جديدة طريفة على نحو ما يفصل ذلك الشهر ستاني في كتابة (الملل والنحل) حين يعرض لمذاهب المعتزلة المختلفة وما يقولونه في الأجسام والأعراض والجواهر والحركة والسكون والكمون والتولد والطفرة والوجود والعدم والروح والنفس والعقل وإدراك الحواس والكم والكيف والألوان والخير والشر 0 وكل ذلك كان له آثار بعيدة في النثر العربي ، لا من حيث الألفاظ والمصطلحات الجديدة فحسب ، بل أيضاً من حيث ذخائر الفكر الفلسفي اليوناني والعربي التي التقت في أوعيته وأوانيه والتي جعلته يعرف صورا من تحليل الأفكار وتركيبها لا عهد بها ، كما حعاته يعرف القياس المنطقى الصحيح وكرق الاستدلال والتعليل ودقائق المعاني وفرق ما بين السبب والمسبب وما بين الجنس والنوع والفصل والخاصة وما بين الحجة والشبهة والممكن والمحال والمعقول والموهوم والبرهان الجلي والبرهان الحقي ، مما جعل الفكر العربي يتحول إلى ما يشبة كنزاً سائلا بما لا يخصى ولا يستقصى من الخواطر والمعاني .

ومن المؤكد أن التعبير عن كثير من هذه المعاني والخواطر لم يكن مألوفاً للعربية، غير أنه قيض لها من نابهي المتكلمين والكتاب والمترجمين من مد طاقتها وجعلها تسيغ تلك الخواطر والمعاني دون دخول أى ضيم عليها من شانه أن يمحو طوابعها أو يحور على خصائصها ومقوماتها ، بل لقد أخذت تونق فى أثناء هذا التحويل فى المجال العلمي والفلسفى أو المجال الأدبي الخالص .

ولم تقف المسالة عند احتفاظها بالقوالب العربية وأوضاعها اللغوية وتيسير هذه القوالب والاوضاع وتذليبها للمعاني العلمية والفلسفية العميقة وأدائها بخفيات حدودها ورسمها رسما محدداً دقيقاً ، بل امتدت إلى استحداث أسلوب مولد جديد ، وأسلوب يحتفظ للغة بكل مقوماتها ، كما يحتفظ بالوضوح والتجافى عن الألفاظ الغامضة والمعاني المبهمة ، بل إنه ليحرص على الأجاء البليغ ، بحيث يروق المتكلم والكاتب والمترجم والسامع بعذوبة منطقة ، بل بحيث يلذ الأذان حين تستمع إليه كما يلذ العقول والقلوب .

وهو أسلوب قام على هجر كثير من الألفاظ البدوية الحشوية الجافية التي تنبو على ذوق أهل الحاضرة كما قام على الارتفاع عن الألفاظ العامية المبتذلة مع العناية بفصاحة اللفظ وجزالته ورصانته والملاءمة الدقيقة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الصوتى . وبذلك لم يقف عند الاداء الفصيح فحسب ، إذ اتخذ لنفسه أصولا بيانية تشيع فيه الرونق والجمال ، مما جعل جها بذته يتسالون طويلا عن البلاغة ، وهو سؤال يلقانا فى جميع البيئات وتلقانا نعه أجوبة كثيرة .

والطريف أنهم لم يكتفوا فى ذلك بما قد يكشفونه ببصائرهم الحاذقة ، إذ مضوا يطلبون ما عند الأمم الاجنبية من وصايا فى البيان والبلاغة سواء الفرس أو اليونان أو الرومان ، وحتى الهنود ، أذ نجد معمراً صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة يتعرض لبهلة الطبيب الهندي فى عصر البرامكة يسالة عن رأي أمتة فى البلاغة ، فيعطية فى ذلك صحيفة مكتوبة بالسنسكريتية ،ويقول له إنني لا أحسن ترجمتها لك ، لأنني لم أعالج صناعة البلاغة فأثق من نفسى بالقيام بأداء معانيها وخصائصها على الوجة الصحيح ، ويلقى معمر بالصحيفة التراجمة الذين يحسنون النقل من السنسكريتية إلى العربية فينقلونها له ، وقد احتفظ بها الجاحظ فى البيان والتبين ، وهى تطلب إلى الخطيب أن يلائم بين كلامه ومستمعيه وأن لا ينقح ألفاظه كل التنقيح إلا لمن حاز قسطا من الحكمة والفلسفة ممن خبروا الكلام والمعاني ، وأن يحرص على أستخدام الألفاظ المحددة البينة التى تنفي بمعانيها وتؤديها أداء سليما دون زيادة أو نقص .

ومن المحقق أن المعتزلة والمتكلمين بعامة عنوا فى هذا العصر عناية واسعة بمعرفة الأصول التي تقوم عليها براعة القول ، إذ كانت صناعتهم تقوم على إحسان فن الكلام أو بعبارة أخري فن المناظرة فى المسائل الدينية والعقيدية وما يتصل بها من بعض المعاني الفلسفية . ونستطيع أن نجد مقدماتهم فى العصر الأموي وفى مساجد البصرة والكوفة حيث كان يجتمع ممثلوا الأحزاب السياسية فيتحاورون فى مسائلهم وما يتفرع عنها من المسائل الدينية ويحاول هذا أو ذاك إقناع خصمه أو قهره والغلبة علية من المسائل الدينية ويحاول هذا أو ذاك إقناع خصمه أو قهره والغلبة عليه بالحجة القاطعة والبيان الخلاب . وما نصل إلى العصر العباسي ، بل إلى أواخر العصر الأموي ، حتى نجدهم يقيمون المناظرات ، ويجتمع الناس من حولهم ليروا من يظفر بخصمه ويقطعه عن الكلام قطعاً .

وطبيعي أن يدفع ذلك المتكلمون الحاذقون فى ذلك بهض ملاحظات عن البيان والبلاغة ، ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا سائلا يتعرض لمعتزلى كبير فى أوائل هذا العصر ،هو عمرو بين عبيد ، فيسالة عن البلاغة وقطبها الذي تدور علية ، ويجيبه بأنها (تخير اللفظ فى حسن الأفهام وتزيين المعاني بالألفاظ المستحسنة فى الآذان المقبولة عن الاذهان) ويدور السؤال طوال العصر وتعدد إجابات المعتزلة عليه من مثل قول العتابي لسائل سأله عن البليغ والبلاغة ، فقال له :

(كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسسة ولا استغاثة فهو بليغ ، فان أدرت اللسان الذي يروق الألسنة ويفوق كل خطيب فأظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق . فقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحبسة ، فما الاستعامة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هناه ، ويا هذا ، ويا هيه ، واسمع منى ، واستمع إلى ، وافهم عنى ، ولست تفهم ؟ أو لست تعقل ؟ فهذا كله وما اشبهه عى فساد)

واوضح أن العتابي يجعل البلاغة فى التدفق البياني دون إعادة وتكرار ودون حصر وعى ، ودون استعانة بحشو يؤذي الذوق الحضري المهذب وتلك هى البلاغة العادية ، أما البلاغة الرفيعة فهى التى ترفع الحجاب عن غوامض المعاني وهى التى

تبلغ من الحذق ما تعرض به الباطل فى صورة الحق معتمدة على خلابة اللسان وتزيين المعاني فى القلوب ، والاحتيال على ذلك من قدرة المتكلمين حوله فى مناظرة خصومهم وإفصاحهم بالحجج الصحيحة تارة ، وتارة بالحجج غير الصحيحة التي يستطيع البليغ التام الذي يتقن أبنية الأدلة والكلام أن يموهها على السامع حتى يظن أنها صحيحة صحة تامة . ولا نبالغ إذا قلنا إن صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة التى احتفظ بها الجاحظ فى بيانه هى أروع ما أثر صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة التى أحتفظ بها الجاحظ فى بيانه هى أروع ما أثر عن المعتزلة فى هذا العصر بصدد الأصول البلاغية العامة ، وهو يستهلها بأن الأديب سواء كان خطيباً أو كاتباً أو شاعراً ينبغى أن يلاحظ نفسه فلا يقدم على الكلام إلا إذا كان مستعداً متهيئا تمام التهيؤ ، فارغ البال ناشطا له تمام النشاط . وينصحه بأختيار ألفاظه وتفصيلها على المعاني بحيث تكون بقدرها لا فاضلة عنها ولا مقصرة ، كما ينصحة بأن تخلو ألفاظه من كل غريب وكل تعقيد ، وأن تؤدي دلالتها أداء واضحا مهما كانت دقيقة عسيرة وأن تتلاءم معها بحيث توديها أداء تاما يحيط بدقائقها أن كانت من الدلالات الغامضة وفى الوقت نفسه تلقى عليها كل ما يمكن من أضواء تكشفها من جميع أطرافها ، مع تذليلها وتيسيرها وعرضها فى لغة وعرضها ف5ى لغة متوسطة بين لغة العامة المبتذلة ولغة الإعراب الخشنة المملوءة بالغريب .

وينصح من لا تواتيهم طبائعهم بالرصف الحسن للألفاظ ووضعها فى مواضيعها الصحيحة دون نبو أو شذوذ أن يكفوا أنفسهم عن صناعة البيان والكلام البليغ ، وأولى منهم بهذا الإتيان بشئ من الكلام ومعانية أو بعبارة أخرى بين كلامه والموضوع الذي يتحدث عنه ، بل لابد له من ضميمة ثانية هي إحسانه الملاءمة بين كلامه والمستمعبن وأحوالهم النفسية والعقلية ، بحيث يجدون فى كلامه اللذة والمتاع ، ومن هنا يطلب إلى المتكلم إذا خاطب أوساط الناس أن لا يرتفع عن مداركهم بما يورد عليهم من أصطلاحات المتكلمين ، حتى لا تنقطع الصلة بينه وبينهم ، وأما إذا خاطب المتكلمين فلا بأس من إيراده لهذه المصطلحات التي يفهمونها فهماً حسناً ، والتي قد يجدون فيها شيئاً من المتاع .

وملاحظات كثيرة أخري كان يلاحظها المتكلمون معتزلة وغير معتزلة فى شئون البيان والبلاغة ، وهى متناثرة فى كتاب البيان والتبين للجاحظ ، ولا بد أن ملاحظات أخري سقطت منه ولم يسجلها . ولم يكن المتكلمون وحدهم الذين يتعمقون فى معرفة أصول البيان والبلاغة ، فقد كان يشركهم فى ذلك كتاب الدواوين والمترجمون ، ومن خير من يمثلهم فى مطالع العصر ابن المقفع ، ويروي أنه سئل عن البلاغة وتفسيرها ، فقال :

(البلاغة اسم جامع لمعان تجري فى وجوة كثيرة ، فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والاشارة إلى المعنى والايجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السماطين وفى أصلاح ذات البين فالإكثار فى خطل والإطالة فى غير إملال . وليكن فى صدر كلامك

سيرة ابن المقفع

في حياة ابن المقفع على قصرها شيء من الاضطراب لا تجعلها مضطردة المعالم أما الباحثين ، ووالده فيما اروي الكتب ، واسمه " داذويه " رجل فارسي على دين المجوس ، كان فيم يبدو عليما بشؤون الحسبة والخزانة ، وكان في عداد الذين اعتمد عليهم حكام بني أمية في إدارة شؤون ملكهم ، فقد تولى خراج فاسر من قبل الحجاج، وقيل أن الحجاج ، وقيل أن الحجاج أمر يوماً بضربه في البصرة لمال احتجنه حتى تقفعت يداه ، فعرف بالمقفع ، وعرف ابنه بعده بابن المقفع .

مولده

وقد أنجب داذوبه المقفع في خلافة هشام بن عبد الملك عام 106هـ ، 724م ولداً اسماه "روزبه " وتعنى في الفاسية " المبارك " وكان مولده في بلدة بفارس اسمها " جور " على مقربة من شيراز ، وتعرف في هذه الأيام أباد ، واليها فيما يقال بنسب من والورد المعروف بالجوري .

نشأته

ويغلب على الظن ابن المقفع نشأ برعاية أبيه في بيئته الفارسية أول الأمر قبل أن ينزح بـه إلى العراق ويتخذ من مدينة البصرة له مقاماً ولعل هذا الشاة هي التي تفسر اطلاع ابن المقفع على ثقافة قومه الفرس وتشبعه بأفكارهم وتأثره بمذاهبهم ولا نستبعد أيـضا أن يتعهـد داذويـه ولـده بـالتعليم والتثقيف ويحرص على تزويده بمعارف الفرس حتى بعد رحيله الى البصرة وهو الرجل الذي بقي عـلى مجوسيته وظل يدين بلزرادشتية

نباهته

وغي البصرة التي تزدحم محافلها بالعلماء والأدباء والمتكلمين ، وحيـث سـوق المربـد ، عكـاظ الإسلام ، أتيح لا بن المقفع ، ذلك الفتى اليافع النابه ان ينفتح على تراث العرب وأفكار المـسلمين ، وان يعب من ثقافة عصره ما وسعه شغفه وطموحه وبدافع من حرص والد بن المقفـع وكـان مثقفـا أدبيـا على تهذيب ولده عبد اللـه وتثقيفه، وصله ببني الأهتم وهو قوم بلغاء سرت الفصاحة بينهم منـذ أن عرف بها جدهم الشاعر الجاهلي عمرو ابن الأهتم .

وما من ريب في ان هذه البيئة العلمية الخصبة هلا التي كونت شخصية ابن المقفـع الفكريـة ونضجت قريحته وأغنت موهبته وعجلت في تعريبه حتى ليمكن القول انه " باستثناء الجـاحظ " فـان عبد اللـه بن المقفع أهم شخصية بصرية على الإطلاق .

ولم يمض على ابن المقفع سـوى زمـن يـسير حتـى نبـه شـانه وذاع أمـره في أوسـاط الفـصحاء والبلغاء وانفتحت له بذلك ابواب الولاة والكبراء وغدا يتصدر الكتابـة في العديـد مـن الـدواوين ومـن ابرز من كتب لهم يزيد بن عمر بن هبيرة الذي تولى شئون العراق مـن قبـل مـروان بـن محمـد أخـر خلفاء بني أمية وقيل نه كتب بعد ذلك لأخيه داود عمر بن هبيرة وانه كان قد كتب قبل ذلك لأبيهما عمر بن هبيرة عامل بني أمية على كرمان وفى هذه المدة انعقدت بينـه وبـين عبـد الحميـد يـن يحـي كاتب الخليفة مروان بن محمد مودة راسخة .

وخلال الطور الأخر من حياة ابن المقفع فى ظل الدولة العباسية الحديثة كان عليه ان يساير روح المرحلة الجدية ، فراح يتصل برجال الدولة واخذ يفكر في اعتناق الإسلام وغدا كاتباً لسليمان بن على عم الخليفة المنصور وعامله على البصرة ولأخيه إسماعيل بن على والي الاهواز ثم الموصل ، وأصبح لأولاده ، كما كتب لأخيهما عيسي بن على والي العباسيين على كرمان ، وعلى عيسى اعتنق الإسلام .

اعتناقه الإسلام

نوى ابن المقفع اعتناق الإسلام أفضي برغبته هذه الى عيسي ابن على وكان كاتبا لديه فقال له " لقد دخل الإسلام في قلبى وأريد ان اسلم على يديك " فقال عيسي له " ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس ، فاذا كان الغد فاحضر " وأوضح عيسي اغتبط لهذا النبأ ووجد فيه ما يعث على الزهو ولهذا أراد أن يشهر ابن لمقفع إسلامه في مجلس حافل ، ولان ذلك من جهة أخرى يتفق مع ما لكاتبه من منزلة عالية في مجتمعه وعصره .

ثم حضر طعام لعيسي عشية ذلك اليوم ، فجلس ابن المقفع وشرع يأكل ويزمزم على عادة المجوس فبادره عيسي قائلا : باستغراب " أتزمزم وأنت على عزم الإسلام ؟ فأجابه " لقد كرهت ان ابيت على غير دين فلما اصبح احلم على يده وصار كاتباً له واختص به وتسمي منذ ذلك بعبد الله وتكنى بأبي محمد .

مقتله

ثم حدث أن ثار عبد الله بن على ابن أخيه الخليفة أبى جعفر المنصور وكان يأمل ان تؤول اليه الخلافة يوماً ويبدو أنه كان يري نفسه اوى بالخلافة من ابن أخيه لكونه بطل معركة الزاب الفاصلة وقاطع دابر بنى أمية في الشام ولكن السفاح خيب أمله حين عقد الخلافة من بعده لأخيه المنصور وهكذا وجه المنصور إليه أبا مسلم الخراساني فاخمد ثورته وشتت أنصاره ففر عبد الله ولاذ بأخوية سليمان وعيسي في البصرة . وعندما ألح أبو جعفر في طلبه راح الشقيقان يتكاتبان مع عمهما بشان التماس الصفح عن أخيهما عبد الله واقترحا عليه ان يؤمنهما على عمه ، فرضى الخليفة ، ثم عمد عيسي إلى كاتبه ابن المقفع يطلب منه ان يدبح كتاب الأمن المراد

ويقال أنه أوصاه بان يتشدد يفيه دفعاً لاى لبس قد ينفذ منه ابو جعفر لا لحاق بعمه التمـرد ، ولكـيلا يجد منفذاً

كليلة ودمنة

اتسم الشرقيون دون سائر الأمم في العصور الخالية بإبراز الحقائق والحكم على صـورة الأمثـال ومن خلال الحكايات فكان لهم فضل التقدم على سواهم في إنشائها وقد امتاز من بـين مـا وضـعوه في هذا المعنى كتاب " كليلة زدمنة" الذي غدا قسمه بين أمم ثلاث ، هي الهند والفرس والعرب .

وقد ظلت الآراء امداً طويلاً من الزمان في ريب من أصل الكتاب وصاحبه ، فـذكر ابـن النـديم أن ابن المقفع كان من السمار وانه وضع تلـك الحكايـات للمـسامرة وذهـب ابـن خلكـان إلى أن ابـن المقفع هو الذي وضع كتاب كلية ودمنة ثم لم يلبث أن استدرك بقوله " وقيل انه لم يـضمه وإنمـا كـان بالفارسية فنقله الى العربية وان الكلام الذي في أول الكتاب من كلامه "

أصول الكتاب

وغدا ثابتاً أن أصول كتاب كليلة ودمنه من أقاصيص هندية على انه ليس هناك مـا يـدل عـلى وجود كتاب هندي بعينه حوى تلك المجموعة الكاملة من قصص كليلة ودمنة ، ولكن محتواه مبثـوث في عديد من الكتب على تفاوت فيها تضمه من أبوابه .

ومن ابرز هذه الأصول الهندية كتاب " بانجاتانترا " الذي إلفه باللغة البكـستناية ، اى الهنديـة القديمة برهمان وشنو احد احكم الهنود في القرن الرابع الميلادي . ومعنى عنوان هذا الكتاب " خمـسة دروس في الحكمة " و أول من أورد هذه الراى أبو الريحان اليرونى عندما قال في رصد تاريخـه لأحـوال بلاد الهند ، وقد اقام فيها امداً طويلاً " ولهم فنوف من العلم أخر كثيرة ، وكتب لا تكاد تحصى ، ولكن لم أحط بها علماً ، وبودي ان كنت ا تمكن من ترجمة كتاب " بنجاتانترا " وهو المعروف بكتاب " كليلـة ودمنة

ويعود الفضل بعد ذلك الى المستشرق الالمانى هرتل الذي عثر على هـذا الأصـل الهنـدي ، فـألقى كثـيراً مـن الـضوء عـلى جـذور كليـل ودمنـة ، ويـضم بانجاتـانترا

ستة من أبواب كلية ودمنة هي باب الأسد والثور ، وباب الحمامة المطوقة ، وبابا البوم الغربان ، وباب القرد والفيل ، وباب الناسك وابن عرس ، وباب السائح والصواغ .

كما عثر باحثون آخرون على أصول هندية مغايرة منها كتاب " هروناجا " وكتاب " كرماجتكا " وكتاب " هتو بادوشا " كذلك ضمت ملحمة الهنود الشعرية المنسوبة إلى فياسا ثلاثة أبواب من كليلة ودمنة وهي باب الجرذ والسنور ، بابا الملك الطائر ، وباب الأسد وابن آروى وقد تكونت في الهند قبيل حقبة الميلاد وبعيده .

وثمة جانب أخر من أبواب كليلة ومنة مستمد من أصول فارسية كما يرجع الباحثون وكما يدل عليه مضمونها ، وذلك في أبا بعثة الملك كسرى انوشران لبرزويه المتطبب إلى الهند ، وباب برزوية المتطبب ، وباب ملك الجحذان ، أما الباب الأول فهو مقدمة للترجمة البهاوية ، اى الفارسية القديمة ، وضمت سيرة الطيب بروزيه وقصة سفره الى الهند متخفياً ثم حصوله بعد حين على الكتاب وتقديمه اياه الى كسرى انوشروان ، وقد وضعت هذه المقدمة بإيعاز من برز جمهر وزير كسرى تلبية لامنية بروزيه واعترافاً بفضله وقد اشارت ملحمة الفرس " الناهنامة " للفردوسى إلى هذا الباب والى قصة وضعه في مستهل كتاب كليلة ودمنة والباب الثاني باب برزويه التطبب يروى فيه برزويه بنفسه سيرة حياته وكيف انه اثر دراسة الطب ثم جنح إلى التفقه في الدين ولكنه لم يجد في كل ذلك غناء حتى اطمأن إلى الحكمة أما الباب الأخر : ملك الجرذان فينطوي على إشارات ترجح انه لبس بهندي وانه يتحدث عن بلاد الهند باعتبارها بلاداً أخرى ، مثل عبارة " وفى ارض البراهمة " ولا يبعد ان يكون هذا الباب قد أضيف إلى كتاب كليلة ودمنة من قبل بعض المترجمين بعد عصر ابن المقفع ، لما يبدو على أسلوبه من مغايرة لأسلوب ابن المقفع .

وثمة باب عنوانه مقدمة الكتاب وضع على لسان على بن الشاه الفارسي بعد ابن المقفع واسم واضعه في بعض النسخ بهنود بن سخوان وغلب على الظن ان أصله عربي كما ان الباب السمي عرض الكتاب عربي ايضاً ووضعه في أوائل الكتاب ابن المقفع نفسه وعرض خلاله الغاية البعيدة من وراء هذا المصنف النفيس

ويجنح كثيرون الى ان باب الفحص عن امر دمنة هو من وضع ابن المقفع ايضاً إذ لـيس مـا يـشير الى أصل له فارسي او هندي على حسن ينطوي على روح إسلامية عربية تتصل بصورة القاضي ونحو ذلك .

أما سائر أبواب " كليلة ودمنة " فمل يعرف لها صال بعد على وجـه اليقـين مثـل بابـا الناسـك والضيف ، وباب مالك الحزين والبطة وباب الحمامة والتغلب ومالك الحزين ، ورما كانـت في أساسـها هندية أو عربية .

الترجمة من الفارسية والعربية

ورد في بعض النسخ العربية لكليلة ودمنة وهي ليست متطابقة تصريح لابن المقفع يقول فيـه " إنا رأينا فارس قد فسروا هذا الكتاب وأخرجوه من الهندية إلى الفارسية ألحقنا باباً بالعربية ليكون له رأس بستين فيه أمر هذا الكتاب لمن أراد قراءته وفهمه والاقتباس منه .

كما جاء في النسخة الفارسية المأخوذة عن العربية بعد ذلك ما ترجمته على لسان ابـن المقفـع " لما رأيت الفرس قد ترجموا الكتاب من الهندية إلى البهاوية ، رغبت أن يكـون لأهـل العـراق والـشام والحجاز نصيب منه وان الترجمة الى اللسان العربي الذي هو الفتهم.

وقد أشار أبو حنيفة الدينورى الى وجود كتاب كليلة ودمنة لدى الفرس وبلغتهم ، ما كـان لـه من خطر عندهم حسين قال : إن بهرام جوبين كان اذا انزل المنزل دعا بكتاب كليلـة ودمنـة فـلا يـزال منكباً عليه طول نهاره فقال كسرى : ما خفت بهرام قط كخوفى من الساعة حين أخبرت بإدمانه النظر في متاب كليلة ودمنة .

وقد وقع الكتاب بايدى الفرس في عهد كسرى انو شروان سـنة 579 م الموافـق لظهـور الرسـول محمد في عصر التمخض عن الإسلام وقيام معركة ذى قار ، فنقاوه إلى لغتهم الفهاوية ، ثم أضافوا إليـه ، كما تقدم بعض الأبواب وبعد نحو قرنين من الزمان اى في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي ، عمـد عبد الـلـه بن المقفع الى نقل الكتاب الى لغة العرب .

أما هذه الترجمة الفارسية فلم يعد لها من اثر ، كما ظلت الأصول الهندية امداً كويلا تائهة عبر العصور . وغدت ترجمة ابن المقفع العربية هي المصدر الوحيد لانتشار كتاب كليلة ودمنة بين شعوب الأرض ، ومهم الفرس أنفسهم ، وقد نقل إلى لغتهم هذه المرة من العربية كما نقل إلى أكثر لغات العالم القديمة ومنها السريانية واليونانية واللاتينية والمبرانية .

وقد كشف النقاب عن وجود نسخة لكليلة ودمنة باللغة السريانية وسبق أن ترجمت من السنسكريتية مباشرة وكان ذلك في سنة 570 م اى قبل أن يعمد الفرس إلى ترجمة الكتاب نفسه بنحو عقد من السنين وهذا يعنى أن ثمة ترجمة لكليلة ودمنة كانت قبل عصر ابن المقفع ، ولهذه الترجمة القديمة أهمية بالغة من حيث أنها استبعدت الأقوال التي كانت قبل عصر ابن المقفع ولهذه الترجمة القديمة أهمية بالغة من حيث أنها استبعدت الأقوال التي كانت تذهب إلى أن ابن المقفع هو مؤلف الكتاب وبخاصة بعد ان لم يعد الأصل الفارسي وجود فكانت الترجمة الرسيانية صورة للنسخة الفارسية التي نقلها ابن المقفع إلى العربية ، ولعلها بذلك أقدم ترجمة لكتاب كليلة ودمنة على الإطلاق ، بما في ذلك ترجمة ابن المقفع العربية ، وان لم يكن لها من التأثير أم كان للترجمة العربية .

نشر كليلة ودمنة

رأى كتاب كليلة ودمنة النور مطبوعاً بالعربية لأول مرة في باريس عام 1816 بعناية المستشرق " دو سامى " ثم نشر على غرار هذه الطبعة في مصر ، وتعددت طباعته بعد ذلك فى القاهرة وبيروت وكانت اجمل طبعاته وأقربها الى الأصل الفارسي طبعة القاهرة سنة 1941 التي نشرها عبد الوهاب عزام بدار المعارف عن مخطوطة هامة في ايا صوفيا بتركيا .

وقد ترجم كتاب كليلة ودمنة مع دراسات وافية الى اللغات الألمانية والانكليزية والايطالية والروسية والفرنسية والتركية والايطالية والاسبانية وهو يقرأ الآن في أكثر من خمسين من لغات أهل الأرض .

تسمية كليلة ودمنة

كليلة ودمنة اسمان من أسماء الأعلام أطلقا على حيوانين من فصيلة أبناء آوى ، قال ابن المقفع في بداية الفصل الأول من الكتاب ، وهو باب الأسد والثور وكان ممن معه (الأسد) ابنا آوى ، يقال لأحدهما كلية وللأخر دمنة ، وكلاهما ذو أدب ودهاء . وقد ذكر اسمي كليلة ودمنة في بابين اثنين من أبواب الكتاب الأساسية وعددها خمسة عشر باباً احدهما " باب الأسد والثور " والأخر " باب الفحص عن أمر دمنة " وهما بمثابة البطلين الذين تدور حولهما الأحداث أما سائر أبواب الكتاب فلا علاقة لها بهذين الاسمين وهذا يعنى أن تسمية كتاب باسمها هو من قبيل إطلاق الجزء على الكل وهذا ما درج عليه كثير من المؤلفين القدامى وقود عمد الخليل بن احمد معاصر ابن المقفع إلى تسمية معجمه الرائد بالعين نسبة إلى أول حرف ابتدأ به كتابه ، وهذا ما عمد إليه أبو تمام عندما أطلق على مختاراته الشعرية اسم الحماسة ، وهو الباب الأول والاهم في كتابه ، وباب الأسد والثور في كتاب كليلة ودمنة وأكبرها .

عروبة كليلة ودمنة

يعد النقاد العرب القدامى كتاب كليلة ودمنة في الطبقة الأولى من كتاب العرب، ويصنفه بعضهم في عدد الكتب الأربعة المتقدمة الى الإجلال يدل على أن العرب كانوا يتعزون بهذا الكتاب ويعدونه أثرا عربياً يقرن مع ارفع الآثار الاخري الأصيلة فهل كان العرب يحلون هذا الكتاب الأعجمي تلك المنزلة لمجرد ترجمته إلى لغتهم ؟

ان استقراء النفسية العربية السالفة ينم على ان العربي كان شديد الاعتزاز بأدبه ، قوى الاعتداد بشعره ، حتى أنه كان يستقد احيانا كما ذهب الى ذلك الجاحظ ان الله قصر فضيلة الشعر على العرب او انهم كادوا يستأثرون دون سائر الامم بملكة الفصاحة وما من رب في ان هذا الاعتداد المفرط كان فى مقدمة الأسباب التي حالت بينهم وبين الآداب الأخرى وبخاصة أدب الإغريق الذين اخذ العرب فلسفتهم ومنطقهم واشاحوا بوجوبهم عن ادبهم .

اما النقاد العرب من كتاب كليلة ودمنة ، ومعظمهم كانوا يتمثلون تيار المحافظة في مجال اللغة والأدب ، ويتسمون بحساسية مفرطة تجاه كل جديد فكان موقفهم مغايراً بل ينطوى في ضوء ما تقدم على الغرابة فقد اعجبوا بكليلة ودمنة برغم انتمائه الى وثنية الهنود وثنوية الفرس ومثل هذه الظاهرة يمكن تفسيرها في نقاط عديدة :

- ثمة ابواب عديدة طرات على الكتاب في عهد العرب فاخرجته بعض الشىء عن اعجميته ، مثل باب عرض الكتاب الذي كتبه ابن المقفع ، باب الفحص عن امر دمنة الذي يرجع الباحثون ايضا انه كتبه بقلمه كما ان ثمة ابواب اخر ليس لها وجود في الأصول الهندية وليس بعيداً ان تكون عربية مثل باب الناسك والضيف وباب مالك الحزين والبطة ، وباب الحمامة والثعلب مالك الحزين .

- من الثابت ان كتاب كليلة ودمنة لا يرجع في أساسه الى أصل واحد في السنسركيتية ، ولكنه مستمد من اصول متفرقة كانت في الهند ، اى انه لم يكن هناك كتاب واحد عند الهنود يضم هذه الفصول كما لم يكن ثمة كتاب يعرف لديهم بهذا الاسم .

- ومع اعتقادنا بان ابن المقفع ترجم العديد من أبواب الكتاب فإننا نعده ارق بالى ان يكون فيه مؤلفا فقد عربه ولم يقف عند حدود ترجمته ومن المؤكد انه تصرف في ترجمته تصرفا كبيراً باعد بينه وبين الكثير من نصوص الأصول بحيث " تلونت هذه الأساطير بالروح الإسلامي من ناحية ، وبروح اللغة العربية وتراثها الذي يظهر في صورة أمثال وحكم .

تأثير كليلة ودمنة

يقف كتاب كليلة ودمنة الى جانب كتب عربقة بارزة كان لها اثر بعيد في الأدب العربي ومن مظاهر احتفال العرب بهذا الكتاب ان عمد بعضهم الى نظم أبوابه وأقاصيصه شعراً و أول من تصدي الى ذلك الشاعر ابان ابن عبد الحميد اللاحقي في أرجوزة مطولة وكان معاصراً لابن المقفع ومما يؤسف له ان أكثر أجزاء هذه المنظومة عبث بها يد الزمان فلم يصل إلينا منها سوى شذرات لا تتعدي ثمانين بيتاً على حين بلغت في ساسها أربعة عشر ألفا من الأبيات .

وذكر ايضا ان سهل بن نوبخت قد عمد الى انظمة في هذا العصر ايضا وبعد ذلك نظم كتاب كليلة ودمنة ابن الهبارية من شعراء القرن الخامس الهجري (504 هـ - 1100 م) وجعل عنوانه نتائج الفطنة فى نظم كليلو ةدمنة ، وقد وصل الينا نظمة كاملا تقريباً ويذكر في ترجمته انها خير من ترجمة ابان .

غير ان اكثر كتب هذا الشعر يذهب بطلاوة القصص النثري ، ويعوق تدفق مضمون الكتاب ولا يرقي الى رونق الى دبياجية ابن المقفع وتوجد منظمة اخرى اسمها غزة الحكم في امثال الهنود والعجم من نظم عبد المؤمن الصاغني .

وثمة اخرون اثروا تقليد كليلة ودمنة ومنهم ابن الهبارية نفسه اذ عمد الى النظم على غرار كليلة ودمنة وقد اسمى كتابه هذا الصدح والباغم " ومن هذا القبيل كتاب ابن ظفر سلوان المطاع فيعدوان الطباع " وقدمه لبعض القواد في صقيلة وعلى هذا الغرار الف ابن عربشاء فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء ولإخوان الصفا في رسائلهم رسالة في المناظرة بين الحيوان والإنسان تشبه من بعض الوجوه طابع كليلة ودمنة وينسب الى أبي العلا المعرى كتاب اسمه القائف على مثال كليلة ودمنة .

مقدمات كليلة ودمنة

يعد باب الاسد والثور بداية لصلب الكتاب غير ان ثمة اباوابا تسبقه وتكون بمثابة مقدمات لكليلة ودمنة وهي تكشف ظروف تاليف الكتاب ومصاقده

القمدمة ، لعل بن الشاه الفارسي وتسرد قصة تاليف الكتاب من اساسها وان واضعة هو (بيدبا) راس البراهمة في الهند وفيلسوفها ، وقد جعله " على السنة البهائم والطير صيانة لغرضه الاقصي فيه من العوام وضننا بما ضمنه عن الطغام "

ان الاسكندر ذى القرنين حين قد الى الشرق واندفع فاتحا نحو الصين استعد " فورك " ملك الهند لملاقاته في جيش لجب قوامه الكثير من المدة والعتاد وفي مقدمته القيلة واشداء الفرسان فتربث الاسكندر للامر وكان معه صناع كثيرون اصطحبهم من البلدان المفتوحة فأمرهم بأن يصنعوا له خيلاً من نحاس مجوفة عليها تماثيل من الرجال على بكر تجري بها ، اذا دفعت مرت سرعاً وامر اذا فرغوا منها ان تجنى

اجوافها بالنفط والكربيت وتضرم فيها النيران فان الفيلة اذا لقت عليها خراطيمها وقت الالتحام والقت بمن عليها واتجلت المرعكة عن ظفر الاسكندر بفورك وقتلته اياه واستيلائه على بلاد الهند .

ثم مضى الاسكندر الى بلاد الصين بعد ان ولى رجلا من ثقاته على الهند ولم يلبث أهل الهند ان ثاروا بالرجل وقالوا ليس يصلح للسياسة ولا ترضي الخاصة ولا العامة ، ان يمتلكوا عليهم رجلاً ليس منهم ولكوا أمورهم رجلاً من بينهم اسمه دبشليم ولكن دبشليم عبث برعاياه واتصغر امرهم وساء السيرة فيهم .

تكون الجاحظ

مدينتا البصرة والكوفة اللتان انشئتا في العراق خلال العقد الثاني من القرن الأول الهجري ما لبثا الا قليل حتى انقبتا الى حاضرتين من اكبر حواضر العلوم والأدب التي عرفتها ديار العروبة والاسلام.

اما البصرة التي كانت منبت الفقهاء والمتكلمين والرواة والمحدثين والنحاة واللغوين فقد غدت ايضاً موئل الكتاب والمؤلفين والشعراء والتأدبين وكما كانت هذه المدينة موطن ابن المقفع أصبحت بعد ذلك موطن الجاحظ

فالجاحظ بصري المولد ، بصري المنشأ بصري الوفاة ويرجع بعضهم ان عمرو بن بحر هذا يتحدر من قبيلة كنانة التى كان لها النسىء على حين يجنح بعضهم الى اعتبار اب عثمان من احفاد الرقيق الذين كانوا بين يدي كنانة في تجارتها الواسعة عبر البحر الاحمر مع بلاد النوبة وقد يعود الى هذا الاصل الافريقي قبح وجه الجاحظ ودمامته والثابت على ايح حال نشاء في اسرة متواضعة وعاش فى كنف ابوين فقيرين غير اننا لا نكاد نعرف تفصيلات تذكر عن ابيه ويغلب على الظن ان اباه هذا ما لبث ان توفى مخلفاً ولده عمراً ليعرف من بعده مرارة اليتم اضافة وطاة الفقر امه امة فهي التي رعته ضبياً وفي بعض كتب الأدب شذرات ضئيلة من أخبارها

كذلك ليس بوسع الدارسين الجزم بنة مولد الجاحظ شانهم في ذلكم كشأنهم تجاه أكثر النبهاء والإعلام الذين غالباً ما تكون بواكير حياتهم مجهولة ، ويحدد بعض الباحثين ولادته سنة 159 هـ

كان على هذا الفتي ، فى ظل تلك الظروف التي اكتنفت نشأته ان يعتمد على نفسه وان يسعي الى كسب رزقه بكد يمينه وقد ذكر المصنفون أنه رئي بسيحان احد انهار البصرة يبيع الخبز والسمك في صباه .

فهل ينقلب هذا الإحساس بالنقص الى نزوع للتفوق لدي فتى مرهف الحس يعاني من وضاعة اصله ويمته ومن فقره وقبحه ان بعض هذه المشطات كان لجلب اليأس وتوهين العزم وايراث الهم غثير ان من الصعاب ايضا ما يحفز الهمم ويقوى العزائم ويثير القرائح اذا كان صاحبها ممن اتوا نباهة وفطنة وهكذا داب الجاحظ على السيد في عاصمية نادرة حتى داع شانه فاخذ يعيش من الهبات والأعطيات التي خذت ترد إليه من الأمراء والكبراء " ممن يؤلف بعض كتبه لهم ، ويحيلها بأسمائهم وفى كهولته دعاء الخليفة المأمون الى تصدر ديوان الرسائل في بلاطه ببغداد ، ولكنه لم يمكث فيه سوى أيام ثلاثة استفي بعدها فأعفى وكان سهل بن خهارون وهو من ابرز كتاب هذا الديوان وممن نبة شانهم قبل الجاحظ فى فن النثر يقول إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم هذا الكتاب وقد ترك الجاحظ هذا العمل الرسمي وما كان ينطوي عليه جوه من زيف وكيد ونفاق غير أسف بعد أن عرف من حقيقة بعض النفوس ما عرف وبخاصة من زمرة كتاب الدواوين وكبار الموظفين وراح ينعتهم بأنهم أصحاب ظواهر نظيفة وبواطن سخيفة فويل لهم مما كتبت ايادهم ، وويل لهم مما يكسبون ولعل رسالة الجاحظ في ذم أخلاق الكتاب من وحي هذه التجربة .

وثر الجاحظ العيش في رحاب الفكر مستشرقا آفاق المعرفة دائبا على العطاء ثم شاخ وادركه الهرم والح عليه المرض ولكنه ظل على ادبه وعطائه ويبدو ان الخلفاء والكبراء كانوا شديدي الحرص على اقتراب الجاحظ من مجالسهم برغم زهده المعهود فى مثل ذلك ومن هذا القبيل ما أورده أبو على القالي فى قوله " وحدثنا أبو معاذ الخولى المتطلب قال : دخلنا يوماً بسر من راى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد

فلج ، فأما أخذنا مجلسنا أتى رسول المتوكل فيه ، فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ، ولون حائل ولعاب سائل ؟ ثم اقبل علينا وقال : ما تقولون في رجل له شقان، احدهما لو عرز بالمسال ما أحس والشق الأخر يمر به الذباب فيغوث ، وأكثر ما اشكوه الثمانون .

الجاحظ المؤلف

ولعل الجاحظ كان أول من اتخذ التأليف صناعة له " ومن ذلك جاء الكتاب الجاحظي نمطا جديداً في التأليف يجمع بين بسط العبارة وجمالها ، ويتجه إلى جمهرة القراء لا الى طائفة خاصة منهم وقد حرص الجاحظ إبلاء هذه الناحية ما هي جديرة من الاهتمام اذ قال " وليس الكتاب إلى شيء احوج منه إلى إفهام معاينة ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو ، ويجعله عن غريب الأعراب ووحشي الكلام "

منزلة الكتاب عند الجاحظ

لقد أحب الجاحظ الكتاب وانس وألفه وأطال صحبته ، وكان له حيز في حياته ولهذا أشاد بفضله وأطنب في مدحه وأسهب وصفه حتى انه وجد ان المرء لا يفلح إلا إذا كان " يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الإعرابي فرسه باللبن على عياله " وكان وصف الجاحظ للكتاب أمرا ذائماً لا يدينه فى براعته وصف حين قال :

"..... الكتاب نعم الذخر والعقدة والجليس والعمدة ونعم النشوة ونعم النزهة، ونعم المشغل والحرفة نعم الأنيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القربن والدخيل والزميل ، ونعم الوزير والنزيل ، والكتاب وعاء ملىء علما وظرف حشي ظرفا ، واناء شحن مزاجا ان شئت كان اعي من باقل وان شئت كان ابلغ من سبحان وائل وان شئت سرتك نوادره ، شجعتك مواعظة ومن لك بواعظ مثله ويناسك فاتك وناطق اخرس ونديم مولد وحبيب ممتع ومن لك بشىء يجمع لك الأول والأخر والناقص والوافر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع وبعد فما رأيت بستانا يحمل في رددن وروضة تنقل في حجر ينطق عن الموتى ويترجم عن الإحياء

والكتاب هو الجليس الذي لا يطربك والصديق الذي لا يقيلك والرفيق الذي لا يلمسك

حب الجاحظ للكتاب

والكتاب هو الذي اذا نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك ، وجود بيانك ، وفخم ألفاظك وإن عزلت لم يدع طاعتك ، وان هبت ربح أعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل ، لم تضرك معه وحشه إلى جليس السوء ...

الاستطراد:

عرف الجاحظ في مؤلفاته بجنوحه إلى الاستطراد وبعدم التزامه بالبقاء في فلك موضوعه المحدد ، أو تقيده بإطار بحثه المعالج فكان ينتقل أحيانا داخل الموضوع الأساسي إلى موضوعات أخرى ليست وثيقة الاتصال بما هو فى صدده .

وأكثر ما يتجلى الاستطراد فى كتابيه الكبيرين ، كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين فهل كان ذلك من الحاجة قصوراً عن تجويد التأليف وأحكام صناعته ؟

الواقع ان ثمة عبارات أوردها ابو عثمان وتشير الى ان الظروف التي تصدي خلالهما لمهمة التأليف لم تكن مواتية له على النحو المنشود فهو يقول مثلا وقد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه و أول ذاك العلة الشديدة والثانية قلة الأعوان والثالثة طول الكتاب وكأننا بالجاحظ يرمي من كلامه هذا إلى الاعتذار عما ينطوي عليه كتابه من عيوب وخاصة قلة التنظيم .

على ان تقصي منحي الجاحظ في التأليف يوضح انه كان يقصد في كثير من الأحيان الى الابتعاد عن أصل موضوعه قصداً لهدف يراه مجدياً فهو يتعمد إيراد الطرف والنوادر والحكايات ويرمي من وراء ذلك الترفيه عن قارئه املا ان يجدد له قواه ويوفر نشاطه فالجاحظ من خلال هذه الظاهرة يبدو لنا شديد العناية بقارئه ، حريصاً على توثيق الأواصر الذهنية والنفسية معه ومن هن فأنه لا يثقل عليه ، ولعله

يخشي ان يطيل فيصه بالسام ويحمل إليه الملل ، ولهذا يبدو للأمر جاهداً في محاولة جذب قارئه إليه بما لديه من طاقة وموهبة .

" وليس من الأبواب باب إلا وبدخله تقف من أبواب أخر ، على قدر ما يتعلق بها من الأسباب ويعرض فيه من التضمين . ولعلك ان تكون به اشد انتفاعاً ، ثم يقول ايضاً " على أنى ربما وشحت هذا الكتاب وفصات فيه بين الجزء بنوادر كلام وأخبار ، وغرر إشعار مع طرف مضاجيك .

ومن هذا لقبيل ما يمدد إليه الجاحظ نتيجة شعوره بان وطأة الجد لا بد ان تكون قد اشتدت على قارئه " وان كان قد أمللناك بالجد والاحتياجات الصحية فإننا سنشطلك بعض البطالات فان كنت ممن يتعلم الآلة ، وتجعل إليه السامة كان هذا الباب تنشيطاً لقلبك وجماماً لقوتك "

ولا بد من ملاحظة هذا الأمر وهو إن المعارف كنت غزيرة لدي الجاحظ وقد اخترنها في ذاكرته على مر الأيام ، فهو حين يشرع في الكتابة تنثال على قامه الفياض وتتزاحم على القرطاس فيرسل طبعه المتدفق على سجيته دون ان يقسر نفسه على ضبط ينثال من قريحته ويندفع من ذاكرته ، فكان يرتك ظاهرة تداعي الأفكار تأخذ مداها .

وثمة أخر هو أن سمة المعارف في ذلك العصر كانت الأخذ من كل فن بطرف، دون الالتزام بمعالجة موضوع معين والوقوف عند بحث محدد ، فالهدف لدي الجاحظ ومعاصريه تثقفي يرمي إلى أغناء قارئ الأمس فيما يبدو كان بسقيغ هذا المنحي ويروق في عينه ذلك التنقل والتنوع .

ومهما يكن من امر فلسنا نود ان نطالب الجاحظ في فجر عصر التأليف بما نطالب المؤلف في عصرنا غير إننا نقول في الوقت نفسه ان الجاحظ في جنوحه للاستطراد في مؤلفاته إنما سن سنة غير حميدة لمن بعده من المؤلفين فقد كان تاثيرة في عالم التأليف كبيرا حتى كان الذين أتوا بعده قد نسجوا على منواله ولم يعودوا يستطيعون فكاكا من مذهبه .

على اننا في حرصنا على إنصاف الجاحظ في هذا الامر وذكر ماله وما عليه لا نذهب في ذلك الى المدي الذي ذهب اليه الباقلاني حين نمت ابا عثمان بانه " كان يستعين بكلام غيره .

كذلك جانب المستشرق كاردافو الإنصاف حين قرر جازماص الموضوع عنده ليس الا وسيلة للاستطراد فكان الامر لديه اصبح منقلباً بحيث غدا قاعدة والقاعدة استثناء .

الآداب في العصر العباسي

1- الإطار الزمني للأدب العباسي

العصر العباسي هو العصر الذي تولى الخلافة فيه آل العباس بن عبد المطلب ، حيث قامت دولتهم على أنقاض دولة بني أمية سنة 132هـ ولتظل حتى سنة 656 هـ حين هزمت على يد التتار .

ومؤرخو التاريخ العربي الإسلامي والحضاة العربية الإسلامية يرون في هذا العصر ما يؤهله لأن يكون العصر الذهبي في التاريخ العربي الإسلامي القديم لما بلغه من الإزدهار الحضاري والفكري والعلمي والأدبي أثرا لعوامل كثيرة منها :

- نضج العقلية العربية الإسلاميية بما تغذت عليه من الثقافة العربية الإسلامية.
- و انفتاح المجتمع العربي الإسلامي على الثقافات الأخري : فارسية ويونانية وغيرهما أثرا للفتوحات والاحتكاك والتعرب من جهة وللترجمة عن هذه الثقافات من جهة أخرى .

وكان ازدهار الأدب أحد أهم مظاهر الازدهار في هذا العصر الذى عرف كبار الأدباء في تاريخنا العربي الإسلامي : شعراء من أمثال بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وأبي تمام والمتني وألشريف الرضي وأبي العلاء المعري وغيرهم، وكتابا من أمثال ابن المقفع والجاحظ وأبي حيان التوحيدي والهمذاني والحريري وغيرهم ، فضلا عن ذوي المؤلفات والموسوعات الأدبية وهم كثيرون تزخر المكتبات بآثارهم.

ونظرا لامتداد العصر العباسي زمنيا لأكثر من خمسة قرون من ناحية ، واختلاف الأطوار التي مرت بها الدولة في هذا العصر سياسيا وأدبيا من ناحية أخرى رأى مؤرخو الأدب أن يقسموه داخليا إلى أكثر من عصر محتكمين إلى التغير السياسي أو إلى التمايز الأدبي .

فمن مؤرخي الأدب الذين قسموا العصر داخليا انطلاقا من المنظور السياسي الدكتور شوقي ضيف ، حيث قسم العصر العباسى أدبيا تبعا لتاريخه السياسي إلى عصرين :

1. عصر عباسي أول يمتد من سنة 132هـ حتى سنة 232هـ مع بدء خلافة المتوكل .
2. عصر عباسي ثان يمتد من سنة 232 هـ حتى سنة 334 هـ ، تاريخ قيام الدولة البويهية .

والدكتور شوقي ضيف يرى أن ما بعد هذا التاريخ لا يعد عصرا عباسيا ؛ لذا أطلق عليه " عصر الدول والإمارات " الذي يمتد من سنة 334 هـ تاريخ قيام الدولة البويهية حتى بداية العص الحديث ؛ ذلك أنه يرى أن الحكم العباسي بعد العصر العباسي الثاني حتى سقوط بغداد كان اسميا فقط بينما كان الحكام الفعليون هم حكام الإمارات التى قسمت إليها الدولة في ذلك الوقت ، كالدولة السامانية بتركستان ، والزيارية بطبرستان ، والإخشيدية بمصر ، والغزنوية بأفغانستان والهند ، والفاطمية بمصر ، والحمدانية بالشام .

وجلي أن هذا التقسيم وذلك التحديد للعصر العباسي ينطلق من منظورالتارخ السياسي ، فالعصر العباسي الأول هو عصر النفوذ العربي والسيطرة القوية للخلفاء العباسين ، وما حدث فيه من تدخل العناصر غير العربية كالفرس أولا والترك بعد ذلك ظل في حدود ما يسمح به الخليفة ، الذي كان قادرا على أن يتدخل بقوة ليضع حدا لأي نفوذ يرى فيه تجاوزا أو يمثل خطرا على الدولة ، وفي هذا السياق نفهم قتل أبي سلمة الخلال جل الدعوة العباسية ووزير العباسيين الأول ، وأبي مسلم الخراساني قائد جيوشهم ، ونكبة البرامكة ، ومطاردة الزنادقة .

ويبدأ العصر العباسي الثاني مع زيادة نفوذ العنصر التركي ، ولم يلبثوا أن سيطروا على أمور الدولة ، وطغى سلطانهم عل سلطة الخلبفة ، حتى غدا هن مشيئتهم ، فكانوا يولون ويعزلون ، ويعدبون ويقتلون ، وكان أول ضحاياهم من الخلفاء المتوكل ، الذي قتل هو ووزيره بأيدهم سنة 247 هـ ، وقد ظل تدخلهم يزداد منتقصا من سلطة الخلفاء إلى أن انفرط عقد الدولة بانقسامها إلى دويلات ، كان من بينها الولة البويهية التي اتخذت من بغداد عاصمة الخلافة مركزا لها ، ما جعل الدكتور شوقي ضيف يرى في ذلك النهاية الفعلية للعصر العباسي مطلقا على ما بعده " عصر الدول والإمارات ."

وممن اعتمدوا الأساس السياسي منطلقا للتقسيم الداخلي للعصر أدبيا الدكتور محمد أبو الأنوار ، ففي كتابه (الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية) يجعل العصر العباسي أربعة أعصر هي :

1. العصر العباسي الأول . وسماه :العصر العربي ، ويمتد من سنة 132 هـ حتى سنة 132 .
2. العصر العباسي الثاني . وسماه :عصر النفوذ التركي ، يمتد من سنة 232 هـ حتى سنة 243هـ .
3. العصر العباسي الثالث . وسماه : عصر بني بويه ،يمتد من سنة 334هـ حتى سقوط دولتهم على يد السلاجقة سنة 447هـ .
4. العصر العباسي الرابع . ويبدأ باستيلاء السلاجقة على بغداد سنة 447 لينتهي سنة 656 هـ بسقوط بغداد في أيدى التتار منهية حكم السلاجثة والخلافة العباسية، و لينتهي بذلك العصر العباسي .

وإذا كان لنا من تعقيب على هذه التفسيمات الداخلية للعصر العباسي على أساس التاريخ السياسي فهو أن التغير السياسي ليس بالضرورة وراء التغير الأدبي ، فالظاهرة الأدبية تخضع لعوامل كثيرة ليس أهمها السياسة ، و لا غرو أن ضعف النفوذ العربي في العصر العباسي الثاني لم يؤثر سلبا على الأدب ، بل إن تقسيم

الدولة العباسية إلى دويلات نهاية العص العباسي الثاني أثمر تنافسا حميد ا بـين حكـام الولايـات عـلى الاحتفاء بالأدباء ، فقد تعددت حواضر الأدب وكان من بينها حلب التى خرجت عملاق الـشعر العـربي المتنبي ، وكان هذا العصر عصر الموسوعات الأدبية والمدارس النظامية . لكن يظـل هـا التقـسيم سـبيلا لتيسير الدرس الأدبي في هذا العصر الممتد زمنيا والغني أدبيا .

ولعل هذا ما جعل بعض مـؤرخي الأدب يفـضلون تقـسيم العـصر العبـاسى تقـسيما أدبيـا لا سياسيا ، انطلاقا من الظواهر الأدبية التى تبزغ في مرحلة ما فتعـرف بهـا وتنـسب إليهـا . مـن هـولاء المؤرخين الدكتور يوسف خليف . ففي كتابه (تاريخ الشعر في العصر العباسي) رأى أن كـل قـرن مـن العصر العباسي عرف بظاهرة أدبية يمكن أن يوسم بها :

فالقرن الثاني الهجـري وهـو القـرن الأول في العـصر العبـاسي هـو" قـرن التجديـد في القـصيدة العربية " للخروج بها من إطار الكلاسيكية الجديدة التـي شـهدتها القـصيدة الأمويـة إلى إطـار جديـد تكون فيه قادرة على التعبير عن العصر الجديد ، وهو تجديد تم على يد شـعراء كبـار مثـل بـشار وأبي نواس وأبي العتاهية .

والقرن الثالث " قرن الصراع بين القـديم والجديـد " . وكـان أبـو تمـام والبحـتري قطبـي هـذه الظاهرة ، حيث عد أبو تمام زعيم المجددين في حين عدّ البحتري زعيم المحافظين.

والقرن الرابع " قرن المزاوحة العبقرية بين بساطة البداوة وصـفائها مـن جهـة وثقافـة العـصر العقلية من جهة أخرى " ، وهو ما تحقق على يد المتنبي الذي أعاد للقصيدة العربيـة روحهـا البـدوي في غير انفصال عن روح العصر الجدبد

والقرن الخامس هو " قرن المزاوجة بين الفـن والفلـسفة " وفـارس هـذه الظـاهرة أبـو العـلاء المعري آخر عمالقة الشعر العربي القديم الذي استطاع أن يرتفع بشعره إلى مستوى إنساني رفيع.بفضل هذه المزاوجة الفذة بين الفن والفلسفة . علىٍ ما تجلى في ديوانه " لزوم ما لا يلزم "

وقريب من هذا التقسيم ما ذهب إليه حنا الفخوري في كتابه (تايخ الأدب العربي) من أن العصر العباسي تتوزعه أقسام ثلاثة متدرجة بين :

- " أدب الثورة التجديدية " ويبدأ ببشار بن برد حتى ظهور أبي تمام .
- " أدب الحركة المعاكسة " ويبدأ بظهور أبي تمام ، وينتهي بظهور المتنبي .
- " أدب الاستقرار والتدرج نحو الصنعة والزخرف ، ويبدأ بظهور المتنبي ، وينتهي بنهاية البهاء زهير (581- 656) .

وكما تحفظنا على التقسيم السياسي فإن التقسيم الأدبي يواجه صعوبة ما يعرف عن الظاهرة الأدبية من تأب على التحديد الزمنى الحاسم فلا مجال لربطها بقرن يبدأ او قرن ينتهي وللظواهر الأدبية عواملها التي قد لا ترتبط بالقرن إلا مصادفة.

ولعل هذا التحفظ على التقسيمين السياسي والأدبي هو ما حدا بالدكتور عز الدين إسماعيل لينأى عن أي تقسيم داخلي للعصر العباسي ؛ لأنه لم يعد مقنعا ، فالنقلة الكبيرة التي أحدثتهاالثورة العباسية في حياة العرب والمجتمع الإسلامي ظلت تمثل الإطار العام لحياة الدولة الجديدة الذي يستوعب كل ما بداخله من تنوع دون أن يصيبه تغيير جذري أو جوهري .

2- المراكز الثقافية في العصر العباسي

في العصر العباسي تنتقل مواكز الثقافة من مكة والمدينة ثم دمشق إلى الكوفة والبصرة وبغداد، فقد أصبحت هذه المدن في العصر العباسي عواصم كبرى ومراكز ثقل فكري وممعقلا للإبداع الأدبي والترجمات عن شتى العلوم والفنون .

ومع هذا كان لكل منها طابعها المميز

الكوفة ظلت أميل إلى الحفاظ على القديم منا إلى التأثر بالوافد الحديد ، ساعد على ذلك بعدها عن البحر وقربها من الجزيرة العربية واحتضانها للثقافة العراقية القديمة والآثار المسيحية في الأديرة والبيع المنتشرة في الحيرة .

البصرة

كانت نشأتها عربية ، ولكنه كانت قريبة من البحر ما أهلها لاستقبال الكثير من الوافين من جنسيات مختلفة ، من النبط والزنج والروم والفرس

وقد ترك هذا التنوع الجنسي أثرة الكبير على الممدينة ، فانتشرت فيها حضارة الفرس وعرفت دياناتهم .

وادهرت الثقافة اليونانية وكثرت الترجمات عنها ونشط علماء الكلام ولا سيما المعتزلة

كما كان كثرة الكادحين فيها من الزند وغيرهم تحمل خطورة على المجتمع ومثيرة الفتن والتورات على الخلافة

بغداد

أسسها أبو جعفر المنصور سنة145هـ لتصبح العاصمة بديلا عن الكوفة وومنذ نشأتها كانت الكوفة شديدة التأثير عليها فكريا وأدبيا لقربها منها ، فكان علماء الكوفة وأدباؤهه من أمثال المفضل الضي والكسائي وثعلب ينتقلون إليها منشطين الحركة الثقفافية فيها. فكان الطابع الكوفي الغالب عليها وفي بداية القرن الثالث الهجري بدأ الطابع البصيري يغزو بغداد وما لبث أن سيطر عليها وهكذا تلاقت في بغداد الثقافتا ن الكوفية والبصرية وكان أن امتزجتا بثقافات أخري وافدة ليفضي ذلك كله إلى ثقافة جديدة ممثلة الطابع البغدادي . ومن ثم ظهر في تاريخ الثقافة العربية مذاهب بغدادية في النحو واللغة والأدب أسهمت مع مذهبي البصرة والكوفة في رسم ملامح الحضارة الإسلامية في العصر العباسي

كانت بغدادقصبة الدولة الإسلامية ، توافد إليها الناس من جنسيات مختلفة ، وطبعتها الحضار الفارية الطاغية بطابعها ، وعمرت بظاهر الترف والبزخ ، ونشطت فيها الحياة بجميع مظاهرها : جادة ولاهية ، ولم تلبث أن غطت على البصرة والكوفة لتصبح وحدها أم المدئن الإسلامية وبؤة العلم ومجتمع العماء والأدباء ، وما برحت

تمارس دورها الحضاري حتى شاركتها ذلك القاهرة وقرطبة ودمشق وحلب والقيروان وغيرها

الأوضاع الحضارية فى العصر العباسى الأول

يمتد العصر العباسى الأول قرنًا من الزمان، من سنة (132هـ / 749م) إلى سنة (232هـ / 847م)، ويعد العصر الذهبى للخلافة العباسية؛ حيث تمتع الخلفاء بسلطتهم الدينية والدنيوية.

وخلفاء هذا العصر تسعة، هم:

1 - أبو العباس عبدالله (132 - 136هـ / 749 - 753م).

2- المنصور (136 - 158هـ / 753 - 775م).

3 - المهدى (158 - 169هـ / 775 - 785م).

4 - الهادى (169 - 170هـ / 785 - 786م).

5 – هارون الرشيد (170 - 193هـ / 786 - 809م).

6 - الأمين (193 - 198هـ / 809 - 813م).

7 - المأمون (198 - 218هـ / 813 - 833م).

8 - المعتصم (218 - 227هـ / 833 - 842م).

9 - الواثق (227 - 232هـ / 842 - 847م).

أولًا: النظام السياسى والإدارى، ويشمل:

أ- الخلافة:

وقد أقام العباسيون دولتهم سنة (132هـ / 749م)، وتولى أول خلفائهم أبو العباس عبدالله بن محمد السلطة بناءً على وصية أخيه إبراهيم الإمام بعد وقوعه فى قبضة الأمويين، وقد حكم أبو العباس أربع سنوات، وقبيل وفاته عهد إلى أخيه أبي جعفر المنصور بولاية العهد من بعده، ومن بعد أبي جعفر، عيسى بن موسى، وكتب

العهد بهذا وصره فى ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتم أهل بيته وسلَّمه إلى عيسى بن موسى.

ومن هنا نلاحظ أن الحكم قد بدأ وراثيا فى عهد الدولة العباسية منذ اللحظة الأولى، واقتصر على أهل البيت العباسى، كما أن أكثر الخلفاء كان يوصى بولاية العهد إلى أكثر من شخص؛ مما أدى إلى صراعات ساعدت على تصدع الدولة العباسية.

وحين تولى أبو جعفر المنصور الخلافة واجه اعتراضًا من عمه عبدالله بن على الذى رفض مبايعته، ودعا لنفسه بالخلافة مدَّعيًا أنه ولي عهد أبي العباس، مما دعا المنصور إلى توجيه جيش له بقيادة أبي مسلم الخراسانى تمكن من القبض عليه والقضاء على دعوته.

وقد نقل المنصور ولاية العهد من ابن أخيه عيسى بن موسى إلى ابنه محمد، الذى تولى الخلافة بعد أبيه المنصور سنة (158هـ / 775م) ولقب بالخليفة المهدى، واستمر فى منصبه حتى تُوفِّ سنة (169هـ / 785م)؛ حيث تولى ابنه موسى الملقب بالخليفة الهادى، ولم يمكث سوى سنة واحدة فى الحكم؛ حيث تولى من بعده أخوه هارون الرشيد، ومنذ عهد الرشيد أصبح الصراع السياسى على السلطة إحدى السمات المميزة للعصر العباسى الأول، وكان الصراع بين الأمين و المأمون من الأمثلة المعبرة عن هذه السمة، وقد انتهى بقتل الأمين وتولية المأمون الخلافة.

ب- الوزارة:

تُعدُّ الوزارة المنصب الثانى بعد الخلافة فى الدولة العباسية، وقد قسَّم فقهاء المسلمين الوزارة إلى نوعين:

- وزارة التفويض:

حيث يفوض الخليفة الوزير فى تدبير أمور الدولة برأيه واجتهاده، فتكون له السلطة المطلقة فى الحكم والتصرف فى شئون الدولة.

- وزارة التنفيذ:

حيث يكون الوزير وسيطاً بين الخليفة والرعية والولاة، ومجرد منفذ لأوامر الخليفة.

وقد أحدث العباسيون نظام الوزارة فى بداية دولتهم متأثرين فى ذلك بالنظم الفارسية، ولم تكن مسئوليات الوزير فى بداية الأمر تبعد كثيرًا عن مسئوليات الكاتب، وقد حصر أبو جعفر المنصور مهمة الوزير فى التنفيذ وإبداء الرأى والنصح، ولم يكن له وزير دائم، ومن وزرائه: الربيع بن يونس الذى اشتهر باللباقة والذكاء وحسن التدبير والسياسة.

وقد ظهرت شخصية الوزراء إلى حد كبير فى عهد الخليفة المهدى، لما ساد الدولة من هدوء نسبى، ومن هؤلاء الوزراء الأقوياء يعقوب بن داود، ثم صار للوزارة شأن كبير فى عهد الرشيد والمأمون لاعتماد الأول على البرامكة، والثانى على بنى سهل، فمُنِحَ يحيى البرمكى وزير الرشيد، والفضل بن سهل وزير المأمون صلاحيات وسلطات واسعة، جعلت نفوذهما يمتد إلى جميع مرافق الدولة، ولكن سرعان ما تم التخلص منهما.

ج- الكتابة:

كانت طبقة الكُتَّاب ذات أهمية كبيرة فى الدولة العباسية، وكان الكاتب ذا علم واسع وثقافة عريضة؛ لأنه يقوم بتحرير الرسائل الرسمية والسياسية داخل الدولة وخارجها، كما يتولَّى نشر القرارات والبلاغات والمراسيم بين الناس، ويجلس على منصة القضاء بجوار الخليفة لينظر فى الدعاوى والشكاوى ثم يختمها بخاتم الخليفة.

ومن أشهر الكُتَّاب فى العصر العباسى الأول يحيى بن خالد بن برمك فى عهد الرشيد، والفضل والحسن ابنا سهل، وأحمد بن يوسف فى عهد المأمون، ومحمد بن عبدالملك الزيات والحسن بن وهب، وأحمد بن المدبر فى عهد المعتصم والواثق.

د- الحجابة:

وهى وظيفة تقوم بمساعدة الحكام فى تنظيم الصلة بينهم وبين الرعية، فالحاجب واسطة بين الناس والخليفة، يدرس حوائجهم، ويأذن لهم بالدخول بين يدى الخليفة أو يرفض ذلك إذا كانت الأسباب غير مقنعة؛ وذلك حفاظًا على هيبة الخلافة وتنظيمًا لعرض المسائل حسب أهميتها على الحاكم الأعلى للبلاد.

وقد اقتدى العباسيون بالأمويين فى اتخاذ الحُجَّاب، وأسرفوا فى منع الناس من المقابلات الرسمية، ولعل هذا هو السبب المباشر فى نشأة ما أسماه ابن خلدون "الحجاب الثاني"، فكان بين الناس والخليفة حاجزان عبارة عن دارين، أحدهما يُسمَّى دار الخاصة والآخر دار العامة، وكان الخليفة يقابل كل طائفة حسب حالتها وظروفها فى إحدى هاتين الدارين تبعًا لإرادة الحُجَّاب على أبوابها.

هـ- ولاية الأقاليم:

المقصود بالأقاليم: المناطق التى تتكون منها الدولة. وقد كان النظام الإدارى فى الدولة العباسية نظامًا مركزيا؛ حيث صار الولاة على الأقاليم مجرد عمال للخليفة، على عكس ما كانوا عليه فى الدولة الأموية.

وقد قسم العباسيون الولاية على الأقاليم إلى قسمين، وخصوصًا فى عهد الرشيد، الأول: الولاية الكبرى، وهى التى تكون لأحد أبناء الخليفة أو شخص مقرب من الخليفة؛ حيث يتولى هذا الوالى عدة أقاليم فى الدولة ويقوم بتصريف أمورها من العاصمة، أو من أحد تلك الأقاليم بعد الرجوع إلى الخليفة، ويرسل إليها ما يشاء من الولاة. الثانى: الولاية الكاملة، حيث يتمتع الوالى ببعض السلطات التى توسع دائرة نفوذه، مثل النظر فى الأحكام وجباية الضرائب والخراج وحماية الأمن وإمامة الصلاة وتسيير الجيوش للغزو.

و- الدواوين:

ظهرت الدواوين فى الدولة الإسلامية، كبقية المؤسسات الإدارية، نتيجة لاحتياج المسلمين إليها، وقد جعل ابن خلدون وجود الديوان من الأمور اللازمة

للملك. وللديوان أهمية كبرى فيما يتعلق بأموال الدولة وحقوقها وحصر جنودها ومرتباتهم، ويرجع الفضل فى تنظيم الدواوين فى العصر العباسى إلى خالد بن برمك.

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بالدواوين؛ فكثرت اختصاصاتها وتنوعت بسبب التعاون الوثيق بين العباسيين والفرس، فقد أخذ العباسيون الخبرة الفارسية فى مجال الإدارة، كما احتفظوا ببعض تنظيمات الدولة الأموية، خصوصًا فى الدواوين والدوائر الرسمية، كما استحدثوا بعض الدواوين كديوان المصادرات، وديوان الأزمّة (المحاسبة) وديوان المظالم، وغيرها.

ز- القضاء:

وهو من الوظائف المهمة فى الدولة الإسلامية، ويقوم على المحافظة على حقوق الرعية وإقرار العدل والإنصاف بين جميع الطبقات، وحماية الأخلاق العامة، مستمِدا أحكامه من الكتاب والسنة. ونظرًا لأهمية منصب القضاء، فقد وضع العلماء المواصفات التى يجب توافرها فى القاضى، ومنها: أن يكون رجلاً قوياً عاقلاً حرًا مسلمًا عادلاً، ويتمتع بالسلامة فى السمع والبصر، وأن يكون عالمًا بأحكام الشريعة.

وقد حظى القضاة فى العصر العباسى الأول بالتبجيل والاحترام، وكان تعيينهم وعزلهم يتم بأمر الخليفة، وأول من فعل ذلك الخليفة المنصور، فقد عين قضاة البلاد بأمره سنة (136هـ / 753م). وقد استقرت المذاهب الفقهية فى عهد الدولة العباسية، وتحددت مهام القضاة وكيفية الإجراء القضائى، وتوحد القانون، وأصبحت جلسات القاضى علنية فى المسجد وخصوصًا فى عهد المأمون.

كما اهتم خلفاء العباسيين بالتثبت من الأحكام، فعيَّنوا جماعة من المُزَكِّين، وظيفتهم تتبع أحوال الشهود، فإذا طعن الخصم فى شهادة أحد الشهود سُئل عنه المزكى. كما اهتموا بأحوال القضاة المادية حتى يعيشوا فى يسر ورخاء. وقد تطور القضاء بصورة ملحوظة فى العصر العباسى الأول، وظهر منصب قاضى القضاة، وكان يقيم فى عاصمة الدولة، ويقوم بتعيين القضاة فى الأقاليم والبلاد المختلفة،

وأول من لقب قاضى القضاة أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، صاحب كتاب الخراج، فى عهد الرشيد.

ثانيًا: الأوضاع الاقتصادية والعمرانية

أدرك الخلفاء العباسيون أهمية الاقتصاد وتنمية الموارد المالية لمواجهة النفقات المتعددة للدولة، واتخذ المنصور عدة خطوات لزيادة موارد الدولة، فاستحدث نظام المصادرات للاستيلاء على الأموال لمواجهة أعباء الثورات والحركات التى واجهها، وأعاد النظر فى مقادير الضرائب المفروضة على الكور.

وفى عهد الرشيد ازدهرت أحوال الدولة الاقتصادية، وارتفع مستوى المعيشة، بسبب تدفق الأموال على خزانة الدولة فى بغداد. وتعددت موارد الدولة المالية، فكان منها الزكاة، والخراج، والجزية، وأخماس المعدن، والرسوم على التجارة الخارجية، وغيرها. وقد أسهمت تلك الموارد فى سدّ النفقات فى مجال النشاط العسكرى والأمنى، ومجال البناء والتعمير وإنشاء المدن، مثل مدينة بغداد وسامراء.

مدينة بغداد

يرجع الفضل فى بناء مدينة بغداد إلى الخليفة أبى جعفر المنصور، ودفعه إلى ذلك عدة أسباب، منها:

1. ثورة الراوندية سنة (141هـ / 758م)، وما شكّلته من خطر كبير على المنصور نفسه؛ الأمر الذى جعله يفكر جديا فى الانتقال من الهاشمية: لأنها لم تكن بالعاصمة الحصينة التى يأمن فيها على نفسه.
2. أن الهاشمية وهى العاصمة المؤقتة للدولة العباسية كانت قريبة من الكوفة مركز التشيع؛ مما يشكل خطرًا على العباسيين.
3. رغبة المنصور فى إنشاء عاصمة جديدة، تليق بالدولة وتخلد ذكره من بعده.

وقد جرت عدة محاولات لاختيار المكان المناسب لبناء عاصمة الدولة الجديدة، حتى وقع الاختيار على المكان الذى بنيت فيه مدينة بغداد؛ وروعى فيها أن تتمتع بمزايا عديدة أهمها:

- أنها قريبة من خراسان مهد الدعوة العباسية، فضلاً عن قربها مـن المراكـز العربيـة الأخـرى، وبعدها عن مراكز الاحتكاك البيزنطى.

- وأنها تقع بين نهرين كبيرين هما دجلة والفرات، وهما يشكلان خطين للدفاع عن المدينة.

- وأنها تقع وسط العراق وعلى مـسافة متـساوية بـين البـصرة و الموصـل؛ مـما يجعلهـا سـوقًا للبضائع والمنتجات، وملتقى للقوافل التجارية البرية والنهرية؛ إذ إنها تقع أيـضًا عـلى طريـق الشام - الخليج العربى.

- هذا بالإضافة إلى طبيعة المكان السهلة والمفتوحة؛ مما يشبع رغبة العـرب والمـسلمين الـذين اعتادوا السكنى فى مثل هذه الأماكن.

وقد حشد المنصور لبناء بغداد العمال المهرة فى الصناعة والبناء، وابتدأ فى بنائها سنة (145هـ / 762م)، وفقًا لأرجح الأقوال. وقد تم تصميم المدينة على شـكل دائـري، يحـيط بهـا سـور، ولهـا أربعـة أبواب، وبلغت نفقات بنائها حينئذٍ ثمانية عشر مليون درهم، وأُطلـق عليهـا اسـم "دار الـسلام"، إلا أن الشائع هو اسمها القديم "بغداد".

مدينة سامراء

أسـسها الخليفـة العبـاسى المعتـصم باللـــه (218 - 227هــ / 833 - 842م) وجعلهـا عاصـمة للخلافة، وقد دفعه إلى إنشائها احتكاك الجنود الأتراك الذين جلبهم الخليفـة للإقامـة معـه فى بغـداد، بسكان المدينة وجنودها السابقين، مما أدى إلى حدوث إصابات كثيرة بين سكان بغداد ومقتل كثير من النساء والأطفال والشيوخ، فاضطر الخليفة المعتصم باللـه إلى البحث عن مكان جديد، ينتقل إليه مـع جنوده وحاشيته؛ فوقع الاختيار على أرض سامراء، على بعد ستين ميلاً شمالى بغداد.

وقد حشد لها المعتصم العمال والبنَّائين وأهل الصناعات المهرة، وشرع فى بنائها سنة (221هـ / 836م).

ثالثًا: الحياة الفكرية

شهد العصر العباسى الأول نهضة فكرية عظيمة، وطفرة ثقافية كبيرة فى شتى مجالات العلم والمعرفة؛ نتيجة امتداد رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها واهتمام الخلفاء بالحياة الفكرية.

وقد ميَّز علماء المسلمين بين نوعين من العلوم:

1. علوم تتصل بالقرآن الكريم، وهى العلوم النقلية أو الشرعية، وتشمل: علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة والبيان والأدب.
2. علوم أخذها العرب عن غيرهم من الأمم، وهى العلوم العقلية وتشمل: الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والكيمياء والتاريخ والجغرافيا.

وقامت المساجد بدور فعَّال فى نشر الثقافة الإسلامية؛ حيث كانت تكتظ بحلقات العلم والدرس، وبخاصة العلوم الشرعية التى ازدهرت فى العصر العباسى، ونشأت فى كنف علمي التفسير والحديث، ولم يكن الحديث مقصورًا على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما ضم أيضًا ما كان مأثورًا عن الصحابة، ومن أشهر رجال الحديث فى ذلك العصر: حماد بن سلمة المتوفى سنة (165هـ)، وسفيان بن عيينة بمكة المتوفى سنة (198هـ)، ووكيع بن الجراح بالكوفة المتوفى سنة (196هـ)، وعبدالله بن المبارك المتوفى سنة (181هـ)، وسفيان الثورى بالكوفة المتوفى سنة (161هـ)، وعبدالرحمن الأوزاعى بالشام المتوفى سنة (157هـ)، وعبدالملك بن جريح المتوفى سنة (150هـ)، ومعمر بن راشد باليمن (153هـ)، وسعيد بن أبى عروبة بالبصرة المتوفى سنة (156هـ)، و مالك بن أنس بالمدينة.

ومن أبرز المؤلفات فى هذا المجال: كتاب الموطأ الذى ألفه الإمام مالك إمام دار الهجرة (المدينة المنورة) بناءً على طلب المنصور، فيروى أن الخليفة أبا جعفر المنصور قابل الإمام مالكًا فى موسم الحج، وكلَّمه فى مسائل كثيرة من العلم، ثم قال له: "يا

أبا عبد الـلـه لم يبقَ فى الناس أفقه منى ومنك، وإنى قـد شـغلتنى الخلافـة، فـاجمع هـذا العلـم ودوِّنـه ووطِّئه للناس توطئة، وتجنب فيه شدائد عبد الـلـه بن عمر، ورُخَص عبد الـلـه بن عباس، وشواذ عبـد الـلـه بن مسعود، واقصد إلى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضى الـلـه عنهم". فاعتذر الإمام مالك، فلم يقبل المنصور منه، فوضع مالك كتاب الموطأ.

ولم تظهر الطريقة المنظمة فى التفسير إلا فى العصر العباسى الأول؛ حيـث كـان قبـل ذلـك غـير منظم ويقتصر على تفسير آيات صغيرة غير مرتبة حسب ترتيب الـسور والآيـات باسـتثناء تفـسير ابـن عباس. وأهم المفسرين فى العصر العباسى الأول مقاتل بن سليمان الأزدى المتوفى سـنة (150هــ)، وابـن إسحاق المتوفى سنة (151هـ)، ولم يصل من تفاسير هؤلاء شىء إلينا.

وازدهرت دراسة الفقه ازدهارًا عظيمًا وكانت له مدرستان، الأولى: مدرسة أهل الرأى والقيـاس فى العراق، ومؤسسها أبو حنيفة النعمان المتوفى سنة (150هـ)، وخلفه أبو يوسف يعقوب بـن إبـراهيم المتوفى سنة (182هـ)، ومحمد بن الحسن الشيبانى المتوفى سنة (189هـ)، والثانية: مدرسة أهل الحجاز، ومؤسسها مالك بن أنس، وتسمى مدرسة أهل الحـديث، ثـم جـاء الإمـام الفقيـه محمـد بـن إدريـس الشافعى المتوفى سنة (204هـ)، وجمع بين هاتين المدرستين، أى جمع بين طريقة الحجازيين فى الاعتماد على الكتاب والسنة وطريقة العراقيين فى الاعتماد على الرأى.

ومن العلوم التى ظهرت وتطورت فى ذلك العصر: علم الكـلام، ويقـصد بـه الجـدل الـدينى فى الأمور العقيديـة، ويـسمَّى المـشتغلون بـه "المتكلمـين"، ومـن أشـهر فـرقهم المعتزلـة الـذين دخلـوا فى محاورات ومجادلات مع غيرهم من المرجئة، والرافضة، والشيعة، والنصارى، واليهود، والمـانويين. وأهــم رجال المعتزلة واصل بن عطاء المتوفى سنة (131هـ)، وعمرو بن عبيد المتوفى سنة (145هـ)، وبـشر بـن المعتمر المتوفى سنة (210هـ)، وثمامة بن أشدس المتوفى سنة (213هـ)، وأبو الهذيل العلاف المتوفى سنة (227هـ).

وشهد ذلك العصر نخبة كبيرة من علماء اللغة، منهم: أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة (154هـ)، وخلف الأحمر المتوفى سنة (180هـ)، والأصمعى صاحب الأصمعيات المتوفى سنة (213هـ)، وأبو زيد الأنصارى صاحب كتاب النوادر المتوفى سنة (214هـ)، وأبو عبيدة صاحب نقائض جرير والفرزدق المتوفى سنة (210هـ)، ومحمد بن سلام الجمحى، وحماد الراوية المتوفى سنة (155هـ)، والمفضل الضبى، وأبو عمرو الشيبانى المتوفى سنة (206هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة (224هـ).

وفى النحو: عيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة (149هـ)، والخليل بن أحمد الواضع الحقيقى لعلم النحو المتوفى سنة (170هـ)، وسيبويه المتوفى سنة (180هـ)، ومعاذ بن مسلم الهراء المتوفى سنة (187هـ)، والكسائي المتوفى سنة (189هـ)، والفراء المتوفى سنة (207هـ).

وعنى كثير من اللغويين والنحاة بكتابة سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأشهرهم محمد بن إسحاق المتوفى سنة (151هـ)، و ابن هشام المتوفى سنة (213هـ)، ومحمد بن عمر الواقدى المتوفى سنة (207هـ)، ومحمد بن سعد صاحب الطبقات المتوفى سنة (230هـ).

كما نشطت كتابة التاريخ فى العصر العباسى الأول، وأشهر من اشتغل بذلك العلم: محمد بن الحسين بن زبالة، وأبو مخنف لوط بن يحيى الأزدى المتوفى سنة (157هـ)، وسيف بن عمر التميمى المتوفى سنة (180هـ)، وهشام بن محمد الكلبى المتوفى سنة (204هـ)، والمدائنى المتوفى سنة (225هـ).

كما شهد ذلك العصر نخبة كبيرة من فحول الشعراء، على رأسهم بشار بن برد المتوفى سنة (168هـ)، وأبو نواس الحسن بن هانىء المتوفى سنة (195هـ)، وأبو العتاهية المتوفى سنة (211هـ)، ومسلم بن الوليد المتوفى سنة (208هـ)، وأبو تمام حبيب بن أوس المتوفى سنة (231هـ).

وتطور النثر فى العصر العباسى الأول بعد دخول كثير من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية التى امتزجت به، وأهم فنون النثر فى ذلك الوقت الخطابة

والوعظ، والمناظرات، والرسائل الديوانية -العهود والوصايا والتوقيعات- والرسائل الإخوانية والأدبية.

ومن أعلام الكتاب فى ذلك العصر: ابن المقفع المتوفى سنة (143هـ)، وسهل بن هارون المتوفى سنة (215هـ)، وأحمد بن يوسف المتوفى سنة (213هـ)، وعمرو بن مسعدة (217هـ).

وقد شجع الرشيد العلم والعلماء، وأنشأ بيت الحكمة، وجمع فيه كثيرًا من المؤلفين، والمترجمين والنساخ. ومن أشهرهم: سهل بن هارون، والحسين بن سهل، والفضل بن نوبخت، وكانوا يترجمون من الفارسية إلى العربية. وحنين بن إسحاق، ويوحنا البطريق، ويوحنا بن ماسويه، وكانوا يترجمون من اليونانية والسريانية إلى العربية، وفى عهد المأمون نشطت حركة الترجمة والنقل من اللغات الأجنبية إلى العربية، فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب.

وبجانب اهتمام الخلفاء بحركة الترجمة والنقل، اهتم ذوو اليسار (الأغنياء) بتشجيع العلم والإنفاق على الترجمة إلى اللغة العربية، ومنهم محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر الذين أنفقوا أموالاً ضخمة فى ترجمة كتب الرياضيات، وكانت لهم آثار قيمة فى الهندسة والموسيقى والنجوم، وقد أرسلوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات.

وقد اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التى تُرجمت إلى العربية، وتفسيرها والتعليق عليها، وتصحيح أخطائها، ومن هؤلاء: يعقوب بن إسحاق الكندى، الذى ترجم كثيرًا من كتب الفلسفة وشرح غوامضها، ونبغ فى علوم الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم.

ومن العوامل التى ساهمت فى ازدهار الحركة العلمية فى العصر العباسى الأول ظهور الورق واستخدامه فى الكتابة، وقد أنشأ الفضل بن يحيى البرمكى مصنعًا للورق فى عهد الرشيد ببغداد، فانتشرت الكتابة فيه لخفته، بعد أن كانوا يكتبون على الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى.

المصادر

1. القرآن الكريم.
2. المعارف، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري(ت276)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1407هـ ـ1987م.
3. (الأخبار الطَوال، الدينورى(ت 282هـ)، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة الدكتور جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
4. تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي(ت 292هـ)، م2، دار صادر ـ دار بيروت 1379ـ1960م.
5. البلدان، اليعقوبي، دار صادر للطباعة والنشر ـ دار بيروت للطباعة والنشر
6. مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي(ت306)، دار الأندلس للطباعة والنشر.
7. تاريخ الأمم والملوك، الطبري(ت 310هـ)، طبعة دار سويدان ـ بيروت، وطبعة دار المعارف ـ الطبعة الرابعة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
8. الولاة وكتاب القضاة، أبي عمر بن يوسف الكندي المصري، صحح بقلم: رفن كست، مطبعة الآبا البسوعيين ـ بيروت 1908م.
9. تاريخ الموصل، أبو زكريا الأزدي (ت 334هـ)، تحقيق علي حبيبة، لجنة إحياء التراث.
10. الفهرست، ابن النديم(ت 380)، شرح وتعليق د/ يوسف علي طويل، وضع فهارسه/ أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1416هـ ـ1996م.
11. الأنباء بأنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء وولايات الأمراء المعروف بتاريخ القضاعي، القضاعي (ت 404)، ذيله مؤرخ مجهول، تحقيق د/ عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت. الطبعة الأولى 1418هـ ـ1998م.
12. تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ابن مسكويه(421هـ)، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية (بيروت ـ لبنان).
13. المنتظر في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي(ت597هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا ـ مصطفى عبد القادر عطا، مراجعة وتصحيح/ نعيم زرزور، ج 11، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان.
14. معجم البلدان، ياقوت الحموي (ت 626هـ)، دار صادر للطباعة والنشر ـ بيروت 1996م.

15. الكامل في التاريخ، ابن الأثير(ت 630هـ)، تحقيق أبو صهيب الكرملي، بيت الأفكار الدولية، وطبعة دار الكتب العلمية (بيروت ـ لبنان)، م6، تحقيق أبي الفداء عبد اللـه القاضي، الطبعة الأولى 1407هـ ـ1987م.

16. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان(ت 681هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر للطباعة والنشرـ بيروت.

17. نهاية الأرب في فنون الأدب، النوّيرى(ت 733هـ) تحقيق/ محمد جابر عبد العال الحسيني، مراجعة/ إبراهيم مصطفى، ج22، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1404هـ ـ1984م، وطبعة أخرى بتحقيق حسين نصار، ومراجعة عبد العزيز الأهواني، 1403هـ ـ1983م.

18. البداية والنهاية، ابن كثير(ت 774)، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، طبعة دار الحديث القاهرة ج 9ـ الطبعة الخامسة 1418هـ ـ1998م، وطبعة أخرى الفكر العربي ـ مصر سنة 1933م.

19. تاريخ ابن خلدون(العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، ابن خلدون(ت 808هـ)، تحقيق أبو صهيب الكرملي، بيت الأفكار الدولية.

20. مآثر الأناقة، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، القلقشندى(ت 821هـ)، طباعة دار الكتب المصرية، 1913ـ1919م.

21. شذور العقود في ذكر النقود، المقريزي(ت 845هـ)، تحقيق: أحمد بن علي، المكتبة الحيدرية 1387هـ ـ1967م.

22. المنتقى من المقفىً في أخبار بني العباس، المقريزي(ت 845هـ)، تحقيق تميمه محمد عيد الرواف، وزارة الإعلام في المملكة العربية السعودية 1409هـ

23. تاريخ الإسلام، الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الناشر دار الكتاب العربي.

24. تاريخ الخلفاء، السيوطي (ت 911هـ)، دار ابن حزم للنشر والطباعة 1424هـ ـ2003م، وطبعة أخري بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيداـ بيروت 1418هـ ـ1997م.

25. معجم البلدان، البغدادي، م4، دار صادر بيروت.

26. المختصر في أخبار البشر، أبو الفدا صاحب حماه، طبعة المطبعة الحسينية المصرية.

27. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد(الإمام شهاب الدين أبي الفلاح)، تحقيق محمود الأرناؤوط ـ دار ابن كثير (دمشق ـ بيروت).

28. أنساب الأشراف، للبلاذري، حققه د/سهيل زكات ود/ رياض زركلي بإشراف مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

29. : الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين الطبعة الخامسة 1980م.

30. دروس التاريخ الإسلامي وأحوال الدول العربية، الشيخ يحيي الدين الخياط، نقحها وزاد عليها / السيد محمد الباقر، ج4، المطبعة العصرية- صيدا، الطبعة التاسعة 1953م.

ثانياً: المراجع:

1. الدولة العباسية، الدكتور الفقي، مكتبة نهضة الشرق 1985م.

2. التاريخ العباسي السياسي والحضاري، إبراهيم أيوب، دار الكتاب العلمي.

3. تاريخ مختصر الدول، للعلامة غريغوريوس أبي الفرج بن اهرون الطبيب الملطي المعروف بابن العبري، صححه الأب أنطون اليسوعي، دار الرائد ـ اللبناني 1983م.

4. تاريخ الدولة العباسية (العصر العباسي الأول)، أحمد إسماعيل الجبوري، ج1، دار الفكر_ الطبعة الأولى 1431هـ ـ2010م.

5. الخلافة في الحضارة الإسلامية، أحمد رمضان أحمد، دار البيان العربي، الطبعة الأولى 1430هـ ـ1983م.

6. موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (الخلافة العباسية)، أحمد شلبي، الطبعة الثامنة (1958) مكتبة النهضة المصرية.

7. العصر العباسي الأول (عصر القوة والتوسع و الازدهار)، إبراهيم فرغلي، مكتبة دار العلم بالفيوم -الطبعة الأولى 1426هـ ـ2005م.

8. عصر المأمون، أحمد فريد رفاعي، م1، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ـ الطبعة الأولى.

9. كنز الدَّرر وجامع الغرر(الدَّرة السنية في أخبار الدولة العباسية)، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك، ج5، بيروت 1413هـ ـ1992م.

10. إمرة الأمراء في العصر العباسي (324ـ334)، السيد عبد الفتاح بلاط، دار التوفيق النموذجية للطباعة 1416هـ ـ1996م

11. دراسات في تاريخ العرب(العصر العباسي الأول)، السيد عبد العزيز سالم، ج3، مؤسسة شباب الجامعة 1993م.

12. موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام حتى عصرنا الحالي 1417هـ أحمد معمور العسيرى، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر(1417هـ ـ1996م).

13. تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، بشير رمضان التليسي و جمال هاشم الذويب، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى 2002م.

14. أخبار الدول المنقطعة تاريخ الدولة العباسية، الشيخ جمال الدين أبي الحسن علي، تحقيق/ محمد بن مسفر بن حسين الزهراني، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ـ 1408هـ ـ1988م.

15. تاريخ التمدن الإسلامي، جرجى زيدان، ج4، عليق عليها /حسين مؤنس، دار الهلال.

16. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (العصر العباسي الأول في الشرق ومصر والمغرب والأندلس)، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية(القاهرة)ـ دار الجيل بيروت، الطبعة الرابعة عشرة 1416هـ ـ 1996م.

17. العالم الإسلامي في العصر العباسي، حسن أحمد محمود.

18. الدولة العباسية قيامها وسقوطها، حسن خليفة، المطبعة الحديثة بشارع خيرت بالقاهرة، الطبعة الأولى.

19. دراسات في الجيش الإسلامي في العصر العباسي الأول، د/ راضي عبد الله عبد الحليم، دار النهضة العربية ـ الطبعة الأولى 1992م.

20. دراسات في تاريخ الدولة العباسية، د/ رضوان محمد البارودي ود/ صبحي عبد المجيد إدريس، طبعة السلطان الأوراق 2008ـ 2009م.

21. مختصر تاريخ العرب، سيد أمير علي، نقله للعربية: عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين ـ بيروت.

22. تاريخ الموصل، سليمان صائغ الموصلي، ج1، المطبعة السلفية بمصر.

23. أطلس التاريخ العربي الإسلامي، شوقي أبو خليل، دار الفكر دمشق ـ سورية(2005م).

24. دولة بني العباس، شاكر مصطفى، ج1، وكالة المطبوعات، الطبعة الأولى 1973م.

25. نظم الحكم في الدولة العباسية، صفاء حافظ عبد الفتاح، دار الثقافة 1986م.

26. الدولة العباسية في العصر العباسي قضايا ومواقف، صابر محمد دياب حسين، دار الفكر العربي(1422ـ2001م).

27. النفقات و إدارتها في الدولة العباسية من(132ـ 334هـ)(749ـ 745م)، ضيف الله يحيى الزهراني، مكتبة الطالب الجامعي، الطبعة الأولى 1406هـ ـ1986م.

28. التاريخ الإسلامي العام(الجاهلية ـ الدولة العربية ـ الدولة العباسية)، علي إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية.

29. أخبار الخلفاء العباسين، علي بن أنجب الساعى، تحقيق د/ خالد أحمد السويدى، دار سعد الدين للطباعة والنشر 2013م.

30. العباسيون في التاريخ، علي حبيبة، مكتبة الشباب.

31. العصر العباسي الأول (دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي)، عبد العزيز الدّوري، دار الطليعة ـ بيروت.

32. الخلافة العباسية قيامها وسقوطها وازدهارها وعوامل انهيارها، دكتور عبد الرحمن سالم، دار الهاني، 2009م.

33. دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، عبد الحليم عويس.

34. معالم التاريخ الإسلامي، عصام عبد الرءوف الفقي ـ دار الفكر العربي.

35. العباسيون و آثارهم المعمارية في الشرق ومصر والمغرب، عبد الله كامل موسى عبده، دار الأفاق، الطبعة الأولى 1428هـ ـ2008م.

36. العصر العباسي الأول (القرن الذهبي) في تاريخ الخلفاء العباسين (التاريخ السياسي)، عبد المنعم ماجد، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية1973م.

37. العلاقات بين العلويين والعباسين، عبد العزيز محمد اللمليم، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1409هـ ـ1988م.

38. العِقد الثمين في تاريخ المسلمين، عُبادة كُحيلة، دار الكتاب الحديث(الكويت) 1417هـ ـ1996م.

39. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج، علي محمد الصلابي، دار البيارق.

40. التاريخ السياسي للخلافة العباسية، د/ فائزة إسماعيل أكبر، مطبعة الثغر، الطبعة الأولى 1424هـ ـ2003م.

41. تاريخ العرب(مُطوَّل)، د فيليب حتي مراجعة د/ أدَور جرجي و د/ جبرائيل جبور، ج2ـ دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، الطبعة الثانية.

42. تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة/ نبيه أمين فارس ـ منير البعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة 1960م.

43. تاريخ العرب العام، للمستشرق ل. أ.سيديُو ـ نقله إلى العربية عادل زعيتر، دار نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ الطبعة الثانية 1389هـ ـ1969م.

44. كتاب مرآة الجنان وعبرة اليقظان، للإمام أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، دار الكتب العلمية (بيروت ـ لبنان)1997م.

45. محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، الشيخ محمد الخضري بك، تحقيق إبراهيم أمين محمد، طبعة المكتبة التوفيقية.

46. العباسيون الأقوياء، محمد إلهامى، مؤسسة اقرأ 2013م.

47. تاريخ الدولة العباسية، محمد أحمد إبراهيم، مراجعة/ عبادة عبد الرحمن كحيلة، 1427هـ ـ2006م.

48. الحضارة الإسلامية في الشرق في عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، محمد جمال الدين سرور، دار الفكر العربي.

49. الدولة العربية الإسلامية منذ العام الأول للهجرة وحتى نهاية العصر العباسي الأول(1ــ232هــ)(622ــ846م)، محمد جمال الدين سرور، دار الفكر العربي 1425هـ ـ 2005م.

50. تاريخ الدولة العباسية (العصر العباسي الأول)، د/ محمد سهيل طقوش، وزارة التعليم العالي ـ جامعة أم القرى.

51. التاريخ الإسلامي (الدولة العباسية)، محمود شاكر، المكتب الإسلامي ـ الطبعة السادسة 1421هـ ـ2000 م.

52. الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، محمد ضياء الدين الريس، مكتبة دار التراث، الطبعة الخامسة1985م.

53. الخلافة العباسية والحركات الاستقلالية بالمشرق، محمد عبد الحميد الرفاعى، دار الثقافة العربية، الطبعة الأولى 1997م.

54. العباسيون ملوك الدنيا، محمود عبد الفتاح شرف الدين، الناشر مكتبة الآداب 2001م.

55. الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، ج2، مكتبة وهبة ـ الطبعة الثالثة 1968م.

56. الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول، محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية 1401هـ ـ1981م.

57. تاريخ الدولة العباسية، نبيلة حسن محمد، دار المعرفة الجامعية 1990م.

58. الحضارة العباسية، وليم الخازن ـ دار المشرق ش م م.1992م.

59. الدولة العباسية (من التخلي عن سياسيات الفتح إلى السقوط)، نادية محمود مصطفى، ج9، المعهد العالمي للفكر الإسلامي القاهرة ـ الطبعة الأولى 1417هـ ـ1996م.

60. الحضارة العباسية، وليم الخازن، دار المشرق، الطبعة الثانية 1992م.

61. الأمويون العباسيون الأندلسيون، وجدان علي بن نايف، منشورات الجمعية الملكية للفنون الجميلة.

62. الخلافة العباسية في العصر التركي الأول، وفاء محمد علي، المكتبة الماجدية للنشر، الطبعة الأولى 1404هـ ـ1984م.

63. المسلمون في ظلال العباسين، يسرى أحمد عبد الله زيدان، دار الهانى للطباعة والنشر 2012م.

64. تاريخ عصر الخلافة العباسية، يوسف العش، راجعها ونقحها د/ محمد أبو الفرج العش، دار الفكر المعاصر ـ دمشق 1419هـ ـ1998م.

ثالثًا: الرسائل العلمية:

1. رسالة ماجستير (الأتراك والخلافة في العصر العباسي الأول)، عبد الباري محمد الطاهر ؛إشراف أحمد جاب الله شلبي1409هـ ـ1989م.

2. رسالة ماجستير(السياسة الخارجية للدولة العباسية): العصر العباسي الأول(132ـ332هـ)، نايف عيد جابر سهيل ؛إشراف إبراهيم أحمد العدوى، 1406هـ ـ 1985م.

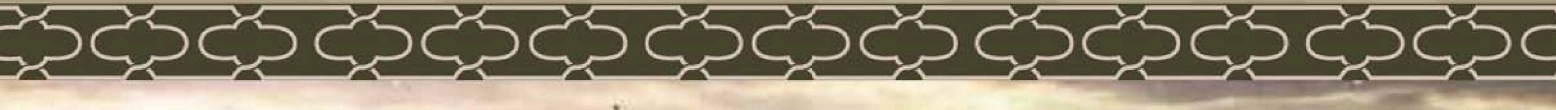
3. رسالة ماجستير(الأوضاع الاقتصادية في العراق والشام في العصر العباسي الأول، د/ يسرى زيدان؛ إشراف د: حسن علي حسن1411هـ ـ1991م.

رابعًا: الدوريات:

1. مقال أحمد بن حنبل، الموسوعة الحرة(شبكة النت).

المحتويات

يبحث هذا الكتاب في تاريخ الدولة العباسية في عصر ضعفها الطويل حيث نشأت دويلات في مشرق الدولة الإسلامية ومغربها. وجاءت الحملات الصليبية الأولى والثانية. ويبحث أيضاً في تتابع خلفائها وصدامهم مع الثورات الداخلية. ثم ظهور التتار، وسقوط بغداد، ونهاية الخلافة العباسية. ويختم موضوعه بنظرة عامة على حضارتها وعلومها.







مركز الكتاب الأكاديمي
عمّان-وسط البلد-مجمع الفحيص التجاري
ص . ب : 11732 عمّان (1061) الأردن
تلفاكس: 96264619511+ موبايل: 962799048009+
الموقع الإلكتروني: www.abcpub.net
A.B.Center@hotmail.com / info@abcpub.net